١٥٤

هجمات الروم البحرية

على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى

د. علية عبد السميع الجنزوري

● تاريخ المصريين

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



هجمات الروم البحرية

على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى

د. علية عبد السميع الجنزوري

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية البنات جامعة عين شمس



الهيئة المصرية العامة للكتاب

فرع الصحافة

١٩٩٩

الاشراف الفنى :

محمـود الجـزا

تقـــديم

يسرني أن أقدم للقارىء الكريم هذا الكتاب المهم عن « هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الاسلامية فى العصور الوسطى » ، الذى كتبته الأســتاذة الدكتورة عليــة الجنزورى ، أستاذة تاريخ العصور الوسطى بكلية البنات جامعة عين شمس ٠

والكتاب يقدم صفحة مهمة من تاريخ مصر بعد الفتح الاسلامى ، وبعد تحريرها من حــكم البيزنطيين (الروم) ٠ فلم تكف الدولة البيزنطية منذ ذلك الحين عن شن الهجمات البحرية على مصر من اجل اســتردادها ، باعتبارهــا أغنى أقاليم الامبراطوريــة امدادا بالقمح » ، أو « مخزن قمح القسطنطينية » ــ كمــا كانت تطلق عليهــا ــ ومدينة الاســكندرية كانت هى المدينـــة التاليــة بعد القسطنطينية فى الأهمية ، وبها أعظم كنائس الروم ٠

وقد قسمت الدكتورة علية الجنزورى كتابها الى ثلاثة أبواب الباب الأول ، ويشتمل على فصــلين ، تحدثت فيها عن هجمــات الروم على الاســكندرية بعد فتح حصـــن بابليون ، لادراكهم أن الاســكندرية هى مفتــاح مصر الحقيقى ، وناقشت الروايات التى تحدثت عن فتح الاسكندرية ، وعن الظروف التى ســاعدت على هــذا الفتح ٠ وانتقلت بعد ذلك الى الحــديث عن موقعــة ذات

الصوارى ، أول معركة بحرية خاضها العرب ، وناقشت الروايات التى تحدثت عن موقع هذه المعركة ٠

أما الباب الثانى ، فقد تناولت فيه الدكتورة علية الجنزورى هجمات الروم على الشواطىء المصرية حتى الحملة الصليبية الأولى ٠ فعالجت فى الفصل الأول هذه الهجمات من عام ٥٣ هـ ٦٧٣ م حتى حملة الروم على دمياط سنة ٩٠ هـ/٧٠٩ م ، وانتقلت الى دراسة حملة سنة ٢٣٨ هـ/٨٤٣ م على كريت ، لاستردادها من المسلمين ، وبينت أهميتها وأثرها ٠ أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن هجمات الروم على مصر من عام ٢٣٨ هـ/٨٤٣ م حتى وقوع الحملة الصليبية الأولى على دمياط عام ٩٠هـ/٧٠٩م ٠

وقد تناولت فى الباب الثالث التحالف بين الصليبيين والبيزنطيين (الروم) ضد مصر ، فناقشت فى البداية قصة هذا التحالف ، والظروف التى تم فيها فى عام ٥٥٤ هـ/١١٥٩ م ، بعد أن احتلت مصر مكان الصدارة فى خطط الصليبيين ، وأختتمت هذا الباب بالفصل الثالث عن الهجوم الصليبى البيزنطى على دمياط سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩ م ٠

والكتاب على هذا النحو يرسم صورة تاريخية محققة وموثقة لعلاقات أوروبا بمصر فى العصور الوسطى ، بقلم أستاذة مختصة ، وهو لذلك جدير بالقراءة ٠

رئيس التحرير

د٠ عبد العظيم رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

قــال تعــالى :

((والذين جاهــدوا فينا لنهدينهم ســبلنا ،
وان الله لمع المحســنين))

صدق الله العظيم

تقـــديم

كان المجاهدون المسلمون أشيـداء فى الحرب ، صامدين للعدو صمود الجبـال ، وكيف لا يكون ذلك حالهم وقـد كان القرآن شعارهم والتقوى لباسهم حتى شهد لهم أعداؤهم بذلك(١) .

واذا كنا سنتعرض فى موضـوعنا هـذا لجانب من جوانب جهاد المسلمين فى سبيل الله فى جزء مهم من أجزاء الوطن العربى الاسـلامى كله ، ألا وهو مصر ، مصرنا الغاليـة الحبيبة ، فاننا سنتعرض لجهاد مصر فى مواجهة عدو هددها باستمرار من جهة البحر لا البر ، فماذا كان مصـيره ؟ وماذا كان موقفها ؟ ثم لـماذا هـذا الاصرار على الهجمات البحرية بالذات على الشـواطىء المصريـة طوال العصور الوسطى ؟

هل كان ذلك راجعا الى أن هذا العدو الممثل فى الروم(٢) « البيزنطيين » أدركوا أن العـرب قوم مراكبهم الخيـول وأنهم يجهلون ركوب البحر ، وأن العبرة ليست بامتلاك شواطىء طويلة تمتد بحذاء البحر فى بلاد الشام ومصر وشمال افريقيا ، وانمـا العبرة بالقدرة على الدفاع عن هذه الشواطىء ؟ ، وبعبارة أخرى : هل استغل الروم نقطة الضعف فى حركة التوسع العربية ابان الدور الأول من أدوارها ، وهى عدم وجود أسطول قوى يحمى فتوحات

العرب البرية ، لذا شددوا هجماتهم البحرية خاصة على مصر ؟(٣) وربما أيد هـذا الرأى ما قيل عن الخليفة عمر بن الخطاب عندما ألح عليـه معاويـة بن أبى سـفيان فى غزو قبرس أنه كتب الى عمرو بن العاص فاتح مصر وأول ولاتها المسلمين « أن صف لى البحر وراكبـه فكتب اليه : انى رأيت خلقـا كبيرا يركبه خلق صغير ، ان ركد خرق القلوب وان تحرك أراع العقول ، ٠٠ وهم فيه كدود على عود ، انمال غرق ، وان نجـا فرق ، فلما قرأ عمر الكتـاب كتب الى معاويـة « والله لا أحمـل فيـه مسـلما أبدا » ؟(٤) ٠

أم أن ذلك يرجع الى اهتمام الروم بالبحر المتوسط « بحر الروم »(٥) والى أن يظلوا دائما سادته ؟

والراجح أن العاملين تضافرا فى اصرار الروم على استمرار هجماتهم على شواطىء مصر ، ولو أن تلك الهجمات الدائبة كانت تعنى لدى الروم شيئا آخر اهم وأعمق ، وهو أنهم كانوا يعتبرون مصر « اغنى أقاليم الامبراطورية امدادا بالقمح »(٦) وبمعنى آخر « مخزن قمح القسطنطينيـة »(٧) بل انهـا كانت أغنى اقـاليم الامبراطوريـة على الاطـلاق وأكثرهـا قيمـة من الناحيـة الاقتصـادية(٨) ٠

وهذا ما عبر عنه عمرو بن العاص عندما حاول اقناع الخليفة عمر بن الخطاب بفتح مصر حين قال : « يا أمير المؤمنين تأذن لى فى أن أصير الى مصر فانا ان فتحناها كانت قوة للمسلمين ، وهى من أكثر الأرض أموالا ٠٠٠ »(٩)

لذلك قيل : أنه بعد أن فقدت دولة الروم مصر بعد فتح العرب لها « فقدت مصـدر الثروة والقوة واضطرت ان تنكمش داخل حدود منطقة النفوذ الجغرافى للقسطنطينية »(١٠) ٠

فاذا أضفنا الى ذلك أن مدينــة الاســكندرية كانت تلى فى المكانة القسطنطينية مبـاشرة ، وربما تكون قد فاقتها فى أهميتهـا كمركز تجارى(١١) وأنها كانت بها أعظم كنائس الروم حتى أن هرقل(١٢) امبراطور الروم (٦١٠ ــ ٦٤١ م) عندما علم بتوجـه العرب بقيـادة عمرو بن العاص لفتح مصر قال « لئن ظفرت العرب على الاســكندرية ان ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الاسكندرية »(١٣) ٠

كذلك كانت مصر « تصــنع السفن الحربيــة لها وللدولة البيزنطية »(١٤) وذلك بعد انتهاء الدور الأول من الفتوحات ٠

وحتى عندما استولى المسلمون على مصر وعلى بلاد الشــام « لم تعترف الامبراطورية البيزنطية بضــياع هذين الاقليمين بل اعتبرتهما واقعين تحت احتلال عربى مؤقت ٠ وظلت تلك السياسة البيزنطية مطبقة حتى ٦٩٣ م ــ ٧٤ هـ وكان من آثارها أن بيزنطة لم تقم أى تمييز جمركى ضــد مصر والشام لأن التمييز الجمركى يعنى الاعتراف بأن مصر والشام بلاد أجنبية عنها »(١٥) ٠

هوامش التقديم

(١) وصف أحد بطارقة القبط العرب الذين قدموا لفتح مصر فكان مما قاله عنهم أنهم « أقوام قد هجروا الدنيا ، فمنهم القارىء ، ومنهم الذاكر ، لباسهم الصوف ، صغيرهم يوقر كبيرهم وكبيرهم يرحم صغيرهم وصوت أحدهم لا يعلو على لاخر ، الذكر كلامهم والقرآن شعارهم والتقوى لباسهم والخوف من الله أنيسهم » الواقدى : فتوح الشام ، (جـ ٢ ، ص ٨٠ ـ ٨١) .

(٢) يعرف الروم ببنى الاصفر ، والأصفر هو روم بن العيص بن اسحاق (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٩ مادة الروم ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ١ ، ص ٩٢) . وسوف نلتزم فى معالجتنا للموضوع الذى بين أيدينا بتسمية البيزنطيين باسم الروم وهى التسمية التى وصفوا بها فى ظل الاسلام وفى القرآن الكريم ، خاصة أن موضوعنا يتناول هجماتهم على شواطىء مصر الاسلامية .

(٣) د. عبد الرحمن الرافعى ـ د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٧١

(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٥ ، بل ان أحد المراجع الحديثة ذكر أن عمر أضاف قائلا : ان أى جندى مسلم أعز الى نفسه من كنوز اليونان جميعا .

«How can I permti my soldiers to said upon this unfaithful and cruel sea ! By God a single Muslim is dearer to me than all the treasures of the Greeks».

Aly Mohamed Fahmy : Muslim Sea-Power in the Eastern Mediterranean, P. 73.

(٥) بحر الروم أضيف الى الروم لسكنى أهمهم عليه من شماليه ، ويعبر عنه بالبحر الرومى أيضا ، وقد يعبر عنه بالبحر الشامى ، لوقوع سواحل الشام عليه من شرقيه ومخرجه من المحيط من بحر أوقيانوس بين الأندلس وبر العدوة من بلاد المغرب ، ويسمى هناك بحر الزقاق ، وربما قيل زقاق سبتة لمجاورته لها ، وهو هناك فى غاية الضيق (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ — ٢٢١) . وليس فى البحار أحسن حاشية من هذا البحر فان العمارات فى الجانبين ممتدة غير منقطعة وسائر البحر يعرض فى شطوطها المفاوز والمقاطع وتتردد فيه سفن المسلمين والروم يعبر كل فريق الى جانب الآخر سواء ، فيغنمون وربما اجتمع فيه الجيوش من المسلمين والروم فى السفن فيجتمع لكل فريق مائة سفينة حربية وأكثر من ذلك فيكون حربهم فى الماء (الاصطخرى : مسالك الممالك ، ص ٧١) وببحر الروم عدة جزر ذكرها القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٧٠ — ٣٧٥ فقال (جزيرة قبرس — جزيرة رودس — جزيرة اقريطش — جزيرة المصطكى — جزيرة التغريب — جزيرة لمريا — جزيرة صقلية — جزيرة سردانية — جزيرة فرسقة — جزيرة انكلطرة — جزيرة السناقر — جزيرة ميورقة — جزيرة يانسة وجزيرة قادس) .

(٦) G. Ostrogorsky : History of the Byzantine State, P. 95.

والمقصود هنا الامبراطورية البيزنطية .

(٧) Cam. Med. History V. IV. Part 1. P. 19.

ويضيف نفس المرجع ص ٣٩ أنه بعد فتح العرب لمصر كفت أمر الأساطيل المحملة بالقمح التى كانت تحمل من الاسكندرية كمصدر أساسى لامداد العاصمة البيزنطية .

(٨) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 115.

(٩) اليعقوبى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٤٧ — ١٤٨ . ولهذا فعندما فتح عمرو بن العاص مصر وأتى خطابه الى الخليفة عمر ، خر ساجدا وكتب الى عمرو « أن يحمل طعاما فى البحر الى المدينة يكفى عامة المسلمين حتى يصير الى ساحل الجار فحمل طعاما الى القلزم ثم حمله فى البحر فى عشرين مركبا فى المركب ثلاثة آلاف أردب وأقل وأكثر حتى وافى الجار » (اليعقوبى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٥٤) ومنذ ذلك الوقت استمرت مصر فى امداد الحجاز بالقمح . (Aly Mohamed Fahmy : Op, Cit., P. 16).

(١٠) Louis Bréhier : Vie et Mort de Byzance, P. 57.

(١١) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، ص ٥٢ ، د. وسام عبد العزيز فرج : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى ، ص ٢٥٦ . هنا تذكر الأستاذة الدكتورة سعاد ماهر أن تأسيس القسطنطينية أدى الى اضعاف الملاحة المصرية والتجارة الخارجية ، اذ تحولت صادرات الشرق الأقصى اليها عن طريق الخليج الفارسى ، ثم جزيرة العرب والشام على ظهر القوافل بدلا من عبورها البحر المتوسط . الا أن ذلك لم يطل أمره ، اذ اضطر الامبراطور جستنيان فى القرن السادس الى العودة الى طريق البحر الأحمر والثغور المصرية بعد أن قطع الفرس طريق القوافل الآتى من الخليج الفارسى ، وهكذا عادت للاسكندرية مكانتها الأولى واصبحت أعظم مدن البحر المتوسط ، وفاقت أهميتها كمركز تجارى أهمية القسطنطينية عاصمة الدولة .

(١٢) اسمه بالرومية أوقليس (القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤١٧).

(١٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١١٩ .

(١٤) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ... ، ص ٧٤ . ويضيف نفس المرجع أن الاسكندرية كانت مقر تلك الصناعة ، وأن هذه السفن الحربية كانت على نوعين ، نوع كبير الحجم ويمكن أن نسميه البوارج ، وتسع السفينة منها ألف رجل ، ونوع صغير ويمكن تسميته الطرادات وكانت الواحدة منها تسع مائة رجل كما كانت مهمتها السير السريع والالف حول السفن الكبرى . وقد ساعد على ازدهار صناعة السفن هذه أن مصر كانت تنبت نوعا من الكتان تصلح أليافه صلاحية تامة لعمل الحبال وأدوات السفن ، فقد ورد فى كتاب البلدان لابن الفقيه « ومن عجائب مصر نوع من الكتان اسمه (الدقس) كانت تصنع منه حبال السفن وكانت تسمى (القرقس) » .

(١٥) د. وسام عبد العزيز : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية ... ص ٢٦٣ .

البـــاب الأول

الروم والشواطيء المصرية حتى موقعة ذات الصــوارى

الفصل الأول : الروم والاسكندرية .

الفصل الثانى : موقعة ذات الصوارى .

الفصـــل الأول

الروم والاسكندرية

عندما فتح العرب حصن بابليون(١) فى ابريل ٦٤١ م(٢) / ٢٠ هـ(٣) كانت الاسكندرية العاصمة(٤) ، هى الجزء الوحيد الذى تبقى للروم فى مصر(٥) ، وهو ما عبر عنه الواقدى على لســان المقوقس عندما قال للعرب الفاتحين عندما تقدموا نحو الاسكندرية « ... وقد ملكتم منا مصر والصعيد وأكثر الريف ، وقــد بقى فى أيدينا هذه الجهة وما نحن منازعوكم فيما أخذتموه منا .. »(٦) .

وقد مر بنا كيف كانت الاســكندرية تتمتع بمكانة دينيــة واقتصادية مهمة بالاضــافة الى أنها كانت « المركز الأكثر تألقــا للحضارة الهلينية والنمط العريق للحياة المصرية الدائم والخــالد دون أى تغيير فى وادى النيل »(٧) .

وكانت حتى القرن السابع الميلادى تعتبر المدينــة الأولى فى العالم ــ اذا استثنينا قرطاجة القديمة وروما ــ فقد كان فن البناء بها لا مثيل له فى أى مكان آخر فى ذلك الوقت ولا قبله(٨) . هــذا الى أن الاســكندرية كانت كبرى المــدن المصريــة والمركز الأول للنشاط السياسى والاقتصــادى والثقــافى طوال عصرى البطالمــة والرومــان(٩) .

والواقع أن الروم كانوا يدركون جيدا أهميـة الاسـكندرية التجارية والحربية والبحرية ، ويعرفون جيدا أيضا أنه ان لم يتم استيلاء العرب على الاسكندرية فلا فائدة من استيلائهم على مصر كلها اذ تظل الاسكندرية شوكة فى جانبهم(١٠)

بدأ الروم يشعرون بخطورة الفتوحات العربية بصـورة أكثر جدية عندما نجح عمرو بن العاص فى دخول مصر وبدأ يتقدم نحو الاسكندرية وقد تجسم ذلك الخطر فى قول ملكهم هرقل « ما بقاء الروم بعد الاسكندرية »(١١) وذلك عندما أمر بالاستعداد حتى يخرج لقتال المسـلمين بنفسـه اعظاما للاسـكندرية ، ولذا أمر ألا يتخلف عنه أحـد من الروم مؤكـدا أنه « ما بقى للروم بعـد الاسكندرية حرمة »(١٢) ٠

وبمعنى آخر أدرك الروم أن الاسكندرية ــ وليس حصـن بابليون ــ هى مفتاح مصر الحقيقى ، فحشدوا فيها قواهم(١٣) ٠

واذا كانت المصادر العربية المختلفة قد أفاضت وأسهبت فى الحديث عن فتح المسلمين للاسكندرية ، فاننا نجد أنفسنا مضطرين للتوقف قليلا أمام أقدمها وهو الواقدى ، فنعثر على رأى فريد له فى كتابه « فتوح الشـام » مؤداه أن قائد فتح الاسـكندرية كان خالد بن الوليد(١٤) ، والراجح أن هذا الرأى به شىء من التحريف فى الكتابة أو النسخ ، لذا نجد أنفسنا مضطرين الى عدم الاعتماد عليه مطلقا ، خصـوصا أننا لم نعثر فى أى مصـدر(١٥) آخر على أية اشارة تعضد هذا الرأى ٠

فابن عبد الحكم مثلا يذكر أن عمرو بن العاص كان قد أرسل الى الخليفة عمر بن الخطاب ــ أثناء حصار بابليون ــ يطلب المدد « فأمده بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف رجل منهم رجل مقـام

الألف » وهم الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد(١٦) ٠

فلما تقدم عمرو لفتح الاسكندرية(١٧) حاصرها بنفسه شهرا ، فلما أبطأ فى فتحها بعث اليه عمر بن الخطاب من يستحثه على فتحها « ٠٠٠ قد كنت وجهت اليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف الا أن يكونوا غيرهم ما غيرهم ، فاذا أتاك كتابى هذا فأخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم فى الصبر والنية وقدم أولئك الأربعة فى صدور الناس وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تتنزل الرحمة ووقت الاجابة » ٠ ففعل عمرو ذلك ونصره الله(١٨) ٠

ويفهم مما سبق أن القادة الأربعة السابق ذكرهم هم الذين تولوا فتح الاسكندرية تحت امرة عمرو ٠ ثم يعود ابن عبد الحكم فيعطينا رواية أخرى وهى أن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلد فأشار عليه بأن يختار رجلا من أصحاب رسول الله له خبرته وتجاربه ، فيكون هو قائد المسلمين فى فتح الاسكندرية « أرى أن تنظر الى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعقد له على الناس فيكون هو الذى يباشر القتال ويكفيك » وأشار عليه باختيار عبادة بن الصامت ٠ وبالفعل استدعى عمرو عبادة وعقد له وولاه قتال الروم ، فتقدم عبادة مكانه فصاف الروم وقاتلهم ففتح الله على يديه الاسكندرية »(١٩) ٠

أما البلاذرى(٢٠) فقد فصل لنا الحديث عن كيفية دخول عمرو بن العاص الاسكندرية عندما ذكر أن عمرا سار حتى انتهى الى الاسكندرية(٢١) ، فوجد أهلها مستعدين لقتاله « وكان القبط

يحبون الموادعة » فأرسل اليه المقوقس(٢٢) يطلب المهادنة الى مدة فرفض عمرو بن العاص « فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات بوجوههن الى المسلمين ليرهبهم بذلك » .. فما كان من عمرو الا أن أرسل له قائلا : « انا قد رأينا ما صنعت وما بالكثر غلبنا ما غلبنا ـ فقال المقوقس لأصحابه .. قد صدق هؤلاء القوم ، أخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية ـ فنحن أولى بالاذعان ، وأغلظوا له القول وأبو الا المحاربة ... » فما كان من المقوقس الا أن تصالح مع عمرو بن العاص فبلغ ذلك هرقل ملك الروم « فسخط أشد السخط وأنكر أشد الانكار وبعث الجيوش فأغلقوا أبواب الاسكندرية وآذنوا عمرا بالحرب »(٢٣)

هنا نتوقف عند خطاب هرقل الذى أرسله كتعبير مباشر ورد قاطع على موقف المقوقس من المسلمين وكيف أن هرقل كان يستبعد اى تصرف من المقوقس ينتج عنه التنازل ولو عن شبر واحد من أرض مصر ، الى جانب ما تضمنه من استخفاف بقوة المسلمين . وفى نفس الوقت نحس فيه بمدى صدق أحاسيس المقوقس وبعد نظره فى الحكم على المسلمين الفاتحين الذين باعوا الدنيا بالآخرة. فقد جاء فى خطاب هرقل للمقوقس : « ... ان عندك من الروم بالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة .. فعجزت عن قتالهم »(٢٤) . فما كان من المقوقس الا أن عقب على هذا الخطاب بقوله : « والله انهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا .. »(٢٥) .

والحقيقة أن المقوقس كان قد طلب من عمرو ثلاثة أمور : الأول ألا ينقض الصلح مع القبط لأن رأيهم مثل رأيه « قد جعلت كلمتى وكلمتهم على ما عاهدتك فهم متمون لك على ما تحب .

والثانى ألا يصالح الروم بعد ذلك وأن يجعلهم « فيئا وعبيدا فانهم أهل لذلك » وأنه برىء منهم · والثالث أن يأمر بدفنه بالاسكندرية فأجابه عمرو على ما طلب(٢٦) · على أن يقيموا له الجسور والانزال والضيافة والأسواق من الفسطاط الى الاسكندرية ففعلوا ذلك « وصار القبط معهم يعاونونهم على قتال الروم »(٢٧) ·

والواقع أن (كيرس) بعد أن عقد الصلح مع عمرو بن العاص قرر أن يبعث الى الامبراطور هرقل بشروط الصلح فان أقره نفذه ، وبمقتضى هذا الصلح قبل البطريرك كيرس الاستسلام ودفع الجزية ، وأن تتوقف الأعمال العدائية ، غير أن بيزنطة تلقت الرسالة لقاء بالغ السوء ، ودعا هرقل كيرس الى القسطنطينية ليشرح له موقفه الذى بلغ فى نظره حد الخيانة · وأساء الامبراطور استقبال كيرس ، وجعل الأخير يدافع عن نفسه قائلا ان ما عرضه من دفع الجزية لهم — أى للعرب — يمكن تدبيرها بما يقرره من ضريبة على متاجر الاسكندرية وسلعها · ولوح بأنه عرض على عمرو بن العاص أن يتزوج ابنة الامبراطور المسماة Eudoca أملا فى أن يؤدى هذا الى اعتناق عمرو للمسيحية ، غير أن الامبراطور اشتد فى لوم (كيرس) ، لأنه فرط فى ذهب مصر الى المسلمين واتهمه بالخيانة وأمر بعزله وسلمه الى حاكم القسطنطينية فأنزل به المهانة ثم نفاه من البلاد(٢٨) ·

أما الطبرى فيعطينا رأيين عن كيفية اتمام عمرو بن العاص فتح الاسكندرية ، أولهما نقله فى الأصل عن أحد جنود الجيش الذى اشترك مع عمرو فى فتح مصر والاسكندرية ، ذكر فيه أنه بعد فتح بابليون وصل الجيش الى بلهيب ، وهى قرية من قرى الريف يقال لها قرية الريش ، وكانت سبايا المسلمين قد بلغت المدينة ومكة واليمن · فأرسل صاحب الاسكندرية الى عمر يقول :

« انى قد كنت أخرج الجزية الى من هم أبغض الى منكم معشر العرب ، لفارس والروم ، فان أحببت أن أعطيك الجزية على أن ترد ما أصبتم من سبايا أرضى فعلت » .

فاستأذنه عمرو فى أن يأخذ رأى الخليفة عمر فى ذلك الأمر « ان ورائى أميرا لا أستطيع أن أصنع أمرا دونه » وبالفعل جاء رد عمر بأن يرد لهم سباياهم ويأخذ منهم الجزية « لعمرى لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب الى من فىء يقسم » وأن يخيروا ما بأيديهم من السبى بين الاسلام ودين قومهم ، فمن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه . أما من وصل الى مكة والمدينة واليمن من السبى فلن يستطيع رده . فوافق صاحب الاسكندرية على تلك الشروط وفتحت الاسكندرية(٢٩) .

أما الرأى الثانى فيقول : انه عندما وصل عمرو بن العاص الى بابليون ولحق به الزبير « لقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف .. بعثه المقوقس لمنع بلادهم » فقال لهما عمرو « أنتما راهبا أهل هذه البلدة فاسمعا . ان الله عز وجل بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق وأمره به وأمرنا به محمد صلى الله عليه وسلم .. ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته وقد قضى الذى عليه .. وكان مما أمرنا به الاعذار الى الناس فنحن ندعوكم الى الاسلام فمن أجابنا اليه فمثلنا ، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية ، .. ومما عهد الينا أميرنا : « استوصوا بالقبطيين خيرا ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصانا بالقبطيين خيرا .. » فطلبوا أن يعطيهم عمرو مهلة خمسة أيام ليردوا عليه . فلما رجعا الى المقوقس وأراد أن يجيبهم الى طلبهم رفض أرطبون « وأمر بمناهدتهم » فلما مرت المهلة دون رد أرسل عمرو

الى الاسكندرية عوف بن مالك فطلب منهم النزول على رأى عمرو فى مقابل الأمان فوافقوا وقال لهم ما أحسن مدينتكم يا أهل الاسكندرية ! فقالوا ان الاسكندرية قال : انى أبنى مدينة الى الله فقيرة ، وعن الناس غنية ـ أو لأبنين مدينة الى الله فقيرة وعن الناس غنية فبقيت بهجتها(٣٠) ٠

وبذلك يعتبر الطبرى فاتح الاسكندرية هو عمرو بن العاص نفسه أو قائده عوف بن مالك ٠

بينما تذكر (Patrologia Orientalis) رأيا آخر هو أن « قرة(٣١) أسقف الاسكندرية صالح عمرو بن العاص على أن يؤدى كل سنة مائتى ألف دينار على ألا يدخل المسلمون مصر ولا صعدوا حدودها » على أن يعد الأموال ويرسلها لهم ، وأن (قرة) ظل مواظبا على ذلك مدة ثلاث سنوات لم يدخلها أحد من العرب(٣٢)

والواقع أن هذا أمر بعيد عن الصحة ، لأن العرب لم يرحلوا عن مصر بعد مصالحة عمرو بن العاص لأهلها ٠

ثم تضيف (البترولوجيا) أيضا أن قوما من أهل مصر توجهوا الى هرقل وأوغروا صدره على (قرة) وأنه « يأخذ الأموال من مصر ويدفعها الى العرب ٠٠ ويدفع اليهم خراج مصر الذى هو واجبه له » فغضب هرقل من ذلك ووجه الى مصر بطريقا يدعى منويل وأمره بعزل قرة من تدبير مصر وأن يتولى ذلك ويقوم بالذب عن أهلها ٠

فلما كان فى أواخر السنة نزل العرب الى مصر على العادة يريدون الأموال « فألفوا منويل نازلا على مصر مع جيوش الروم » فأخذوهم وادخلوهم اليه وسألهم عن أمرهم وحاجتهم فأخبروه

بالقصة فلمــا علم أنهم يريدون الأموال انتهرهم بغضب شــديد وصرفهم بهوان وقال : « انى لست قرة الأسقف الذى كان يعطيكم الأموال خوفا منكم لأنه راهب متعبد وأنا رجل صاحب سـلاح وحرب وشجاعة كما ترون من حالى ومالكم عندى الا الخزى والهوان. وانصرفوا من البلد ولا تعودوا اليه والا أتيت على أنفسكم وقد أعذر من أنذر » .

عندئذ رجع القوم الى عمرو بن العــاص فأخبروه بما حدث « فسار حتى وافى مصر ولقى بها منويل فهزمه وقتل عامة أصحابه ولحق منويل بالاسـكندرية مع من بقى من أصحابه ثم اســتولى العرب على مصر »(٣٣) .

هنا تنفرد البترولوجيا أيضا فى اعطاء صورة لموقف هرقل من قرة أو كيرس وكيف أنه عاد يتلطف معه ويعتذر له عما بدر منه نحوه ، وطلب منه أن يناور المسلمين لأنهم أرسـلوا الى النــاس كافة .. « كما أنه عــاد فقلده أمر مصر » ... ان قوما أعطونى فيك العشوا ورفعوا التى عنك الباطل .. ان هؤلاء أرسلوا كافة على النــاس .. فان قــدرت على مداراة القوم ودفعهم عن مصر بما عز وهان فافعل .. »(٣٤) .

وتستكمل (البترولوجيا) روايتها فتذكر أن (قرة) قال « كيف أستطيع دفع القوم وقد صرت عندهم كذابا » وما كان منه الا أن توجه الى عمرو بن العاص واعتذر له أنه لم يكن سبب نقض العهد ، وأن هرقل هو الذى صرفه عن رأيه وطلب منه التفــاوض معه من جديد لأنه لا يثق به « فانصرف قرة الى الاسكندرية بغير قضاء حاجة »(٣٥) .

وبذلك خالفت (البترولوجيا) بقيــة المصــادر فى أن عمرا وصل الى اتفــاق مع كيرس وأن ذلك كان ســببا فى غضب هرقل

وتصميمه على الخروج بنفسه على رأس جيش الى الاسكندرية للدفاع عنها ضد المسلمين • وبالفعل تم ارسال قوات كبيرة من الروم الى الاسكندرية فقد « قدمت مراكب كثيرة من أرض الروم فيها جمع من الروم عظيم بالعدة والسلاح »(٣٦) •

كانت حامية الاسكندرية تقدر بنحو خمسين ألف رجل(٣٧) • وكانت المدينة غاية فى الحصانة « حصون متينة لا ترام حصن دون حصن »(٣٨) بالاضافة الى أن الروم كانوا مسيطرين على البحر بأساطيلهم وكان المدد يأتى اليهم عن هذا الطريق(٣٩) « كانت رسل ملك الروم تختلف الى الاسكندرية فى المراكب بمادة الروم »(٤٠) • وبذلك توافرت المؤن بالمدينة(٤١) •

كذلك كانت المدينة محمية من ثلاث جهات ، من ناحية البحر المتوسط شمالا وبحيرة مريوط جنوبا وقناة الثعبان غربا ، ولم يتيسر الوصول الى الاسكندرية الا من جهة الشرق والجنوب الشرقى • على أن المحاصرين لم يكن بوسعهم أن يقتربوا من الأسوار من هذه الناحية ، نظرا لوقوعهم هدفا للرماة من فوق الأسوار ، وزاد من مناعة المدينة ما يحيط بها من أسوار ضخمة تحميها الآلات القوية(٤٢) •

والحقيقة ان أحوال الاسكندرية نفسها ساعدت على فتح المسلمين لها وذلك بسبب سوء حالة جيش الروم بها لتنازع القواد ولانقسام الرأى الاسكندرى أثناء حصار العرب للمدينة • وكانت كراهية الناس لبيزنطة السبب الرئيسى للتخاذل والضعف فتخلوا عنها ، اذ اشتد سخط السكان لما جرى من فساد الحكم وثقل وطأة الضرائب وكثرة أنواعها ، والاضطهاد الدينى والاضطراب والفوضى الناشبة فى البلاد(٤٣) •

يضاف الى ذلك كله اضطراب أمور دولة الروم نفسها بعد موت هرقل فى ١١ فبراير ٦٤١ م/٢٠ هـ(٤٤) « صرعه الله فأماته وكفي المسلمين مؤنته »(٤٥) • وبذلك كسرت بموته شوكة الروم(٤٦) ووهن أمرهم « فقد رجع جمع كثير ممن كان قد توجه الى الاسكندرية »(٤٧) •

ظل العرب محاصرين للاسكندرية مدة ثلاثة أشهر(٤٨) ، بل قيل : ان حصارها امتد الى أربعة عشر شهرا « تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك »(٤٩) •

أثرت أوضاع دولة الروم الداخلية على قوات الروم المحاصرين فى الاسكندرية وسهلت سقوط المدينة فى يد العرب • فبوفاة هرقل تولى ابناه قسطنطين وهرقل الثانى ونصبت الامبراطورة مارتينة أم ولده هرقل أو هرقلونس شريكة لهما فى الحكم ، فعملت هذه الامبراطورة على انهاء الحرب لانشغالها وساسة الروم بالفتن الداخلية التى قامت من أجل النزاع على العرش وصادفت سياستها هوى لدى المصريين وبعض الحكام الروم المسيطرين على سير الأمور فى مصر ، وعلى وجه الخصوص دومنتيانوس Domentianus الذى كان مواليا للامبراطورة مارتينا ، لذا اجتمعوا واتفقوا مع قيرس ـ الذى كان قد أعيد الى مصر(٥٠) ـ على انهاء الحرب بعقد صلح مع المسلمين • وبالفعل انتهت المساعى بعقد معاهدة بابليون الثانية أو معاهدة الاسكندرية(٥١) وذلك فى ٨ نوفمبر سنة ٦٤١ م(٥٢) •

بل قيل أن من أهم العوامل التى ساعدت على عقد معاهدة بين المسلمين والروم أن الفوضى التى سادت العسكريين أدت الى تفكك قيادة الجيوش الرومية المدافعة عن مصر ، وغدا الاستبسال فى الدفاع

عن البلاد المصرية ضد الجيوش الاسلامية الغازية حركات فردية يقوم بها هذا القائد أو ذاك . وكان من بين القواد الذين قاوموا الجيوش الاسلامية مقاومة عنيفة القائد مانويل الذى صمد لحصار عمرو بن العاص للاسكندرية ، وكاد يبعث الضجر فى نفوس المحاصرين العرب . وما ان توفى هرقل حتى عم الاضطراب فى القسطنطينية ويئس مانويل من وصول امدادات تشد ازره فى الدفاع عن الاسكندرية وانسحب منها بحرا . فى الوقت الذى منحت فيه مارتينا ـ صاحبة النفوذ الأعلى فى دولة الروم آنذاك ـ للمقوقس سلطة مفاوضة العرب فى مصر(٥٣) . وبالفعل قام بعقد المعاهدة التي عرفت بمعاهدة الاسكندرية . وكانت أهم شروط تلك المعاهدة ما يلى :

١ ـ أن يدفع الجزية كل من تنطبق عليه المعاهدة .

٢ ـ عقد هدنة بين الطرفين مدتها أحد عشر شهرا تنتهى فى أول شهر بابه القبطى الموافق الثامن والعشرين من شهر سبتمبر ٦٤٢ م .

٣ ـ أن يكف العرب والروم فى أثناء تلك الهدنة عن القتال .

٤ ـ أن ترحل حامية الاسكندرية فى البحر ، ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم . على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزءا معلوما ما بقى فى أرض مصر فى رحلته .

٥ ـ ألا يعود جيش من الروم الى مصر أو يسعى لردها .

٦ ـ أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا فى أمورهم .

٧ ـ أن يتاح لليهود الاقامة فى الاسكندرية .

٨ ـ أن يبعث الروم رهائن من قبلهم ، مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من المدنيين ضمانا لتنفيذ المعاهدة(٥٤) ٠

كان لابد من اقرار تلك المعاهدة من جانب الخليفة عمر بن الخطاب وامبراطور الروم ٠ وفى انتظار ذلك كان على كيرس (المقوقس) أن يقنع أهل الاسكندرية بضرورة الموافقة على هذا الصلح حتى قيل أنه كان يبكى « وهو يطلب من الناس أن يصدقوا أنه انما بذل جهده فى أمرهم وأن يرضوا بالصلح الذى عقده من أجلهم « وبالفعل عاد الناس الى رأى الجيش ورضوا بالنزول عن مدينتهم للعرب واخذوا يجمعون قسط الجزية وهو ثلث المقدار المطلوب وأعطوه للمسلمين فى ١٠ ديسمبر ٦٤١ م/المحرم سنة ٢١ هـ(٥٥) ٠ وكان المبلغ يقدر بنحو ثلاثة عشر الف دينار »(٥٦) ٠

وفى نفس الوقت أخذ العرب يخضعون البلاد ريثما يتم التصديق على المعاهدة فاستولوا على مدن كثيرة بالدلتا مثل رشيد والبرلس ودمياط وتنيس(٥٧) ٠

وقد اختلف فى فتح الاسكندرية الأول على يد العرب ، فالبعض يذكر أنه كان « سنة عشرين »(٥٨) والبعض الآخر يذكر أنه كان « سنة احدى وعشرين » (٥٩) ورأى أخير يذكر أنه كان « سنة اثنتين وعشرين »(٦٠) ٠

وهكذا استسلمت الاسكندرية للعرب الفاتحين عن طريق معاهدة الاسكندرية السابقة الذكر ٠ وتم للعرب بذلك الاستيلاء على « أعظم موقع استراتيجى ، مفتاح الشمال الافريقى بأسره ومركز حضارة ومدنية عمل الزمن وساعدت الظروف السياسية على اقامتها فى الطرف الشمالى الشرقى من القارة الافريقية »(٦١) ٠

ولكن بالرغم من ذلك وبالرغم من ارتفاع مكانة الاسكندرية بتلك الصورة فان المسلمين لم يستخدموا تجاهها أى ضغط أو قوة فى بادىء الأمر(٦٢) ٠

ويقال انه لما هزم الله الروم وفتح الاسكندرية هرب الروم فى البر والبحر ، فخلف عمرو بن العاص بالاسكندرية آلف رجل من أصحابه ومضى هو ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر فرجع من كان هرب من الروم فى البحر الى الاسكندرية ، فقتلوا من كان فيها من المسلمين الا من هرب منهم ٠ وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعا ، ففتحها وأقام بها وكتب الى عمر بن الخطاب أن الله فتح عليهم الاسكندرية « عنوة بغير عقد ولا عهد »(٦٣) ٠

وعندما دخل عمرو بن العاص الاسكندرية فى ٢٩ سبتمبر سنة ٦٤٢ م(٦٤)وجد بها « ألف مركب من مراكب الروم الكبار »(٦٥) فجلا عنها الروم الذين كانوا يقدرون « بمائتى ألف »(٦٦) وغادرها الأسطول الرومى فى الثامن عشر من سبتمبر(٦٧) أو السابع عشر منه ٦٤٢ م/٢١ هـ « بعد أن استمرت قواته بها عشرة قرون من الزمان »(٦٨) ٠ وقد اتجه الأسطول بعد مغادرة الاسكندرية الى جزيرة رودس(٦٩) ٠ وقدر عدد الروم الذين غادروا الاسكندرية عندئذ بثلاثين ألفا حملوا معهم ما استطاعوا حمله من المال والمتاع والأهل ، أما من بقى فقد اعتبر أسيرا ، « وبقى من الأسارى من بلغ الخراج فأحصى يومئذ ستمائة الف سوى النساء والصبيان »(٧٠) ٠

استخلف عمرو بن العاص على الاسكندرية « عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم بن عمر بن هصيص بن

كعب بن لؤى »(٧١) وترك بالمدينة ربع القوات التى معه وجعل الربع الثانى بالسواحل ، أما النصف الباقى فكان معه · وكان الربع الذى يقيم بالاسكندرية يقيم لمدة ستة أشهر فى الصيف ثم يعقبهم ربع آخر ستة أشهر فى الشتاء(٧٢) ·

وكان عمر بن الخطاب « يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية فكانت الولاة لا تغفلها وتكشف رابطتها ولا تأمن من الروم عليها »(٧٣) · وكان المرابطون فى الاسكندرية من المجاهدين ينزلون دورا خصصت لهم ، وكانت الدار الواحدة أحيانا ما تسكنها قبيلتان أو ثلاث(٧٤) ·

هنا نود أن نشير الى نقطة مهمة ، هى أن عمرو بن العاص بعد أن أتم فتح الاسكندرية طلب منه أن يقسمها بين الفاتحين فاعتذر بأنه لن يفعل ذلك الا بعد أن يأخذ رأى أمير المؤمنين « لا أقدر على قسمها حتى أكتب الى أمير المؤمنين » وبالفعل كتب اليه فى هذا الشأن فرد عليه عمر بألا يقسمها وأن يتركها ليكون خراجها « فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم »(٧٥) فتركها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج(٧٦) ·

واذا كانت مصر كلها بعد فتح العرب لها تدفع للفاتحين جزية عن الراس تقدر بدينارين « لا يزاد على أحد منهم فى جزية رأسه أكثر من دينارين الا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع » فان أهل الاسكندرية كانوا يؤدون الخراج والجزية « على قدر ما يرى من وليهم » لأن الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة(٧٧) ·

والحقيقة أن هذه النقطة كانت أحد الأسباب المهمة التى أدت الى نقض أهالى الاسكندرية لما عاهدوا عليه العرب الفاتحين·

فقد قيل أن (صاحب اخنا) قدم على عمرو وقال له أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فرد عليه عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة : « لو أعطيتنى من الركن الى السقف ما أخبرتك انما أنتم خزائنه لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عنكم » لذا غضب صاحب اخنا وخرج الى الروم وأثارهم ضد المسلمين فقدموا الى الاسكندرية لمحاربتهم ، وبذلك نقضوا العهد الذى كان بينهم(٧٨) .

فاذا كان موقف صاحب اخنا هذا هو أحد الأسباب التى جعلت الروم ينقضون عهدهم مع عمرو بن العاص ويعاودون القدوم الى الاسكندرية مرة أخرى لاستعادتها ، فان المصادر والمراجع المختلفة أعطتنا عدة أسباب أخرى يمكننا أن نضيفها الى هذا السبب منها :

انه بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب وتولى عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص عن مصر سنة ٢٥ هـ فانتهزت دولة الروم تلك الفرصة لتقوم بهجوم مضاد ضد مصر(٧٩) .

بل قيل أنه فى ٢٥ هـ / ٦٤٥ م خالف أهل الاسكندرية ونقضوا صلحهم وكان سبب ذلك « أن الروم عظم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية وظنوا أنهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الاسكندرية عن ملكهم فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم الى نقض الصلح ، فأجابوهم الى ذلك »(٨٠) . فى حين يذكر رأى آخر أن أهل الاسكندرية نقضوا العهد سنة ٢٥ هـ « لأن ملك الروم بعث اليهم (معويل) الخصى فى مراكب فى البحر ، فطمعوا فى النصرة ونقضوا ذمتهم »(٨١) .

كما ذكر أيضا أن جماعة من زعماء الاسكندرية أنفذوا كتبا الى الامبراطور قنسطانز الذى انفرد بالحكم بعد وفاة هرقلونس

يسألونه النهوض لمساعدتهم ، وشرحوا له أنه ليس بالاسكندرية الا حامية ضعيفـة لا تقوى على دفع جيش الروم • فأثرت تلك الكتب فى الامبراطور الذى لم ينس ما لحـق بدولتـه من الضرر بضياع مصر(٨٢) •

ومهما اختلفت الآراء فقد حدثت انتفاضـة فعلية من جانب الروم ومحاولة جادة لاستعادة الاسكندرية • وذلك سنة ٢٥ هـ أشارت اليها بعض المصادر اشارات موجزة(٨٣) ، وأسهبت بعض المصادر الأخرى فى ذكر تفاصيلها(٨٤) •

فقد أرسل الامبراطور قنسطانز الثانى فى ٢٥ هـ / ٦٤٥ م أسطولا كبيرا هدفه اجلاء العرب عن مصر اجلاء تاما(٨٥) • ورست قطع الأسطول الرومى بقيادة (منويل الخصى)(٨٦) بالاسكندرية « وأجـابهم من بهـا من الروم ولم يكن المقـوقس تحـرك ولا نكث »(٨٧) •

والواقع أن الروم توخوا السريـة التامـة فى ارسـال تلك الحملة ، وكانت دولة الروم الى ذلك الحين لا تزال على سلطانهـا فى البحر « غير مدافعين ولا معاندين » • وعلى العكس من ذلك كان العرب ، فلم يكن لهم فى ذلك الوقت سفينـة واحدة فى البحـر المتوسط تأتيهم بأخبار أسطول الروم الذى بعث به الامبراطور للاستيلاء على الاسكندرية ، فما شعر العرب الا وأسطول الروم يدخل ميناء الاسكندرية فى ثلاثمائة سفينة ، وألقى فيها مراسيه غير مدافع ، ولم يكن بالمدينـة الا ألف رجل من العرب للدفـاع عنها فتغلب عليها الروم وقتلوهم الا عددا قليلا(٨٨) •

وبالفعل تم استيلاء جيش الروم على الاسكندرية فى نهايـة ٦٤٥ م / ٢٥ هـ وزحف بعدها الى ما يليها من بلاد الدلتا ينهب

فيها وينتصب من السكان ما لديهم من القمح والنبيذ والمال(٨٩)٠ عندئذ تحرج مركز العرب فى مصر ، وكان الوالى اذ ذاك عبد الله بن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان(٩٠) ٠

والحقيقة أن انتصار الروم فى ذلك الوقت كان « نصرا مؤقتا »(٩١) فقد طلب أهل مصر عندئذ من الخليفة عثمان بن عفان أن يقر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم ، فان له خبرة ودراية بمحاربة الروم فنفذ طلبهم(٩٢) ٠ وبالفعل أعيد عمرو الى مصر ، فكانت اعادته عملا مهما وخطوة موفقة ، حيث أتيح فيها لقاء فاتح مصر الأول والخبير بشئونها بالقائد مانويل البيزنطى العنيد الذى كان كل هدفه أن يعيد مجد دولته فى مصر »(٩٣) ٠

سار عمرو لملاقاة عدوه بجيش مكون من « خمسة عشر ألفا »(٩٤) وانضم الى المقوقس من اطاعه من القبط ، أما الروم فلم يطعه منهم أحد ٠ فأشار البعض على عمرو بن العاص أن يسرع فى مهاجمتهم قبل أن يكثر عددهم وأنه لا يأمن « أن تنتفض مصر كلها » فرفض عمرو قائلا « دعهم حتى يسيروا الى فانهم يصيبون من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض »(٩٥) ٠

وبالفعل خرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها وينهبون ما مروا به فلم يعترض لهم عمرو حتى بلغوا نقيوس فلقوهم فى البر والبحر ، ودارت بين الجانبين معارك شديدة طاردهم المسلمون فيها حتى الاسكندرية وانتهت بانتصار المسلمين ومقتل قائد الروم منويل الخصى(٩٦) ، أو هروبه للقسطنطينية(٩٧) ، ولو أنه يرجح أنه قتل ، وذلك فى صيف ٦٤٦ م(٩٨) ٠

وقد قتل مع قائد الروم أعداد غفيرة منهم ، وفى النهاية تدخل البعض وطلبوا من عمرو أن يرفع السيف عنهم • وبالفعل تم ذلك ، وبنى فى ذلك الموضع الذى رفع فيه السيف مسجدا وهو المسجد الذى يعرف فى الاسكندرية بمسجد الرحمة ، والذى سمى بذلك لرفع عمرو السيف هناك(٩٩) • أما من نجا من القتل من الروم فقد لجأوا الى السفن وهربوا بها بحرا(١٠٠) •

وهكذا تشدد عمرو بن العاص فى موقفه من الروم فى الاسكندرية هذه المرة • وقد عبرت المصادر والمراجع المختلفة عن ذلك بصور شتى ، فمثلا البلاذرى يذكر أنه « دخلها بالسيف عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية »(١٠١) أما اليعقوبى فيقول : ان عمرو فتح الاسكندرية سنة ٢٥ هـ « وسبى الذرارى ووجه بهم الى المدينة ، فردهم عثمان الى ذمتهم الأولى »(١٠٢) • بينما يذكر ابن عبد الحكم والمقريزى أن عمر فتح الاسكندرية فى هذه المرة « عنوة وقسرا »(١٠٣) فى حين يكتفى الكندى بالقول بأن الاسكندرية « فتحت الفتح الثانى عنوة سنة خمس وعشرين »(١٠٤) بينما يذكر ابن كثير أن عمرو بن العاص غزا أهل الاسكندرية « فى ربيع الأول سنة ٢٥ هـ فافتتح الأرض عنوة وافتتح المدينة صلحا »(١٠٥) • أما ابن العماد فيذكر أن عمر « قتل وسبى »(١٠٦) فى الوقت الذى اكتفى المؤرخ (ألفريد بتلر) بالقول بأن الاسكندرية تم الاستيلاء عليها نهائيا بالقوة(١٠٧) •

والواقع أنه مهما اختلفت الآراء فان الاسكندرية فتحت فى المرة الثانية بالقوة •

وكان الروم عندما خرجوا من الاسكندرية وتوجهوا الى الوجه البحر قد أخذوا الأموال من أهل القرى التى مروا بها سواء من

أيدهم أو عارضهم فلما انتصر المسلمون عليهم جاء الفريق المعارض للروم وطلبوا من عمرو أن يرد عليهم أموالهم ودوابهم لأنهم لم يخالفوهم « فرد عليهم ما عرفوا من أموالهم بعد اقامة البينة »(١٠٨) ٠

هذا وقد هدم عمرو سور الاسكندرية وتركها بغير سور لأنه كان قد حلف أنه اذا نصره الله على الروم وأجلاهم عن الاسكندرية فى تلك المرة ، أن يهدم سورها ويجعلها « مثل بيت الزانية يؤتى من كل جانب »(١٠٩) ٠

وقد ساعد الأقباط العرب الفاتحين ضد الروم واستسلموا لحكمهم مما يثبت أنهم « فضلوا الخضوع للعرب عن الخضوع لبيزنطة »(١١٠) ٠

أما عمرو بن العاص فلم يستمر فى ولاية مصر بعد فتح الاسكندرية الثانى سوى شهر واحد عزله بعده عثمان بن عفان وولى عبد الله بن سعد(١١١) ٠

وبالنسبة لحركة الفتوحات الاسلامية فانها سارت قدما فى طريقها الطبيعى واستولى العرب بعد فتح الاسكندرية الثانى على السواحل « فيما بين الاسكندرية والفرما »(١١٢) ٠ بل أن الخليفة عثمان بن عفان تشدد بعد ذلك فى توصياته بضرورة الحفاظ على الاسكندرية والسهر على حراستها ، وهذا ما عبر عنه عندما كتب لواليه على مصر ـ عبد الله بن سعد بن أبى سرح يقول « قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية ، وقد نقضت الروم مرتين ٠ فالزم الاسكندرية مرابطيها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم فى كل ستة أشهر(١١٣) ٠

والواقع أنه بعد فتح العرب الاسكندرية للمرة الثانية ، استمرت مصر بصفة دائمة تحت الحكم الاسلامي(١١٤) .

ولقد كانت أهمية مصر بالنسبة لدولة الروم ، وعدم قدرة الأخيرة على التسليم بضياع مصر هو الدافع وراء المحاولات الدائبة التى قامت بها دولة الروم لاستعادة تلك البقعة الشديدة الأهمية بالنسبة لاقتصادها . وقد تمثلت أولى تلك المحاولات بعد حوالى تسع سنوات من استيلاء العرب النهائى على الاسكندرية ونقصد بها موقعة ذات الصوارى البحرية الشهيرة .

هوامش الفصـــل الأول

(١) يسميـه الطبرى فى تاريخـه ، جـ ٤ حوادث سـنة عشرين (بـاب اليون) .

(٢) كان ذلك يوم عيد الفصح يوم الاثنين ١٩ ابريل (د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤١٨) .

(٣) اختلف فى السنة التى تم فيهـا فتح مصر فبينما يذكر ابن عبد الحكم أنها فتحت عشرين (ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٨٠) يذكر الطبرى انها فتحت اما سنة « ست عشرة أو عشرين » ويؤكد الكندى : كتـاب الولاة وكتـاب القضـاة ، ص ٩ وابن الجوزى : تاريخ عمر بن الخطـاب ، ص ١١١ فتح مصر فى سنة عشرين هجرية .

(٤) د. السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ٤١٢ ، د. ابراهيم العدوى ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٤٩ .

Aly Mohmaed Fahmy : Op. Cit., P. 78.

(٥) Bernard Lewsi : The Arabs in History, Hutchinson of London P. 54.

(٦) الواقدى : فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٨٣ .

(٧) Christopher Dawson : Le Moyen-Age et les Orignies de L'Europe, P. 146.

(٨) Alfred J. Butler : Arab Conquest of Egypt, P. 291.

(٩) د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصـور الوسطى ، ص ٢٧ .

(١٠) د. سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ١٩٧٠ ، ص ١٢ – ١٣

(١١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ص ٧٦ .

(١٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١١٩ .

(١٣) د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور ، مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٧ – ٢٨ .

(١٤) الواقدى : فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٧٤ : ٨٦ .

يقول الواقدى ما ملخصه ان ابن المقوقس – ويسميه أرسطوليس – لما انهزم أمام المسلمين توجه الى الاسكندرية ثم بلغه فتح مصر فعز عليه ذلك . وبعث عدة مراكب من الاسكندرية شحنها بالرجال وطلب منهم أن يباغتوا سواحل بلاد الشام وينقضوا بهجوم على المسلمين ، وبالفعل ساروا الى سواحل الرملة وباغتوا المسلمين بهجوم وقتلوا منهم رجالا ، وأخذوا عددا من الأسرى ، وعدة غنائم أخرى ، ويقال أن عدد الأسرى بلغ حوالى ألف ومائة ، فوضعوهم فى المراكب وعادوا الى الاسكندرية . عندئذ أرسل أبو عبيدة بن الجراح لعمرو بن العاص يخبره بذلك ويحذره من صاحب الاسكندرية ، فلما وصل الخطاب الى عمرو صعب عليه وأرسل الكتاب الى خالد بن الوليد وكتب اليه يحثه بالمسير الى الاسكندرية . اما عن أسرى المسلمين فقد أرسلهم ابن المقوقس الى احد الأديرة ويسمى « دير الزجاج » وبعث معهم قوة تتكون من ألفين من الرجال . لكن خالدا عرف أخبارهم فتوجه اليهم ومعه شراحبيل بن حسنة وعامر بن ربيعة ويزيد بن أبى سفيان وهاشم بن سعيد القعقاع وغيرهم وتمكن هو ورفاقه من تخليص الأسرى المسلمين وقتلوا من أعدائهم سبعمائة وأسروا ألفا وثلاثمائة ثم توجهوا الى الاسكندرية ومعهم أسراهم من القبط .

وفى نفس الوقت كان أرسطوليس قد أرسل الى ملك برقة المسمى (كيماويل) وطلب منه النجدة بعد أن حذره من العرب ، وبالفعل أرسل ملك برقة لنجدته جيشا مكونا من أربعة آلاف .

كذلك أرسل ملك برقة كبير البطارقة عنده والذى كان يسمى سطيس الى المقوقس يبشره بقدوم النجدة اليه ، فلما وصل هذا البطريك الى الاسكندرية طلب منه ابن المقوقس أن يتدخل فى الصلح بينهم .

فلما وصل البطريرك عند خالد بن الوليد دار بينهما حديث جدد سطيس على أثره اسلامه على يد خالد ثم حذرهم من شقيق ملك برقة الذى سيأتى

بعده بمحاربتهم وأن ملك الاسكندرية يريد صلحهم على أن يعطيهم شيئا من المـال ويسلم اليهم قوما من أصحابهم كانوا قد أخذوهم من ساحل الرملة ، فما كان من خالد الا أن أخبره بأنهم قد فك الله أسرهم وجمع بهم شملهم ... عندئذ أسقط فى يد ابن المقوقس وطلب من أرباب دولته الاستمداد لحرب العرب حتى تسلمهم نجدة ملك برقة وما أن التحم ابن المقوقس بالعرب الفاتحين حتى ارتعدت فرائصـه ، ففر هاربا الى جزيرة كريت وأخذ معه أمواله وحريمه وأولاده .

وعندئذ توجه أهل الاسكندرية الى خالد فقال لهم « خير الناس من قدر وعفا ونريد منكم ألف مثقال ذهبا صلحا من أنفسكم وأهاليكم وندعوكم بعد ذلك الى الاسـلام ، فمن أجاب منكم كان له ما لنا وعليه ما علينـا ومن عدل عن ذلك أخذنا منه الجزية عن السنة التالية من كل رجل وغـلام بلغ الحلم أربعة دنانير ، فوافقوا على ما شرطه عليهم » .

وجمع أهل الاسكندرية المـال ومضوا به الى خالد وبنى فيها المساجد وأخذ كنيستهم العظمى فجعلهـا جامعـا وترك لهم أربع كنـائس وكتب الى عمرو بن العاص يخبره بفتح الاسكندرية ففرح وركب وترك موضعه أبا ذر الغفارى وذهب الى الاسكندرية وبنى فيها جامعا فى الربض .

وهكذا نستنتج من رواية الواقدى هذه أن الاسكندرية فتحت على يد خالد بن الوليد تحت أمرة عمرو بن العاص ، لكن بقية المصـادر والمراجـع تعطينـا رأيا مخالفـا تماما لذلك ، بل انها لم تذكر على الاطـلاق اسـم خالد بن الوليد .

(١٥) على سبيل المثال لا الحصر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٦١ : ٧٢ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ ، الطبرى : تاريخه ، أحداث سنة ٢٠ هـ ، ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الصحابة ، القسم الثـانى حرف الخـاء ، ص ٤٣٧ ، ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، المجلد الثانى ، ص ١١٠ ـ ١١١ ، ابن حجر العسقلانى : تهذيب التهذيب ، جـ ٨ ، ص ٥٧ .

(١٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦١ . وهنـا يذكر أن البعض يضعون خارجة بن حذافة بدلا من مسلمة بن مخلد .

(١٧) تقـدم اليهـا من الفسـطاط (ابن عبد الحـكم : فتوح مصر ، ص ٧٢) .

(١٨) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(١٩) ابن عبد الحكم : المصدر السابق نفس الصفحة .

هنا يذكر ابن عبد الحكم ، ص ٦٦ أن عبادة بن الصامت كان قد اختاره عمرو بن العاص للتفاوض باسم المسلمين الفاتحين قبل عقد الصلح بين المسلمين والمقوقس وفتح مصر . وكان عبادة أسود اللون ، فلما ركبوا السفن الى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده ، فقال نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمنى فقالوا جميعا : ان هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وانما نرجع جميعا الى قوله ورأيه ، وقد أمر الأمير دوننا بما أمره به وأمرنا الا نخالف رأيه وقوله . فقال وكيف رضيتهم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وانما ينبغى أن يكون هو دونتم قالوا : كلا انه وان كان أسود كما ترى فانه من أفضلنا سابقة وعقلا ورأيا وليس ينكر السواد فينا . فقال المقوقس لعبادة تقدم يا أسود وكلمنى برفق فانى أهاب سوادك وان اشتد كلامك على ازددت لذلك هيبة . فتقدم اليه عبادة فقال قد سمعت مقالتك وان فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود كلهم أشد سوادا منى وأفظع منظرا ، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لى . وأنا قد وليت وأدبر شبابى .. ان غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته لليله ونهاره وشملة يلتحفها . فان كان أحدنا لا يملك الا ذلك كفاه وان كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله .. فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله : لقد هبت منظره وان قوله لأهيب عندى من منظره .

(٢٠) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .

(٢١) كان ذلك سنة ٢٠ هـ / ٦٤١ م « د. ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٤٩ » .

(٢٢) المقوقس أو كيرس (د. سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام) ، ص ٨ ، وهو نفسه (قرة) الذى يشار اليه فى

Agapitus : Kitab Al-Unvan : Patrologia Orientalis, V. VIII, P. 471.

كان كيرس أسقفا لفاسيس Phasis الواقعة بالقرب من القوقاز . وربما كان ذلك هو سبب تسميته بالقوقازى ، وهو أيضا الأصل الحقيقى للفظة المقوقس وهو الاسم الذى نقرأه فى النصوص العربية والقبطية وفى

سنة ٦٣٢ م آثر هرقل صورة التوفيق التى تقضى بأن يمتنع الناس عن الخوض فى الحديث عن كنه طبيعة المسيح وعما اذا كان له صفة واحدة أو صفتان ، ولكن عليهم أن يشهدوا أن له ارادة واحدة لذلك ولى هرقل كيرس بطريركية الاسكندرية وأمره أن يجمع المذهبين المونوفيزيتى والخلقدونى فى المذهب الجديد وهو المذهب المونوثوليتى (د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٣٩٦ - ٣٩٧ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ - ٤٠٤) وبذلك أخطأ الامبراطور هرقل ووقع فيما وقع فيه الامبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) من اسناد الرئاسة الدينية والسياسية لشخص واحد هو قيرس أو المقوقس (د. سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٨) .

(٢٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٢ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص٣٠٣ . كان عمرو بن العاص قد فرض على الروم الذين يرغبون فى البقاء فى الاسكندرية مثلما فرض على القبط ، أى دينارين على كل منهم (ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٧٠) .

(٢٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١١٧ . ومما جاء فى خطاب هرقل : « انما أتاك من العرب اثنا ألفا وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندك من الروم بالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة ، والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون انت ومن معك من الروم فى حال القبط أذلاء ، ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة . تناهضهم القتال ولا يكون لك رأى غير ذلك . وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتابا الى جماعة الروم .

(٢٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧١ . كان رد المقوقس: « والله انهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا ، ان الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا وذلك أنهم قوم الموت أحب الى أحدهم من الحياة ، يقاتل الرجل منهم وهو يستقتل ويتمنى الا يرجع الى أهله ولا بلده ولا ولده ويرون أن لهم أجرا عظيما فيمن قتلوا منا ويقولون : انهم ان قتلوا دخلوا الجنة وليس لهم رغبة فى الدنيا ولا لذة الا قدر بلغة العيش من

الطعام واللباس ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها فكيف نستقيم نحن وهؤلاء ... ويحكم أما يرضى أحدكم أن يكون آمنا على نفسه وماله وولده بدينارين فى السنة » .

(٢٦) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٧٢ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ، ص ١١٨ .

(٢٧) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٧٣ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١١٨ . وبذلك يكون القبط قد ساعدوا عمرا أثناء تقدمه من الفسطاط الى الاسكندرية ، ولم يقفوا ضده مع الروم كما ذكر ابن خلدون : العبر ، جـ ٢ ، ص ١١٥ « سار عمرو الى الاسكندرية فاجتمع له من بينها وبين الفسطاط من الروم والقبط فهزمهم واثخن فيهم » .

(٢٨) د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤١٥ — ٤١٧ .

(٢٩) الطبري : تاريخه ، أحداث سنة ٢٠ هـ .

(٣٠) الطبرى : تاريخه ، أحداث سنة ٢٠ هـ .

(٣١) المقصود كيرس .

(٣٢) Agapitus : Kitab Al-Unvan ; Patrologia Orientalis, V. VIII, P. 471.

(٣٣) Agapitus : Kitab Al-Unvan : Patrologia Orientalis, V VIII, PP. 472 — 473.

(٣٤) ملحق رقم (١) .

(٣٥) Patrologia : Op. Cit., P. 474.

(٣٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٧٣ .

(٣٧) د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٠ ، د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٤٩ ، مقدمة المحقق د. عبد الله أنيس الطباع لكتاب عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : فتوح افريقيا والاندلس ، ص ٨ ويذكر الأخير أن عدد قوات الجيش الاسلامى الزاحف على الاسكندرية كان عشرين ألفا .

(٣٨) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١١٨ .

(٣٩) د. سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٣ .

(٤٠) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٨١ .

(٤١) د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٠ .

(٤٢) د. العرينى : المرجع السابق نفس الصفحة .

(٤٣) د. العرينى : المرجع السابق ص ٤٢٨ .

(٤٤) د. سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٣ ، د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤١٧ . اختلف فى تاريخ وفاة هرقل فالبعض يذكر أنها سنة تسع عشرة هجرية والبعض الآخر يذكر انها كانت سنة عشرين هجرية (ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١١٩) .

Agapitus : Kitab Al-Unvan : Patrologia Orientalis, V. VIII, P. 478.

ويذكر الأخير أنها كانت سنة ٩٥٢ لذى القرنين ، ١٩ للعرب ، ٧ لعمر .

(٤٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١١٩ .

(٤٦) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٥ .

(٤٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١١٩ .

(٤٨) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٠ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٧ .

(٤٩) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١١٩ .

(٥٠) مات الامبراطور قسطنطين فى ٢٥ مايو ٦٤١ م فتولى العرش هرقلونس ابن هرقل من مارتينا التى ظلت تشاركه فى الحكم ، وتوجه سياسة البلاد وظل هرقلونوس يحكم حتى سبتمبر ٦٤١ حينما شاركه قنسطانز فى الحكم ،

وذلك بعد رحيل كيرس الى مصر مصحوبا بعدد كبير من القساوسة وتكليفه بعقد صلح مع العرب لوضع نهاية لكل المقاومات المستقبلة فى البلاد وليعيد تنظيم الادارة فى مصر .

(Alfred Butler : The Arab Conquest of Egypt,P. 305).

على أن كيرس حمل الامبراطور والامبراطورة والسناتور ورجال البلاط على الانصياع الى رأيه الذى يقضي بأنه لا سبيل الى المقاومة ولابد من الاذعان للعرب (د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٣) .

(٥١) د. سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٣ — ١٤ .

(٥٢) د. الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٥ .

(٥٣) د. ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥١ .

(٥٤) Butler : The Arab Conquest of Egypt, P. 320.

حنا النقيوسى (John of Nikiou)

د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٦ ، د. سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٤ .

(٥٥) د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٦ — ٤٢٧ عن Dichi Butler . على أن البطريرك كيرس لم يعش حتى يشهد الجلاء النهائى للروم لانه مات فى ٢١ مارس ٦٤٢ م (د. الباز العرينى : المرجع السابق ص ٤٣٠) .

(٥٦) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ١٠٠٣.

(٥٧) د. السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ٤٢٩ .

(٥٨) اليعقوبى : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١١٩ ، ١٢٩ .

(٥٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ١٧٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٧ ، ٣١٤ . ويذكر الأخير أن ذلك كان فى مستهل المحرم من السنة .

(٦٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٧٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٤ .

(٦١) مقدمة المحقق عبد الله انيس الطباع لكتاب عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : فتوح افريقيا والأندلس ، ص ٨ — ٩ .

(٦٢) Alfred Butler : Op. Cit., P. 522.

(٦٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٢١ .

(٦٤) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 115.

د. الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤٠ .

(٦٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢ . أما السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ، ص ١٢٢ فيذكر أن عدد المراكب كان مائة لا ألفا . كذلك يضيف ابن اياس أن عمرا عبر فى رسالته للخليفة عمر بن الخطاب عن مدى عظم المدينة « .... وجدت بها اثنى عشر ألف بقال يبيعون صنف البقولات فى جوانب المدينة بعد العصر ... » .

(٦٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٨٢ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٢٢ .

(٦٧) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 115.

د. الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤٠ .

(٦٨) Paul Lemerle : Le Monde de Byzance, Histoire et Institutions, P. 354.

(٦٩) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 115.

د. الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤٠ .

(٧٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٨٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٢٢ . ويقال : ان بيوت الأثرياء التى كانت حول الاسكندرية وقعت غنيمة فى يد المسلمين الذين حصلوا على غنيمة هائلة فاقتلعوا من معظم المنازل الأخشاب والحديد وأرسلوها فى مراكب نقل البضائع فى النيل الى حصن بابليون ليستخدموها فى عمليات اقامة الجسور .
(Butler : The Arab Conquest of Egypt. P. 296).

(٧١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٠ .

(٧٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٠ — ٢١١ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ، ص ١٦٣ . هنا تذكر الدكتورة سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية .. ص ٨٠ « ان حامية الاسكندرية أو رابطتها كانت تقيم فى المدينة ستة أشهر تبدأ من شهر ابريل ، فقد ذكر المقريزى أن احتراس البحر

بالاسكندرية يبدأ من خميس العهد أو خميس العدس وينتهى بشهر أكتوبر ، وفى أكتوبر تنهى الحامية أعمالها فتغادر الاسكندرية الى داخل البلاد ، حيث تقضى فصل الشتاء فى أعمال أخرى تقتضيها أحوال البلاد بينما تحل محلها حامية أخرى اقل عددا وعدة وتبقى فى الثغر حتى آخر شباط (فبراير) . » .

(٧٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٢ .

(٧٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١١ « كان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه ، واتخذوا فيه أخائذ فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه فى منزلها فيها ، ثم يأتى الأخير فيركز رمحه فى بعض بيوت الدار ، فكانت الدار تكون لقبيلتين وثلاث » وهنا تعقب الأستاذة الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها : البحرية فى مصر الاسلامية ... ، ص ٨٠ — ٨١ على ذلك بقولها (ان الظروف كانت غير مواتية فى ذلك الوقت لبناء رباط أو ثكنات لاقامة الحامية تعطى فقد خصص لها عمرو الدور والقصور التى تركها الروم عند جلائهم عن المدينة مفضلا هذا مما اقتضته شروط الصلح التى تنص على آن ينزل العرب ضيوفا على أهل المدينة يقدمون لهم الطعام والعلوفة لخيلهم .. وكانت الدور تعطى فى أول الأمر للعريف ورجاله عندما يأتون للمرابطة ، حتى اذا ما انتهت دورتهم الصيفية حلت محلهم حامية الشتاء ، وقد أدى نظام الشيوع هذا الى خراب الدور لتركها دون ترميم أو صيانة ، ولكن عمرا لاحظ هذا العيب وعمل على تلافيه فرأى أن تؤول المنازل لساكنيها ولبنيهم لذلك قرر عند ذهابه من الفسطاط الى الاسكندرية « أن الرجل يدخل الدار فيركز رمحه فى منزل ثم يأتى الآخر فيركز رمحه فى بعض بيوت الدار ، فكانت الدار تكون لقبيلتين او ثلاث حتى اذا نقلوا سكنها الروم وعليهم مرمتها . وبهذا كان يسمح للروم بسكنى الدور فى الوقت الذى تخلو فيه من حاميتها الصيفية والشتوية على أن يقوموا بترميمها وصيانتها بدلا من الكراء لانها كانت وفقا لشروط الصلح ملكا عاما للعرب) .

(٧٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٢٢ .

(٧٦) السيوطى : المصدر السابق نفس الصفحة .

(٧٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٨٢ — ٨٣ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٩ .

(٧٨) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ١٧٦ – ١٧٧ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٥٩ ، وهنا يذكر ابن عبد الحكم أنه بعد مجيء الروم الى الاسكندرية بعد استشارة صاحب اخنا لهم وبعد أن تمت هزيمتهم أسر صاحب اخنا (النبطى) وجيء به الى عمرو فقال له الناس أقتله فقال : لا بل انطلق فجئنا بجيش آخر) .

(٧٩) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 115.

(٨٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨١ .

(٨١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٦٥ . والمقصود بمعويل هنا منويل .

(٨٢) د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٣٢ .

(٨٣) Agapitus : Kitab Al-Unvan : Ptarologia Orientalis, V. VIII, P. 479.

اليعقوبى : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٦٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ١ ، ص ٣٥ .

(٨٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٧٥ – ١٧٧ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١١ – ٢١٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٥٩ – ١٦٢ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ص ٨١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢ .

(٨٥) د. سيدة كاشف : العرب والبحار ، الكتاب السنوى الثانى للعام الجامعى ١٣٩٦/٩٥ هـ – الرئاسة العامة لتعليم البنات – كلية البنات بالرياض ، ص ٨٠ . هنا أخطأ كل من ابن الأثير والسيوطى فى التحديد الزمنى لتلك الحملة وفى ذكر اسم الامبراطور الذى أرسلها . فذكر أن السنة كانت (سنة ٣٥ هـ) وأن الامبراطور كان (قسطنطين بن هرقل) . ومن المرجح أن الخطأ وقع فيه ابن الأثير أولا ثم نقله عنه السيوطى فى كتابه . (ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٢) . اما ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٢١ فيذكر أن امبراطور الروم فى ذلك الوقت كان قسطنطين بن هرقل وأنه هو الذى خرج بنفسه الى الاسكندرية فى ألف مركب مشحونة بالرجال المقاتلين .

(٨٦) هو القائد البيزنطى (الروسى) الذى أستبسل فى الدفاع عن الاسكندرية فى حصارها الأول ودافع عنها دفاعا مجيدا (د. ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥١) .

(٨٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٧٥ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٠ .

(٨٨) د. سعا ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٧٧ ، د. ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥١ .

(٨٩) د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٣٣ .

(٩٠) د. سيدة كاشف : العرب والبحار ، المرجع السابق ، ص ٨٠ - ٨١ . كان عمر بن الخطاب قد توفى سنة ٢٣ هـ وخلفه عثمان بن عفان رضى الله عنهما فعزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح مكانه . وكان عمر بن الخطاب قد ولى عبد الله بن سعد من الصعيد الفيوم ، فلما استخلف عثمان بن عفان طمع عمرو بن العاص أن يعزل له عثمان عبد الله بن سعد عن الصعيد ، فرد عليه عثمان بقوله لقد ولاه عمر بن الخطاب الصعيد وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة « وهو أخى فى الرضاعة فكيف أعزله عما ولاه غيرى ، فغضب عمرو فعزله عثمان وولى عبد الله على مصر كلها » وكان ذلك سنة خمس وعشرين للهجرة وقبل عودة الروم لغزو الاسكندرية (ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٧٣ - ١٧٤) .

(٩١) Bernard Lewis : The Arabs in History, Hutchinson, P. 54. G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 115.

(٩٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ؛ ص ١٧٥ ، الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ١١ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٠ .

(٩٣) د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٢ .

(٩٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٠ .

(٩٥) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ١٧٥ ، السيوطى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٦٠ .

(٩٦) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١١ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٢ ، د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٢ ، د. سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٦ .
Aly Mohamed Fahmy : Op. Cit., P. 78.

(٩٧) G. Ostrogorsky : Op. Ct.i, P. 115.

د. السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤١ .

(٩٨) G. Ostrogorsky : Ibid., P. 115.

د. السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، نفس الصفحة ، د. العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٣٣ .

(٩٩) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦١ . وهنا تضيف الدكتورة سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٧٩ (لعلى مكانه الآن حديقة الشلالات مكان ضريح سيدى عمر بن يحيى) .

(١٠٠) د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٣٣ .

(١٠١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١١ .

(١٠٢) اليعقوبى : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ .

(١٠٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر .. ، جـ ١ ، ص ١٧٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٤ .

(١٠٤) الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه ، ص ١١ .

(١٠٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٦٥ .

(١٠٦) ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ١ ، ص ٣٥ .

(١٠٧) Alfred Butler : Op. Cit., P. 323.

(١٠٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦١ .

(١٠٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٧٥ ، ابن الأثير : الكامل : جـ ٣ ، ص ٨١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٠ .

(١١٠) G. Osdtrogorsky : Op. Cit., P. 115.

د. السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤١ .

فقد قاد البطريرك المونوفيزيتى بنيامين الشعب السكندرى فى مظاهرة ضد الروم وأعلن الخضوع لحكم المسلمين .

(١١١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٨ .

(١١٢) Agapitus : Kitab Al-Unvan : Patrologia Orientalis, V. VIII, P. 479.

(١١٣) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٩١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٣ ، والمقصود بأمير المؤمنين هنا عمر بن الخطاب .

(١١٤) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 115.

الفصـــل الثـــانى :

موقعة ذات الصوارى (١)

اختلفت المصادر والمراجع فى تحديد تاريخ تلك المعركة ، فالبعض يذكر أنها كانت سنة « احدى وثلاثين للهجرة »(٢) ، والبعض الآخر يذكر أنها كانت سنة « أربع وثلاثين »(٣) فى حين يذكر فريق ثالث أنها كانت سنة « خمس وثلاثين »(٤) قبل مقتل عثمان بن عفان(٥) ٠

يرجع السبب البعيد لتلك الموقعة الى أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح لمـا أصاب الروم «بافريقية » خرجوا لمحاربته(٦) أو أنه لمـا أصاب من الفرنج والبربر ببلاد افريقية والأندلس « حميت الروم واجتمعت على قسطنطين بن هرقل »(٧) ـ والمقصـود هنا قنسطانز الثانى (٦٤١ ـ ٦٦٨ م(٨) / ٢١ ـ ٤٨ هـ) ـ وساروا لمحـاربة المسلمين ٠ وثمـة رأى آخر يذكر « أن الروم انتهزوا فرصة انشغال عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى محاربة (سبيطلة) من أرض تونس سنة ٢٧ هـ وجاءوا بأسطول كبير لمحاربته »(٩) ٠

أما السبب المباشر لتلك الموقعـة فيقال : أنه لمـا اسـتولى العرب على الاسكندرية « جاءت الروم الى قسطنطين بن هرقـل وقـالوا له : أتترك الاسـكندرية فى أيدى العرب وهى مدينتنـا

الكبرى ؟ »(١٠) ثم طلبوا منه أن يخرج بهم لاسترداد الاسكندرية « فأخرج على أنا نموت فتبايعوا على ذلك »(١١) وخرجوا بأسطول بحرى كبير اختلفت المصادر فى تعداده • فبينما ذكر الطبرى أنه كان مكونا من « خمسمائة مركب »(١٢) ، نجد الطبرى قد ذكر فى موضع آخر ، وأيده ابن الأثير فى هذا الرأى ، وهو أنه كان يتراوح بين « خمسمائة أو ستمائة »(١٣) بينما ذكرت بعض المصادر الأخرى أنه كان حوالى « ألف مركب »(١٤) بل قيل : ان ملك الروم خرج « فى جمع لم يجتمع للروم مثله قط »(١٥) • بينما كان عدد مراكب المسلمين يقدر « بمائتى مركب ونيف »(١٦) •

وثمة رأى يذكر أن سبب تلك الموقعة هو أنه فى سنة ٣٤ هـ / ٦٥٥ م أبحر الامبراطور قنسطانز على رأس عمارة بحرية لعرقلة استعدادات البحرية التى كان المسلمون يعدونها فى موانى الشام لشن اغارة على القسطنطينية(١٧) •

وكان الذى يتولى حكم مصر فى ذلك الوقت هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وهو يعتبر أمير البحر الثانى فى الاسلام ، وذلك بعد معاوية بن أبى سفيان والى الشام قبل أن تصير له الخلافة(١٨) •

ولكن قبل أن نسترسل فى سرد أحداث تلك الموقعة المهمة ، نتساءل : أين دارت رحاها ؟ هل نشبت عند فونيكس Phoenix قرب شواطىء ليكيا ، بآسيا الصغرى ؟ أو بالقرب من ثغر فونيكه غرب الاسكندرية ؟

الواقع أن بعض المراجع الحديثة تؤكد أنها حدثت بالقرب من الاسكندرية(١٩) والبعض الآخر يذكر أنها حدثت بالقرب من شاطئ ليكيا (Lycian Coast) بآسيا الصغرى(٢٠) • فى حين

تركتها بعض مراجع أخرى دون تحديد مكتفية بالاشارة الى أنها اما حدثت بالقرب من آسيا الصغرى أو الاسكندرية(٢١) ٠

ونحن نميل الى اعتبار أن تلك الموقعة حدثت بالقرب من شاطئ ليكيا بآسيا الصغرى ، ذلك لأن الطبرى مثلا يذكر فى خلال سرده التاريخى لها ، أن عبد الله بن سعد « ركب فى مركب وحده ما معه الا القبط حتى بلغوا ذات الصوارى ، فلقوا جموع الروم »(٢٢) كذلك كتب ابن كثير أن عبد الله بن سعد « أقام بذات الصوارى أياما رجع مؤيدا »(٢٣) وذلك بعد احرازه للنصر ٠ هذا الى جانب ما ذكرته بعض المراجع الحديثة من أن تلك الموقعة كانت « جزءا من سياسة العرب الدفاعية لتأمين سلامة شواطئهم على البحر الأبيض المتوسط»(٢٤) ٠

واذا كان الهجوم هو خير وسائل الدفاع ، فقد خرج عبد الله بن سعد بن أبى سرح بأسطول مصر لقتال الروم قرب شواطيء آسيا الصغرى ليحمى مصر من خطر الروم ٠

وقد هال عبد الله بن سعد كثرة عدد سفن الروم بالنسبة لعدد سفن المسلمين ، لذا بدأ يستشير أصحابه فيما يفعل ، وطرح القضية أمامهم لاتخاذ الرأى فيها قائلا : « بلغنى أن ابن هرقل قد أقبل اليكم فى ألف مركب فأشيروا على » ٠٠ وبعد تفكير عميق قام أحد رجال الاسكندرية وطلب من عبد الله ضرورة مواجهة العدو والبدء بمهاجمته فورا ، وعقب على رأيه بقوله : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين »(٢٥) ٠

وبالفعل شحن عبد الله بن سعد سفن المسلمين بالرجال ولكنه لم يستطع أن يستفيد من كل القوة التى تحت يده ، لأن نصف

القوات كانت قد خرجت مع بسر بن أرطأة فى البر ، لذا ركب فى كل مركب « نصف شحنته »(٢٦) فقط ، كذلك شارك أهل الشام بقيادة معاوية بن أبى سفيان فى تلك الموقعة(٢٧) .

وقد اعطانا الطبرى وصفا تفصيليا لتلك المعركة حين ذكر انهم ربطوا سفنهم بسفن العدو ، حتى كانوا يضربون بعضهم بعضا على سفنهم وسفن أعدائهم ، فقاتلوا قتالا شديدا » حتى رجعت الدماء الى الساحل تضربها الأمواج وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما »(٢٨) . فقد قتل من الجانبين أعداد كبيرة « قتل من المسلمين بشر كثير وقتل من الروم ما لا يحصى »(٢٩) والراجح أن عدد قتلى الروم فاق عدد قتلى المسلمين حيث يذكر الطبرى ان الله نصر المؤمنين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة « ولم ينج من الروم الا الشريد »(٣٠) .

وثمة رأى آخر يذكر أنه بعد تحريض الروم لامبراطورهم وحثه على ضرورة استرداد الاسكندرية من المسلمين ، سار الامبراطور بأسطول كبير لانجاز تلك المهمة لكن الله سبحانه وتعالى بعث عليهم رياحا عاصفة عالية أغرقتهم ولم ينج منهم الا الامبراطور نفسه وعدد قليل من قواته ألقت بهم الريح بصقلية(٣١) . فسأله أهلها عن أمره فأخبرهم بما حدث له ولقواته ، فما كان منهم الا أن قالوا له « لقد أفنيت من بقى من عسكر الروم وجئت الينا فلو دخلت العرب الى بلادنا لم يجدوا من يردهم »(٣٢) وبتعبير آخر « شتت النصرانية وأفنيت رجالها ، لو دخلت العرب علينا لم نجد من يردهم »(٣٣) فأدخلوه الحمام وقتلوه وتركوا من كان معه فى المركب(٣٤) .

هنا نتوقف قليلا عند تلك العبارة التى أتت على لسان أهل صقلية ، ثم موقفهم من امبراطورهم ، ثم ننتقل الى تحليل الأستاذة

الدكتورة سعاد ماهر لها . ففى ثنايا قول أهل صقلية « لو دخلت العرب علينا لم نجد من يردهم » نستطيع أن نستشف مدى المكانة العظيمة التى بدأ العرب يحتلونها فى المجـال البحرى وما بلغوه فى ذلك الوقت المبكر من مركز مرموق فى الحروب البحرية « مما يدحض الرأى المتواتر عند جمهور المؤرخين من أن العرب كانـوا حديثى العهد بممارسة البحر وركوبه ، فقد كانت أساطيل العالم فى ذلك الوقت ترهبهم وتخشى بأسهم ، وأن البـلاد التى كان ركوب البحر حرفة وصناعة لها ، تملكها الذعر بعد انتصـار العرب على الأسـطول البيزنطى ، مما حدا بها الى قتل ملكها خشية انتقـام العرب منهم اذا علموا بايوائهم له »(٣٥) .

لكن هل قتل أهل صقلية امبراطور الروم حقا ؟ الواقع أننا نقف عند الاجابة عن هـذا السؤال أمام رأيين متناقضين . الأول وهو الذى يذكر أن أهل صقلية قتلوا الامبراطور(٣٦) . والثانى أنه هرب بأعجوبة(٣٧) بعد أن كاد يقع أسيرا فى يد المسلمين(٣٨)

ونحن نرجح الرأى الثانى الذى يؤكد هرب الامبراطور ، مستندين فى ذلك الى ما كتبـه استروجورسكى من أن الامبراطور قنسطانز الثانى Constans II « الذى كان فى شدة الخطر استطاع أن يحمى نفسه بواسطة تضحيـة شخصـية بطولية لأحد الجنود البيزنطيين الصغار »(٣٩) واذا كانت فترة حكم قنسطانز الثانى امتدت من (٦٤١ ــ ٦٦٨ م / ٢١ ــ ٨٤ هـ) فان استروجورسكى يذكر فى موضـع آخر أنه « قتل فى حمامه فى ١٥ سبتمبر ٦٦٨ م بواسطة أحد الحجاب »(٤٠) .

والحقيقة أن تلك الموقعة كانت حدا فاصـلا فى سياسة الروم تجاه المسلمين . فقد أفاق الامبراطور قنسطانز بعدها الى نفسـه

وادرك أن اعداد أية حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر أو الشام يعتبر « مجهود فاشل ضائع ومحاوّلات فات أوانها »(٤١) .

لقد كانت موقعة ذات الصوارى نصرا بحريا كبيرا للمسلمين ، وقد « وصفها المؤرخ اليوناني ثيوفانس بأنها كانت يرموكا ثانيا على الروم »(٤٢) بل أن بعض المؤرخين يعتبرون موقعة ذات الصوارى أعظم موقعة حربية شهدها البحر المتوسط منذ موقعة اكتيوم البحرية سنة ٣١ قبل الميلاد(٤٣) . فلقد كانت أول انتصار للعرب فى العصر الاسلامى فى الحروب البحرية ، بل أنها جعلت العرب يدركون أنهم قد أصبحوا قوة بحرية لها خطرها وأن الموقف الجديد أصبح يحتم عليها الفصل فى سيادة ذلك البحر وانتزاعه نهائيا من قبضة الروم(٤٤) .

واذا كانت مصر قد انتصرت فى تلك الموقعة فانها استفادت من وراء ذلك الانتصار فائدة كبيرة ، فقد استولت على كثير من سفن الروم ، وكانت تلك السفن نواة للأسطول المصرى الكبير الذى اعترف بفضله فى النضال الذى قام فيما بعد بين الأمويين والروم(٤٥) .

واذا كان عبد الله بن سعد قد استطاع أن يفخر فى التاريخ بأن أسطول مصر فى عهده صار قوة لها حسابها فى مياه البحر المتوسط ، بعد أن أنزل الهزيمة بأسطول الروم فى موقعة ذات الصوارى ، فان خلفاء عبد الله بن سعد الذين تولوا ولاية مصر بعده أظهروا عناية كبرى بأمر الأسطول وخاصة أن غزوات الروم البحرية لم تنقطع عن شواطىء مصر ومواقعها على البحر المتوسط(٤٦) . ولو أن الطابع الغالب على تلك الهجمات كان طابع القرصنة فقد « تعرضت بعض المدن الساحلية دائما لغارات من البحارة والقرصان البيزنطيين(٤٧) .

هوامش الفصل الثانى

(١) سميت تلك الموقعة بموقعة ذات الصوارى ، « لكثرة صوارى المراكب واجتماعها » (الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ١٣) .

(٢) الطبرى : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٢٨٨ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٣ ، ص ١١٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٧١ ، د. على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٤٤ .

(٣) الطبرى : المصدر السابق ، ص ٢٨٨ ، الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه ، ص ١٣ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١١٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٧ ، ص ١٧١ ، د. سيده كاشف : العرب والبحار ، المرجع السابق ، ص ٨٢ ، د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية ... ، ص ٥٣ ، د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ... ص ٨٠ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٩٩ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٢ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٩٩ . وقد قتل عثمان « فى ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذى الحجة » سنة خمس وثلاثين (المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ٢ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م) ، ص ٣٥٥ .

(٦) الطبرى : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٢٩٠ .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ٧٢ .

(٨) G. Ostrogorsky : Op. Cit., PP. 114, 580.

د. الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٩٨٥ .

هنا يذكر استروجورسكى ص ١١٤ أنه بناء من قرار اتخذه السناتو فى بيزنطة سنة ٦٤١ تقرر عزل مارتينا وهرقلونس وذلك بعد قطع لسان مارتينا وقطع أنف هرقلونس ثم نفيهما الى جزيرة رودس . واعتلى العرش ابن قسطنطين الثالث الذى لم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره والذى اتخذ اسم هرقل عند تعميده ، وهو اسم أبيه ، وعند تتويجه اتخذ اسم قنسطنطين وأطلق الناس عليه اسم قنسطانز (الثانى) وهو مصغر قنسطنطين . وهو الذى أصبح يعرف فيما بعد بالملتحى Pogonatus لاطلاق لحيته كلما تقدم فى السن . وربما كان اتخاذه اسم قنسطنطين عند تتويجه هو الذى جعل غالبية المصادر العربية تخطىء وتسميه (قنسطنطين بن هرقل) وعلى سبيل المثال لا الحصر . الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

(٩) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ... ، ص ٨١ .

(١٠) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٢ . وقد خلط ابن اياس هنا أيضا بين اسم قنسطنطين بن هرقل وقنسطانز .

(١١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(١٢) الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ .

(١٣) الطبرى : المصدر السابق ، ص ٢٩١ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٨٨ .

(١٤) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ١٣ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٢ ، ص ١٩٩ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣١٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٦٢٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٢ .

(١٥) الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ .

(١٦) الكندى : المصدر السابق ، ص ١٣ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

(١٧) د. ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية ... ، ص ٥٣ .

(١٨) د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٧٢ . د. سيده كاشف : العرب والبحار ، ص ٨٢ .

(١٩) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ... ، ص ٨٤ .
د. على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٤٤ .

(٢٠) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 116.

د. الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤٢ ، د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية ... ، ص ٥٣ .

(٢١) د. سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٨٥ ، د. سيدة كاشف : العرب والبحار ، ص ٥٤ .

(٢٢) الطبرى : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٢٩١ .

(٢٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٧٢ .

(٢٤) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ... ، ص ٨٤ .

(٢٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٤ .

(٢٦) المقريزى : نفس المصدر ، ص ٣١٥ .

(٢٧) ابن الأثير : الكامل : جـ ٣ ، ص ١١٨ ، د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ... ص ٨٤ .

(٢٨) الطبرى : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٢٩٠ — ٢٩١ . ذكر أحد شهود العيان لتلك المعركة أنه راى الساحل حيث تضرب الريح الموج « وأن عليه مثل الظرب العظيم من جثث الرجال وان الدم الغالب على الماء » والمقصود بالظرب هنا ما نتأ من الحجارة وحدد طرفه .

(٢٩) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١١٨ .

(٣٠) الطبرى : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٢٩٢ .

(٣١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٩٩ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢ . وقد أخطأت كل تلك المصادر فى تسمية امبراطور الروم باسم قنسطنطين بن هرقل .

(٣٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢ .

(٣٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٥ .

(٣٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٩٩ ، المقريزى : الخطط ،

جـ ١ ، ص ٣١٥ ، السيوطى : حسن المحـاضرة جـ ١ ، ص ١٦٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢ .

(٣٥) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ... ، ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٣٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ ، المقريزى : الخطط : جـ ١ ، ص ٣١٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ص ١٦٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢ . وتضيف تلك المصـادر أن امبراطور الروم دافع عن نفسه أمام أهل صقلية بقوله « اننا خرجنـا مقتدرين فأصابنا هذا ، لكنهم صنعوا له الحمام ودخلوا عليه فقال ويلكم يذهب رجالكم وتقتلون ملككم ، قالوا كأنه غرق معهم ثم قتلوه » .

(٣٧) G. Ostrogorsky : Op. Cti., P. 116.

ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٧٢ . حيث يقول « انه بعد انتصـار المسلمين هرب قسطنطين وجيشـه وقد قلوا جدا وبه جراحات شديدة مكينة مكث حينا يداوى منها بعد ذلك » .

(٣٨) د. السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤٢ .

(٣٩) G. Ostrogorsky : Op. Cti., P. 116.

ويفصل نفس المرجع كيفية هرب الامبراطور قنسطانز فى احدى الحواشى التى نقلها عن ثيوفانس بقوله أن الامبراطور استبدل ملابسـه مع أحد الجنود وبذلك تمكن من الهرب ، من حين قتل العرب ذلك الجندى بدلا منه ، والراجح انه كان من الجنود الشجعان فقد رويت عنه الكثير من روايات البطولة .

(٤٠) G. Ostrogorsky : Ibid., P. 123.

(٤١) د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية ... ، ص ٥٤ .

(٤٢) د. سيدة كاشف : العرب والبحار ... ، ص ٨٣ .

(٤٣) د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصـور الوسطى ، ص ٧٢ .

(٤٤) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

(٤٥) د. على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٤٤ .

(٤٦) د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصـور الوسطى ، ص ٧٢ .

(٤٧) د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٣٤ .

البـــاب الثـــانى

الروم والشـــواطىء المصريـــة

حتى الحمــلة الصليبية الأولى

الفصل الأول : هجمات الروم من ٥٣ هـ حتى حملة ٢٣٨ هـ على دميــاط .

الفصل الثانى : حملة ٢٣٨ هـ وأهميتها وآثارها .

الفصل الثالث : هجمــات الروم من ٢٣٨ هـ حتى الحمــلة الصليبية الأولى .

هجمات الروم من ٥٣ هـ حتى حملة ٢٣٨ هـ على دميــاط

تعرضت شواطىء مصر البحرية ، بصفــة مستمرة لهجمــات الروم • وقد نجحت تلك الهجمات حينا وأخفقت أحيانا وسنحاول أن نستعرضها بشيء من الايجاز فيما يلى :

نزل الروم فى سنة ٥٣ هـ / ٦٧٣ م بالبرلس(١) وكان والى مصر آنذاك مسلمة بن مخلد(٢) ، فخرج المسلمون اليهم فى البر والبحر واستشهد منهم « جمع كثير »(٣) وكنتيجــة لهذا الهجوم بنيت أول دار لصناعة الأسلحة بمصر فى السنة التالية فى جزيرة الروضة حيث وطد العزم على بناء السفن الحربية بها(٤) •

وفى سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩ م نزل الروم على دمياط(٥) • وكان والى مصر حينئــذ قرة بن شريك(٦) العبسى (٩٠ ــ ٩٦ هـ(٧) ٧٠٩ ــ ٧١٤ م) وذلك فى عهد الخليفة الوليد الأول(٨) ، فأسروا خالد بن كيسان أمير البحر وذهبوا به الى امبراطور الروم فأهداه الى الخليفة الوليد بن عبد الملك(٩) من أجل الهدنة التى كانت بينه وبين الروم(١٠) •

والحقيقة انه فى نفس الوقت تقريبا ٧٠٩ م كان العرب قد حاصروا الطوانة Tyana وهى احدى قلاع كبادوكيا وهزم جيش الروم الذى أرسل لرد ذلك الهجوم هزيمة فادحة ، واضطرت الطوانة فى النهاية للتسليم بعد أن فقدت الأمل فى وصول أية نجدة. كذلك قام العرب فى الفترة ما بين ٩٢ - ٩٣ هـ / ٧١٠ - ٧١١ م بالعديد من الهجمات على قيليقيا دون أن يقابلوا بأية معارضة ، واستولوا على العديد من القلاع(١١) .

كذلك وصلت أخبار فى ٩٦ هـ / ٧١٥ م تفيد باستعدادات بحرية ضخمة للمسلمين على الشواطىء الشامية ، « وقيام أسطول اسلامى سكندرى بالتوجه الى موقع يقال له فونكس بآسيا الصغرى لقطع بعض أخشاب السرو لبناء السفن ولزيادة القدرة الهجومية للأسطول الاسلامى » . عندئذ فكر الامبراطور أنستاسيوس الثانى Anastasius II ٧١٣ - ٧١٥ م فى القيام بحروب دفاعية وذلك بمهاجمة الأسطول السكندرى أثناء انشغاله بقطع الأخشاب ، وقد انتهت الحملة التى أرسلها آنستاسيوس بتمرد أطاح بالامبراطور نفسه(١٢) .

ولقد شاركت البحرية المصرية فى الحملة التى قام بها مسلمة بن عبد الملك لفتح القسطنطينية وذلك فى سنة ٩٩ هـ / ٧١٨ م ، « فقد وصل من مصر أسطول اسلامى يحمل المؤن والأسلحة » . وقد دخل ذلك الأسطول الى البسفور واتخذ موقعه فى (كالوس أجروس Kalos Agros)(١٣) .

ولم تمض سوى سنتين تقريبا حتى تحرك الروم من جديد نحو شاطىء مصر . ففى رمضان ١٠١ هـ / ٧٢٠ م هاجموا تنيس(١٤) ، وذلك فى عهد الخليفة يزيد الثانى .

وتنيس هى الثغر المصرى الشقيق لدمياط(١٥) ، وقد ظلت بيد المسلمين الى أن كانت ولاية بشر بن صفوان الكلبى على مصر من قبل يزيد بن عبد الملك(١٦) فنزلها الروم « فقتلوا أميرها مزاحم بن مسلمة المرادى فى جمع من الموالى »(١٧) ٠

أما فى ١٢١ هـ / ٧٣٩ م فقد قام الروم بهجوم ناجح على دمياط للمرة الثانية(١٨) فقد نزلوها فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك بأسطول مكون من « ثلاثمائة وستين مركبا »(١٩) فقتلوا وسبوا(٢٠) ٠ ومن المرجح أن ذلك الهجوم أحرز نجاحا ، جزئيا نتيجة للظروف الداخلية التى كانت عليها مصر آنذاك عندما قام الأقباط بثورة كبرى، بالاضافة الى هجوم أقباط النوبة على مصر من الجنوب(٢١) ٠

وهنا يذكر (كانار) أن تحطيم الروم لأحد الأساطيل المصرية بالقرب من جزيرة كريت حوالى سنة ٧٤٧ م / ١٢٩ ـ ١٣٠ هـ « أثر فى البحرية المصرية تأثيرا شديدا فأنقصها وزاد من ضعفها ووهنها فى المائة سنة التالية »(٢٢) ٠ وثمة رأى آخر أكثر وضوحا يذكر أن المعركة التى اشتبك فيها أسطول كريت الرومى بالأسطول العربى الكبير المكون من ألف سفينة من مصر والشام بالقرب من جزيرة قبرص والتى انتصر فيها أسطول الروم لأنه كان مسلحا بالنار الاغريقية وانهزم فيها الأسطول العربى ولاذ بالفرار ولم ينج منه سوى ثلاث قطع ، أدت تلك الهزيمة الى اختفاء قوة مصر البحرية فى البحر المتوسط أكثر من قرن من الزمان(٢٣) ٠

كذلك أثرت الفتنة بين الأخوين محمد الأمين وعبد الله المأمون، وأدت الى امتداد الفتن الى أرض مصر « فطمع الروم فى البلاد ونازلوا دمياط فى أعوام بضعة ومائتين »(٢٤) ٠ فقد استغل

الامبراطور ليو الخامس (٨١٣ ـ ١٩٨ هـ) تلك الظروف الصعبة التى كان عليها المسلمون وأرسل أسطولا حوالى ٨١٧ م / ٢٠٢ هـ لمهاجمة دمياط(٢٥) • وهذا ما دفع الأستاذة الدكتورة سعاد ماهر الى وصف الهجمات البحرية التى شنها الروم على مصر « بطابع الانتهازية »(٢٦) •

ولقد شهدت الفترة التالية عدة اتفاقات بين الجانبين : الاسلامى والرومى • فمثلا فى شمال بلاد الشام عرض الثائر العربى نصر على امبراطور الروم أن يعقد معه تحالفا ، وبالرغم من أن ذلك التحالف لم يتم فان الخليفة المأمون عقد تحالفا مع توماس السلافى ـ وهو أحد قادة جيش الروم وكان قد هرب الى العرب فى عهد هارون الرشيد ـ وبمساعدة الخليفة توج امبراطورا بواسطة بطريرك أنطاكية ، وفى ٨٢٠ م / ٢٠٥ هـ وهو تاريخ مقتل ليو الخامس واعتلاء ميخائيل الثانى العمورى العرش ، كان توماس قد استطاع بواسطة المساعدات الاسلامية أن يخترق أرمينيا وأن يضم غالبية المقاطعات العسكرية فى آسيا الصغرى اليه ، وبدأ يستعد للمسير الى القسطنطينية • ولم يستطع الامبراطور ميخائيل أن يقضى عليه قبل سنة ٨٢٢ م / ٢٠٨ هـ • ونتيجة لذلك فقد استطاع المسلمون الوصول الى كمخ وقاموا بعدة هجمات بحرية على شواطىء وجزر آسيا الصغرى • وأكثر من ذلك فقد استطاع اللاجئون الذين قدموا من قرطبة واستقروا فى الاسكندرية أن يغزوا جزيرة كريت ويستولوا عليها فى ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ • ورغم محاولات الروم استعادتها عن طريق ارسال حملتين فى سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م فانهم اخفقوا « ومنيت الحملة الثانية بفشل ذريع فقد ذبحت قواتها وأفنى أسطولها وهرب قائدها »(٢٧) •

هوامش الفصل الأول

(١) لا يعرف بالتحديد سبب توجيه تلك الحملة البحرية الرومية الى البرلس بالذات ولكن الراجح ان تلك الحملة وغيرها على الشـواطىء الاسلامية كانت رد فعل لهجمات معاوية بن أبى سفيان المتتالية على آسيا الصغرى من ناحية البر خمس عشرة سنة متتالية من ٦٦٣ م حيث اسـتطاع أن يحول فيها سكان ضواح بأكملها الى العبودية . كذلك استطاع فى مجال البحر أن يستولى على قبرص ورودس وغيرها من الجزر البحريـة التابعة لدولة الروم . هـذا وقد تمكن أحد قواده من الاسـتيلاء على جزيرة كيزيكوس Cyzicus . كمـا استطاع جزء من أسطول معاوية فى ٦٧٢ م – أى قبل مهاجمـة البرلس بسنة تقريبا – من الاستيلاء على Smyrna واستولى جزء ثان من الأسطول على بعض شواطىء قيلقية وليكيا . حدث كل فى عهد الامبراطور قنسطنطين الرابع Constantine IV (٦٦٨ – ٦٨٥ م) والذى شهد عهده دورا فاصـلا فى الصراع الاسلامى الرومى. (G. Ostrogorsky, Op. Cit., PP. 112 — 124).

(٢) مسلمة بن مخلد الأنصـارى هو الذى ولى مصر من قبل معاويـة « وجمع له الصلاة والخراج والمغرب » . وتوفى وهو وال عليهـا لخمس بقين من رجب سنة اثنتين وستين ، وكانت ولايته عليهـا خمس عشرة سنة وأربعـة أشهر (الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٣٨ ، ٤٠) .

ومسلمة بن مخلد كان يدعى أبو سـعد الأنصـارى وهو الذى حل محل عقبة الجهنى فى مصر وكان الأخير قد أرسـل بواسطة معاوية بن أبى سفيان ليستولى على جزيرة رودس فى سنة ٤٧ هـ (٦٦٧ – ٦٦٨ م) . وقد ظل مسلمة حاكما لمصر وشمال افريقيا حتى وفاته فى ٦٢ هـ / ٦٨١ م
(Fahmy A.M. : Op. Cit., P. 139).

(٣) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٣٨ ، « وممن استشهد فى ذلك اليوم وردان مولى عمرو بن العاص وعايز بن ثعلبة البلوى وأبو رقية عمرو بن قيس اللخمى فى جمع من الناس كثير » .

(٤) Fahmy A.M. : Op. Cit., P. 139.

(٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ ، ودمياط فى ذلك الوقت كانت كورة من كور أرض مصر بينهما وبين تنيس اثنا عشر فرسخا .. ويقال سميت بدمياط من ولد اشمن بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. دمياط كلمة سريانية أصلها دمط : أى القدرة ، اشارة الى مجمع العذب والملح (المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٩٩ - ٤٠٠) . أما ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٨ ، ٤٧٢ - ٤٧٣ (حرف الدال) دار صادر بيروت ، والقزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٩٣ ، فيقول عنهما أنهما مخصوصة بالهواء الطيب وهى من ثغور الاسلام ، عندها يصب ماء النيل فى البحر وعرض النيل هناك نحو مائة ذراع وعليه من جانبيه برجان ، بينهما سلسلة حديد عليها حرس لا يدخل مركب فى البحر ولا يخرج الا باذن ، وعلى سورها مدارس ورباطات كثيرة . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لعمر بن الخطاب : يا عمر سيفتح على يديك ثغران : الاسكندرية ودمياط ، أما الاسكندرية فخرابها من البربر وأما دمياط فهم صفوة من صفوة الشهداء من رابطها ليلة كان معى فى حظيرة القدس .

(٦) الطبرى : تاريخه ، أحداث سنة ٩٠ هـ .

(٧) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٦٤ : ٦٦ « قدمها يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة تسعين وتوفى ليلة الخميس لست بقين من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين ، فكانت ولايته على مصر ست سنين الا أياما » .

ويسميه الشيخ عبد الله الشرقاوى فى كتابه تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين جـ ١ ، ص ١٠٠ (سرى بن شريك) ويصفه بأنه كان ظلوما عسوفا .

(٨) Fahmy A.M. : Op. Cit., P. 140.

(٩) الطبرى : تاريخه ، أحداث سنة ٩٠ هـ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٥٤٨ أحداث سنة ٩٠ هـ .

(١٠) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ .

(١١) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 143.

كان ذلك فى فترة حكم الامبراطور جستنيان الثانى التى امتدت من ٦٨٥ — ٦٩٥ ، ٧٠٥ — ٧١١ م .

(١٢) د. وسام عبد العزيز فرج : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(١٣) د. وسام عبد العزيز : نفس المرجع ، ص ١٥٩ . عن (Theophanes : Chronographia, Finlay : History of Greece)

(١٤) د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٧٣ ، د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٣٠٣ .

ومن المرجح أن ذلك أيضا كان رد فعل لهجوم مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية سنة ٧١٧ — ٧٨١ م والذى تضافرت عدة عوامل على اخفاقه مثل قسوة الشتاء أنذاك ومهاجمة البلغار للقوات الاسلامية ، جنبا الى جنب مع جيش الروم ، مما دفع الجيش الاسلامى الى الانسحاب من المياه الرومية (البيزنطية)

G. Ostrogorsky : Op. Cit., PP. 156 — 157.

(١٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣٠ . سميت تنيس على اسم تنيس بن حام بن نوح . ويقال بناها قليمون من ولد اتريب بن قبطيم أحد ملوك القبط فى القديم . ويقال أن الجنتين اللتين ذكرهما الله تعالى فى كتابه العزيز : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخيل .. » كانتا لاخوين من بيت الملك أقطعهما ذلك الموضع ، فأحسنا عمارته وهندسته وبنيانه . وكان الملك يتنزه فيهما ، ويؤتى منهما بغرائب الفواكه والبقول ويعمل له من الاطعمة والأشربة ما يستطيبه . فعجب بذلك المكان أحد الاخوين وكان كثير الضيافة والصدقة ، ففرق ماله فى وجوه البر. وكان الآخر ممسكا يسخر من أخيه اذا فرق ماله ، وكلما باع من قسمه شيئا اشتراه منه ، حتى بقى لا يملك شيئا .

وصارت تلك الجنة لأخيه ، واحتاج الى سؤاله ، فانتهره وطرده ، وعيره بالتبذير وقال : قد كنت أنصحك بصيانة مالك فلم تفعل ، ونفعنى امساكى

فصرت أكثر منك مالا وولدا . وولى عنه مسرورا بماله وجنته .. فأمر الله تعالى البحر ، فركب تلك القرى فغرقها جميعا فأقبل صاحبها يولول ويدعو بالثبور .

كذلك كانت تنيس مشهورة بثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا وكان يصنع بها للخليفة ثوب يقال له البذنة لا يدخل فيه من العزل ـ سداة ولحمة ـ غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب كذلك اشتهرت تنيس بصناعة كسوة الكعبة المشرفة . (المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٢٩ ٣٣٨) .

(١٦) قدمها « لسبع عشرة خلت » فى ١٧ رمضان سنة ١٠١ هـ (الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٧٠) .

(١٧) الكندى : المصدر السابق نفس الصفحة ، المقريزى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٣١ ، وفى ذلك يقول الشاعر :

ألم تربع فيخبرك الرجال بما لاقى بتنيس الموالى

(١٨) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٨٨ ،
M. Canard : Cam. Med. Hist., V. IV Part I P. 699.

د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٧٣ .

(١٩) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ ، د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٢٠) د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٢١) د. وسام عبد العزيز : المرجع السابق ، ص ٣١٦ ـ ٣١٧ .

(٢٢) M. Canard : Cam. Med. Hist., V. IV Part I P. 699.

(٢٣) د. وسام عبد العزيز : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

(٢٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ . فبعد قيام ثورة فى بلاط قرطبة ضد الأمير الحاكم ١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ ـ ٧٢٢ م ترك بعض المغامرين الأسبان بلادهم وأبحروا مصطحبين معهم زوجاتهم وأولادهم ، حتى نزلوا فى ضواحى الاسكندرية وكان ذلك حوالى ١١٩ هـ /٨١٤ ـ ٨١٥ م وفق رأى الكندى وبعد

ان شعروا بقوتهم بعد فترة بدأوا يستغلون الفوضى السائدة فى مصر ليعملوا لحسابهم ، واختاروا أبا حفص قائدا لهم ثم استولوا على الاسكندرية فى ذى الحجة سنة ٢٠٠ هـ يولية ٨١٦ م وظلوا مسيطرين على الاسكندرية حتى أرسل الخليفة المأمون قائده عبد الله بن طاهر سنة ٢١٠ هـ / ٨٢٥ — ٨٢٦ م ليضع نهاية للاضطراب فى مصر وقد نجح فى اتمام مهمته خلال عامين استطاع خلالهما أن يخضع الحاكم الثائر فى صفر ٢١١ هـ مايو ٨٢٦ م وحاصر الاسكندرية فى ربيع الأول ٢١٢ هـ يونية ٨٢٧ م واستولى عليها بعد تسعة أيام . عندئذ خضع الأسبان للقائد العباسى وحصلوا على تعهد بمغادرة الاسكندرية الى اى أقليم رومى خارج نطاق النفوذ الاسلامى ، فعزموا على التوجه الى جزيرة كريت ذات الموقع الاستراتيجى والتجارى المهم . وعليه كان غزوهم لتلك الجزيرة فى صيف ٨٢٧ م .

(Fahmy A.M. : Op, Cit., PP. 128 — 130)

(٢٥) M. Canard : Cam, Med. Hist., V, IV. Part 1. P. 709.

(٢٦) دق سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ... ص ٨٩ .

(٢٧) M. Canard : Cam, Med. Hist., V. IV. Part 1, P. 709.

الفصـــل الثـــاني

حملة ٢٣٨ وأهميتها وآثارها

كان للعرب الأندلسيين فى كريت دور كبير فى تحـريك تلك الحملة الى شواطىء مصر • وعليه فلكى نتعرف عن كثب على الأبعاد الحقيقية لتلك الحملة ينبغى أن نركز الضـوء قليـلا على جزيرة كريت آنذاك •

ففى مستهل وصاية الامبراطورة ثيودورا ، أرملة الامبراطور ثيوفيـل ٨٢٩ ـ ٨٤٢ م / ٢١٤ ـ ٢٢٧ هـ على ابنهـا القاصر ميخائيل الثالث ٨٤٢ ـ ٨٦٧ م ـ ٢٢٧ ـ ٢٥٣ هـ قرر المسئولون فى القسطنطينية ارســال حملة الى كريت لاستردادها من المسلمين• وبالفعل أبحرت تلك الحملة فى ١٨ مارس ٨٤٣ م / ٢٢٨ هـ بقيادة ثيوكتستوس فنزل بقواته على أرض الجزيرة وقــاتل بشجاعــة وأحرز انتصارا على المسلمين الذين فوجئوا بهذه الحملة فى الوقت الذى كان فيه أسطولهم يقوم بالاغارة على البحر الايجى(١) •

عندئذ رأى مســلمو كريت أنه من المـمكن ان يتغلبوا عــلى ضعف امكاناتهم العسكرية باللجوء الى الحيلة وذلك « بأن رشوا أحد الضباط البيزنطيين وأوعزوا اليه أن يشيع فى معســكره أن الامبراطورة ثيودورا عزلت ثيوكتستوس من مجلس الوصاية »

وأنها اختارت أحد منافسيه ليحل محله • عندئذ سرت تلك الاشاعة في المعسكر الرومي حتى وصلت الى ثيوكتستوس نفسه ، فخشي على منصبه وترك جيشه وأسطوله وأسرع بالعودة الى القسطنطينية(٢) •

وهكذا أدى اهتمام ثيوكتستوس بمصالحه الشخصية الى اضاعة الفرصة على بيزنطة في استرداد كريت وتسبب في اخفاق تلك الحملة وتكبيد الدولة خسائر فادحة مادية وبشرية(٣) •

ولما كان العرب الأندلسيون في كريت ، لا يزالون يعرقلون سبل تجارة الروم ويهددون جزر بحر ايجه وشواطئه بالقرصنة ، لذلك أمرت ثيودورا بالاغارة على سواحل مصر لتخريب ما فيها من دار صناعة بحرية مهمة ـ ترسانة لصناعة السفن ـ كانت تزود عرب كريت بالسفن والعتاد وأحيانا بالرجال(٤) كان هذا هو أحد أسباب حملة الروم البحرية على مصر ٨٥٢ م / ٢٣٨ هـ • يضاف الى ذلك سبب آخر مهم هو رغبة كل من ثيوكتستوس وثيودورا في الانتقام لما أنزله أهل كريت بحملة ٨٤٣ م / ٢٢٨ هـ، لكن الضربة لم تكن موجهة تلك المرة الى كريت وانما الى مصر نظرا للرابطة القوية التي كانت تربط حكام مصر بأهالي كريت(٥) •

والمعروف أن كريت كانت تتبع أحيانا الروم وأحيانا أخرى كانت تتبع الخلافة العباسية ، وفي فترات تبعيتها للطرف الأخير كانت تتبع من ناحية التقسيم الاداري للدولة العباسية اقليم مصر(٦) •

كانت كريت تمد مصر بالعسل النحل والجبن(٧) وكانت تصدر الى مصر وسوريا الأخشاب وزيت الزيتون(٨) • والراجح

أن مصر استخدمت تلك الأخشاب فى دار صناعتها لصناعة السفن ، التى كانت ترسل منها عددا الى كريت كما كانت تمدها بالسلاح والعتاد الحربى(٩) وكل ما يدعم حكامها(١٠) ٠

وقد قيل ان السبب المباشر لتوجيه حملة الى سواحل مصر فى ذلك الوقت (٨٥٣ م / ٢٣٨ هـ) هو ما وصل الى المسئولين الروم من أن هناك كمية من السلاح موجودة بمدينة دمياط(١١) ٠ أراد المصريون حملها « الى أبى حفص صاحب اقريطش »(١٢) وعلى ذلك كان هدف تلك الحملة هو قطع الاتصال والمعونة البحرية التى قامت بين مصر ـ مقر الترسانة ـ وجزيرة كريت التى غدت خطرا جسيما يهدد قواعد الروم البحرية فى آسيا الصغرى ويهاجمها باستمرار وبانتظام(١٣) ٠

وهكذا توجه أسطول رومى الى مصر ، وهنا تجمع غالبية المصادر العربية على أنه كان مكونا من « ثلاثمائة مركب »(١٤) بينما يذكر اليعقوبى أن عدده كان « خمسة وثمانين مركبا »(١٥) والراجح أن اليعقوبى كان يقصد هنا عدد الجزء من الأسطول الذى بدأ الهجوم ٠ وكان الأسطول بقيادة ثلاثة من قادة الروم البحريين أشار اليهم الطبرى باسم « عرقا وابن قطونا وأمردناقة »(١٦) أما ابن الأثير فيذكر فقط أن الأسطول كان بقيادة « ثلاثة رؤساء »(١٧) ٠

واذا كان اليوم الذى حدد للهجوم على دمياط هو ٢٢ مايو ٨٥٣ م(١٨) / ٩ ذى الحجة ٢٨٣ هـ(١٩) ٠ فان ذلك يدل على « مهارة تدبير الادارة البيزنطية »(٢٠) فقد كان والى مصر فى ذلك الوقت عنبسه بن اسحاق(٢١) آخر وال عربى تقلد أزمة الحكم فى مصر وذلك فى عهد الخليفة المتوكل العباسى (٨٤٧ ـ ٨٦١ م / ٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ)(٢٢) ٠

وهكذا تصادف ذلك الهجوم مع خلو دمياط من حاميتها ، وقد علل ذلك بسببين : الأول أن عنبسة بن اسحاق أمر الجند الذين بدمياط أن يحضروا الى الفسطاط عندما اقترب العيد « ليتجمل بهم »(٢٣) . والسبب الثانى أن عنبسة اراد طهور ولديه يوم العيد حتى يجمع بين العيد والفرح واحتفل بتلك المناسبة احتفالا كبيرا حتى بلغ به الأمر أن أرسل الى ثغرى دمياط وتنيس فأحضر « سائر من كان بهما من الجند والخرجية والزراقين » وكذلك من كان بثغر الاسكندرية من المذكورين(٢٤) . والراجح أن السببين تضافرا معا على اخلاء دمياط من « مسلحتها »(٢٥) على حد تعبير ابن خلدون . وان تلك الحامية استدعيت للاشتراك فى عرض حربى فى الفسطاط رغب الوالى أن يجعله أكبر عرض حربى ممكن(٢٦) .

ومهما يكن من أمر فان موقع دمياط سهل على الروم العبث والتخريب فيها على نحو كبير . فدمياط العصور الوسطى تختلف عن دمياط الحالية التى تقع على الضفة اليمنى لمصب فرع دمياط ، على بعد اثنى عشر كيلو مترا من البحر المتوسط ويفصلها عن بحيرة المنزلة شريط أرضى اتساعه كيلو متر واحد ويستدل من أقوال الجغرافيين العرب فى العصور الوسطى أن دمياط كانت تقع على قطعة أرض مستطيلة تمتد بين مصب فرع دمياط والبحر المتوسط ، كما أن الشريط الأرضى الذى يفصلها عن بحيرة المنزلة كان من ضيق المسافة بدرجة جعلت مياه الفيضان تعلو عليه وتغمره حتى تبدو دمياط كأنها جزيرة منعزلة فى الماء(٢٧) .

هاجم الروم دمياط « فقتلوا من أمكنهم قتله من الرجال وأخذوا من الأمتعة والقند والكتان ما كان عبيا ليحمل الى العراق »(٢٨) . بل قيل أنهم « هجموا على أهلها وقتلوا جماعة من المسلمين وأسروا منهم جماعة »(٢٩) .

هنا يبين اليعقوبى مدى فداحة الخسائر البشرية حين يقول : أن عدد سبايا الروم « من المسلمات ألفا وثمانمائة وعشرين امرأة ومن نساء القبط ألف امرأة ومن اليهود مائة امراة »(٣٠) وهو رأى انفرد به اليعقوبى ، ونحن نرجحه لأنه أقدم من الطبرى الذى أخذت عنه غالبية المصادر العربية الأخرى حين قال ان عدد السبايا بلغ حوالى « ستمائة امرأة »(٣١) وأن عدد المسلمات منهن نحو « مائة وخمس وعشرين امرأة »(٣٢) ·

كذلك استولى الروم على السلاح الذى كان بدمياط(٣٣) واستولوا على السقط(٣٤) ، كما « أحرقوا خزانة القلوع وهى شرع السفن وأحرقوا المسجد الجامع بدمياط وأحرقوا الكنائس »(٣٥) عندئذ هرب الأهالى « فغرق فى البحر نحو الفين »(٣٦) ·

ورغم ما أبداه بعض أهالى دمياط من شجاعة نادرة فى قتال الروم فان ذلك لم يغير من نتيجة تلك الغارة التى رجحت فيها كفة الروم · فقد كسر بسر بن الأكشف ــ الذى كان قد حبس بأمر عنبسة ــ قيوده بواسطة عدد من أعوانه ، وخرج يقاتل الروم هو وجماعة آخرون ، وبالفعل قتل عددا منهم(٣٧) ·

واذا كان اليعقوبى قد أوضح أن الهجوم الرومي على دمياط قد استمر « يومين وليلتين »(٣٨) فان بعض المصادر العربية أشارت الى أن الروم ولوا مسرعين فى البحر (٣٩) دون أن تشير الى أية مقاومة من جانب المصريين · بينما يشير الكندى ــ وأخذ عنه المقريزى نفس الرأى ــ الى أن عنبسة بن اسحاق نفر اليهم فى جيشه ونفر معه كثير من الناس فلم يدركوهم ومضى الروم الى تنيس فأقاموا بأشتومها فلم يتبعهم عنبسة »(٤٠) · أما أبو المحاسن

فيفسر اسراع الروم بمغادرة دمياط بقوله : ان ابن الأكشف « هزمهم واخرجهم عن دمياط فنزحوا عنها منهزمين »(٥١) أى أن رحيل الروم عـاد بالدرجة الأولى الى استماتة أهـالى دمياط فى الدفاع عنهـا ·

بينما يعطينـا ابن اياس رأيـا آخر يؤكد فيه أن المصريين جميعا وقفوا صفا واحدا أمام تلك الحملة حتى أجلوها عن البلاد · فقد ذكر أنه عندما وصلت أخبـار تلك الحملة الى مصر فى يـوم عيد الأضحى « نودى بالنفير فخرج أهل الفسطاط جميعا وتوجهوا الى ثغر دمياط وتحـاربوا مع بنى الأصفر فانتصر عليهم عنبسة » وأسر منهم جماعة وهرب الباقون جميعا(٤٢) · وفى ذلك اشـارة الى حدوث صدام بين الروم والمصريين آنذاك ·

ومهما يكن الأمر فان الروم بما أحدثوه فى دمياط كانوا هم المنتصرين لكنهم لم يكن فى مخططهم البقاء أكثر من ذلك فى الثغر لأن هدفهم كما مر بنا كان الاستيلاء على كل ما يمكن أن يرسـل الى كريت لتقوى به ضدهم · وعليه فقد توجهوا بعد ذلك الى أشتوم تنيس(٤٣) ·

وقبل أن نسترسل فى الحديث عن مصـير تلك الحملة بعد مغادرتها دمياط ، نود أن نشير الى أنه رغم كل ما أحرزه الروم من ورائهـا ، ورغم تحقيقهم للغرض الأسـاسى من توجيهها فـان غالبية (المصادر البيزنطية صمتت تماما عن الاشارة اليها · وكل ما عثرنا عليه من اشـارات عن تلك الحملة فى المصادر والمراجع الأجنبية قليل جدا · فمثلا (استروجورسكى) اكتفى بالاشـارة الى نتيجة الحملة بايجـاز بقوله : « أن دميـاط دمرت وحرقت تماما » ثم عقب على الحملة ككل بقوله أنه « لأول مرة يتجاسر

البيزنطيون بالمخـاطرة بعيدا فى صراع بحرى »(٤٤) • أما (برييه) فقد ذكر « أن الحملة البيزنطية البحرية على دمياط أسـفرت عن نهب وحرق المدينة »(٤٥) •

كذلك أشار أحد المراجع الأجنبية بايجـاز الى نتائج تلك الحملة بقوله « ان الأسطول استولى على دمياط وأحرقها وقتل عددا من الأهالى وأخذ الباقين أسرى ثم استولى على مخازن السـلاح والمؤن »(٤٦) • كما أشـار مرجع مشابه الى « أن البيزنطيين قد استولوا على دمياط فى ٢٢ مايو ٨٥٣ م » وأن ذلك قد ورد بدون شك فى مصـدرين عربيين مهمين وأنهما « عزا بأوراق بردى تم كشفها حديثا وترجع أيضا الى أصل عربى »(٤٧) •

والواقع أننا لا ندرى أى مصدرين عربيين يقصد ذلك المرجع الحديث من بين الحشد السابق للمصادر العربية • كذلك لم يورد شيئا عن أوراق البردى التى ذكرها • هـذا بالاضافة الى أنه ذكر أن حملة مايو ٨٥٣ م انتهت بالاستيلاء على دميـاط ، لكن الحقيقـة ان الروم لم يستقروا فيهـا بعد تدميرهم وتخريبهم لها مما لا يعطيها صفة الفتح المستقر الثابت •

لكن الغارة على دمياط حققت هدفهـا فى الانتقام لهزيمـة ثيوكتستوس التى لحقت به من مسلمى كريت ٨٤٣م(٤٨)/٢٢٨هـ• كما فوتت على مسلمى كريت فرصة الاستفادة من السلاح والمعدات التى قد يحصلون عليها من مصر ورغم ذلك كله ــ وكما هو واضح لنا ــ نلاحظ أن غالبية المصـادر التى أمدتنا بالمعلومات عن تلك الحملة كانت مصـادر عربية لا بيزنطيـة • وليس هـذا بالشىء المستغرب فقد تعرض تاريخ الأسرة العمورية لكثير من التشويه ، ولاخفاء كثير من الانتصـارات التى حققها أباطرة تلك الأسرة(٤٩)•

والواقع أن روح الحقد والحسد نجحت عبر القرون فى حرمان عهد ثيودورا وثيوكتستوس وسرجيوس « من مجرد اسـمه الذى يجعله مشهورا » ذلك العهد الذى وصف فى غالبيته بأنه « عهد حكم القديسين »(٥٠) ٠

والواقـع أن أحد جوانب القصـور الخطـيرة فى المؤرخـين البيزنطيين المحدثين ، هو المدى الواسع الذى سمحوا فيه لأنفسهم أن يخدعوا بواسـطة مصادر غيرت تغييرا فعليـا بواسطة مؤرخين أرخوا لمصلحة الأسرة المقدونية ، وكان على رأسـهم الامبراطور قنسطنطين بورفيروجينيتوس نفسه(٥١) ٠

نعود مرة أخرى لنتتبع ما حدث لحملة ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م بعد مغادرتها لدمياط ٠ فنجد أنها اتجهت شرقا لمهاجمة تنيس ، وهى جزيرة فى بحيرة المنزلة تقع بين الفرما ودمياط ٠ ولكن التيـار أفسد خطة الروم الذين تخلوا عن متابعة السير نحوها خشية أن تجنح سفنهم الى الرمال ٠ ومن ثم اتجهوا الى أشتوم التى لا تبعد كثـيرا عن تنيس(٥٢) « بينهـــا وبين تنيس أربعـة فراسـخ وأقل »(٥٣) ، وكانت مركزا حصينا له سـور وأبواب حديدية كان المعتصم قد أقامه فاقتحم الروم ذلك الحصـن وخربوا معظمه(٥٤)٠ وأحرقـوا ما كان به من الآلات الحربيـة(٥٥) من « المجـانيق والعرادات »(٥٦) وأخذوا بعض الأبواب الحديدية وأبحروا عائدين الى بلادهم قبـل أن تصـل الامـدادات الاسـلامية من داخـل البلاد(٥٧) ٠ « فلم يعرض لهم أحد »(٥٨) ٠

كان رد فعل تلك الغارة على شواطىء مصر أن أمر الخليفـة المتوكل ببنـاء حصن دميـاط فى رمضان ٢٣٩(٥٩) هـ / الموافق فبراير ٨٥٤ م(٦٠) كما أمر بتشييد حصنين آخرين أحدهما فى

القرما والآخر فى مدينة تنيس ، وقد أشرف على انشائها جميعاً أمير مصر عنبسة بن اسحاق وأنفق لهذا الغرض أموالا عظيمة(٦١) .

فما كان من الروم الا أن أعادوا أسطولهم من جديد الى دمياط لتعويق بناء السفن وأعمال الصيانة والاصـلاح التى أمر بهـا الخليفـة ومكثوا فى دميـاط نحو شـهر ينهبون كل ما يقع تحت أبصارهم أو تصل اليه أيديهم(٦٢) .

هوامش الفصل الثانى

(١) د. اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ، ص ٨٦ عن (موناخوس (Monachus) .

وثيوكتستوس هو أبرز أعضاء مجلس الوصاية على الاطلاق فى فترة وصايتها على ابنها ولا يرجع نفوذه الكبير الى خدماته المخلصة للامبراطور ثيوفيل لكن يرجع فى الحقيقة بالدرجة الأولى الى كونه السبب الرئيسى فى اعتلاء ميخائيل الثانى العرش بعد مقتل ليو الخامس ، وتعتبر وظيفة اللغثيث Logothete التى تولاها ثيوكتستوس فى عهد ثيودورا ثم ستيليانوس زوتزس Stylianus Zoutzes على عهد ليو السادس من أهم الوظائف العظيمة والمتزايدة الأهمية .

(Cam Med. Hist., V. IV, Part 1, PP. 105, 106, G. Ostrogorsky: Op. Cit., P. 250).

وللتفصيل أكثر أنظر كتاب المرأة فى الحضارة البيزنطية للمؤلفة ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(٢) د. اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٨٦ ـ ٨٧ عن موناخوس .

(٣) د. اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٤) د. أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ٣٣٤ .

(٦) د. اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٤١ ـ ٤٥ عن (النعمان : المجالس والمسايرات) .

(٧) د. اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٨) William H. Meneill : A World History, P. 42.

(٩) Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1, P. 713.

(١٠) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 222.

(١١) د. اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٨٨ — ٨٩ .

(١٢) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤) دار المعارف (.

(١٣) L. Brehier : Viet et Mort, P. 128.

د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر ... ، ص ٨٩ .

(١٤) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٢ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، (ادارة الطبـاعة ـ المنيـرة ١٣٥٧ هـ) ص ٢٩٢ ، الذهبى : دول الاسلام ، جـ ١ ، ص ١٤٤ ، اليافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، جـ ٢ ، ص ١٢١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ص ٢٩٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ٢ ، ص ٨٩ .

(١٥) اليعقوبى : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ٤٨٨ .

(١٦) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٣ .

(١٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٩٢ .

(١٨) Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1, P. 106.

(١٩) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٠١ .

المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ ٢ ، ص ٢٩٤ . حيث ذكرا أن ذلك كان يوم عرفة ويؤيد هـذا ما ذكره ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٢٤ من أن (بنو الأصفر) ـ أى الروم ـ جاءوا الى ثغر دمياط سنة ٢٣٨ هـ وهاجموها .. وأن الخبر جـاء « الى مصر بذلك فى يوم عيد النحر » أى أن الروم هاجموا دمياط ليلة العيد .

(٢٠) د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ... ، ص ٩٢ .

(٢١) اليعقوبى : تاريخـه ، جـ ٢ ص ٢٨٨ ، الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٠٠ ، أما أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٣ فيسميه عنبسة بن اسحاق بن شـمر بن عيسى بن عنبسة . أما ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٢٤ ، فيكتفى بتسميته عنبسة بن اسحق ابن شمر فى حين يحرف زامباور الاسم بعض الشىء فى كتابه معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسـلامى ص ٢١ فيسميه عنبسة بن اسحق بن شـامر .

(٢٢) د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٩١ .

(٢٣) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ .

(٢٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٢٥) ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٢٧٧ .

(٢٦) أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ٣٣٥ ، د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية ... ص ٩٢ .

(٢٧) د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية ... ، ص ٩٢ .

(٢٨) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ . والمقصود بالقند هنا عسل قصب السكر (مختار الصحاح للرازى . دار التراث العربى — حرف القاف والنون) .

(٢٩) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٢٤ .

(٣٠) اليعقوبى : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ٤٨٨ .

(٣١) الطبرى : المصدر السابق ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ ، ابن الأثير : الكامل : جـ ٥ ، ص ٢٩٢ أحداث ٢٣٨ هـ ، اليافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، جـ ٢ ، ص ١٢١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٤٧ — ٣٤٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ٢ ص ٨٩ .

(٣٢) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ .

(٣٣) اليعقوبى : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ٤٨٨ ، الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٩٢ .

(٣٤) اليعقوبى : نفس المصدر السابق والصفحة ، والسقط أى المتاع (مختار الصحاح للرازى ، حرف السين والقاف) .

(٣٥) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ .

هنا تعقب الأستاذة الدكتورة سعاد ماهر على ذلك التصرف بقولها : انه مما يدل على أن تلك الغارة كان يقصد منها أهداف أوسع من السلب الذى جرت عليه الغارات التقليدية آنذاك ، وأنها كانت جزءا من سياسة الروم ازاء أسطول كريت ، أن الجند استولوا على مؤن وذخيرة فى دمياط كانت معدة للشحن الى كريت .. ثم أحرقوا أشرعة السفن المكدسة فى المخازن البحرية بدمياط (د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٩٠) .

(٣٦) أليعقوبى : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ٤٨٨ .

(٣٧) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٩٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٣٨) اليعقوبى : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ٤٨٨ .

(٣٩) اليافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، جـ ٢ ، ص ١٢١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٤٨ .

(٤٠) الكندى : كتاب الولاة ، وكتاب القضاة ، ص ٢٠١ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ . ويعقب الكندى على رأيه هذا بايراد شعر ليحيى بن الفضل كتبه للمتوكل يعجب فيه من موقف عنبسة ويتحسر لأن الدين كاد أن يذهب على يد الولاة المتراخين فى أداء واجبهم نحو البلاد ويعجب من موقف عنبسة . ومن ذلك الشعر تلك الأبيات :

أترضى بأن يوطأ حريمك عنوة ... وأن يستباح المسلمون ويحربوا
حمار أتى دمياط والروم وثب ... بتنيس راى العين منه وأقرب
مقيمون بالأشتوم يبغون مثل ما ... أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فما رام من دمياط شبرا ولا درى ... من العجز ما يأتى وما يتجنب
فلا تنسنا أنا بدار مضيعة ... بمصر ، وان الدين قد كاد يذهب

(٤١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٤٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٢٤ .

(٤٣) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٩٢ ويسميها أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٥ (أشمون تنيس) .

(٤٤) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 222.

(٤٥) L. Brehier : Vie et Mort, P. 128.

(٤٦) M. Canard Cam. Med. Hist. V. IV. Part, 1, P. 713.

(٤٧) Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1, P. 106 (The Late H. Grégorie)

(٤٨) د. اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ، ص ٩١ .

(٤٩) نفس المرجع ، ص ٨٩ .

(٥٠) Cam. Med. Hist. V. IV, Part. 1, P. 107.

(٥١) Cam, Med. Hist. : Ibid., V. IV. Part 1, P. 105.

(٥٢) د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية ... ، ص ٩٣ .

(٥٣) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ . وتقع أشتوم عند مدخل بحيرة تنيس . (Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1, 713). أما عن فرسخ الطريق فهو ثلاثة أميال هاشمية وقيل اثنا عشر ألف ذراع وهى تقريبا ثمانية كيلو مترات والكلمة فارسية (المنجد فى اللغة والآداب والعلوم ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ، ص ٦٠٧) .

(٥٤) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ ، د. العدوى : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٥٥) د. العدوى : نفس المرجع السابق والصفحة ، د. أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ٢٣٥ .

(٥٦) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٥٧) د. العدوى : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٥٨) الطبرى : المصدر السابق ، ص ١٩٥ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ (ادارة الطباعة المنيرية) ١٣٥٧ هـ ، ص ٢٩٢ .

(٥٩) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠١ .

(٦٠) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ... ، ص ٩١ .

(٦١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣٦ .

(٦٢) Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1. P. 713.

الفصـــل الثـــالث

هجمات الروم من ٢٣٨ هـ حتى الحملة الصليبية الأولـى

عاود الروم مهاجمة دمياط بحملة ثالثة سنة ٨٥٩ م(١) / ٢٤٥ هـ وكان والى مصر آنذاك يزيد بن عبد الله بن دينار(٢) . فخرج يزيـد « الى دميـاط مرابطـا فى المحـرم سـنة خمس وأربعين »(٣) وأقـام بها مدة « لم يلق حربـا »(٤) فرجع الى الفسطاط فى ربيع الأول من نفس السنة ، ولكن بمجرد وصـوله الى بنها بلغه أن الروم « نزلوا الفرما » فرجع فى جيشه « فلم يلقهم »(٥) . وهكذا لم يحدث أى اشتباك بين تلك الحملة وبين أولى الأمر فى مصر .

أما فى عهد الطولونيين (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/٨٦٨ ـ ٩٠٥م)(٦). فقد كانت مصر على أيام أحمـد بن طولون ومن جـاء بعده من الطولونيين ـ وللمرة الأولى منذ عهد البطالمة ـ قاعدة لقوة عسكرية مستقلة وقوة سياسـية مرموقة مع استقلال أيضا فى سياستها ودور متصاعد فى شئون الشرق الأوسط كله(٧) .

فمنذ اللحظة الأولى لتولى أحمد بن طولون شئون مصر سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ، اتجه الى دعم قوته البحرية ليدفع عن نفسه وولايته محاولات الخلافة العباسية استرداد نفوذها المطلق عليها • ومن ثم اتجه الى الاهتمام بشئون أسطول مصر(٨) • الذى زادت قوته زيادة ملحوظة وأصبح خطرا يتهدد الروم ، وخصوصا بعد أن استطاع أحمد بن طولون بعد تحسن العلاقات بينه وبين الخلافة العباسية من أن ينقل بعض قطع الأسطول الى (طرطوس) فى شمال بلاد الشام وأن يجعلها قاعدة حربية تخرج منها السفن التى تهاجم معاقل الروم فى آسيا الصغرى(٩) •

واذا كانت بعض المراجع(١٠) قد جعلت ذلك السبب هو الدافع القوى الذى جعل امبراطور الروم باسل الأول Basil I (٨٦٧ ــ ٨٨٦ م(١١) / ٢٥٣ ــ ٢٧٣ هـ) يسارع بارسال وفد الى أحمد بن طولون « يخطب وده » ويحمل له هدية قيمة تشمل عدة أسرى من ذوى المكانة المهمة ، وعدة مصاحف ، فقد أرسل « عبد الله بن رشيد بن كاوس وعدة أسرى ، وأنفذ معهم عدة مصاحف منه هدية اليه »(١٢) •

فالحقيقة أن هناك أسبابا كثيرة تضافرت لتجعل امبراطور الروم باسل الأول لا يسارع بالقيام بهجوم بحرى ضد مصر ــ مقر ابن طولون الأساسى آنذاك ــ ليجهض تلك القوة البحرية الناشئة قبل أن يستفحل خطرها • ذلك لأنه كان مشغولا بالحرب فى جبهات مختلفة شرقية وغربية وباقرار نفوذ الروم فى أكثر من جبهة •

ففى مستهل حكمه عاد نفوذ الروم من جديد الى الساحل الادرياتى الشرقى وتم انشاء الثيماتا الدلماشية The Theme of Dalmatia فى ذلك الوقت أيضا • كذلك أجبرت

القبائل السلافية على تقديم التأييد الحربى لدولة الروم • وازداد نفوذ الروم قوة ورسوخا فى البلقان • كما شهدت تلك الفترة تحول الكثير من قبائل العرب والسلاف الى المسيحية بواسطة بيزنطة ، وأحرز الروم نصرا مؤقتا على كرواتيا • وبصفة عامة ازداد تأثير الروم ظهورا فى كل من بلغاريا ومقدونيا وصربيا(١٣)•

واذا كان العرب قد استولوا على مالطة فى سنة ٨٧٠ م / ٢٥٧ هـ مما دعم مركزهم البحرى أكثر فى البحر المتوسط فان لويس الثانى امبراطور المانيا(١٤) ـ استطاع أيضا أن يستولى على بارى سنة ٨٧١ م / ٢٥٨ هـ • لكن رغم ذلك وجه الروم كل اهتمامهم لعدة سنوات تالية ناحية الشرق حيث انشغلوا فى تتبع البيالقة(١٥) Paulicians فى آسيا الصغرى ، وتمكنوا من قتل زعيمهم حوالى ٨٧٢ م / ٢٥٩ هـ ، وبعد ذلك اندفع الامبراطور باسل الى اقليم الفرات فى ٨٧٣ م فاستولى على زبطره وسميساط • واذا كان باسل قد منى بهزيمة قاسية عند ملطية وعند أطراف طوروس فانه اكتفى بما حققه من نجاح جزئى، وكان ذلك فاتحة لعدة حملات حربية منظمة على الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية •

كذلك أعاد الروم سيطرتهم على بارى بايطاليا ٨٧٦ م / ٢٦٣ هـ كما ردوا هجوما عربيا على الأقاليم الساحلية الدلماشية، وعلى اليونان والبلبونيز بل انهم خططوا للاستيلاء على جزيرة قبرص لمدة سبع سنوات • ثم لحق الروم ضربة قوية عندما استولى العرب على سيراكوز Syracuse بصقلية ٢٦٥هـ / ٨٧٨م• ولكن فى السنوات الأخيرة من حكم باسل الأول ـ وخصوصا بعد أن أسندت القيادة العسكرية الى القائد نقفور فوقاس « عاد جنوب ايطاليا من جديد تحت الحكم البيزنطى »(١٦) •

وما ان وصلت الدولة الطولونيـة الى شيخوختهـا وبدأت مظاهر الاضمحلال الاقتصادى تظهر عليها حتى بدأ الروم يوجهون ابصارهم اليها من جديد « فبدأوا يستأنفون هجماتهم البحرية على شواطئها »(١٧) ٠

بموت هرون بن خمارويه فى ١٨ صفر ٢٩٢ هـ(١٨)/٩٠٥ م انقرضت الدولة الطولونيـة وشرد رجالها أو ذبحوا ٠ فلما عادت مصر الى المكتفي ، ولى عليها عيسى النوشرى أحد قواده ٠ « كما ولى على مديريات مصر جماعة من قواد جيشه الآخرين ، وكان نصيب دمياط وتنيس معا مهاجر بن طليق »(١٩) ٠

وفى سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م انتهز الروم اضطراب أوضـاع مصر وهاجموا دمياط بأسطول مكون من « مائتي مركب » وأقاموا حوالى شهر يثيرون الفساد والاضطراب على الساحل « ويقتلون ويأسرون » فالتحم المسلمون معهم فى عدة معارك(٢٠) ٠

وعاد الروم لمهاجمة دمياط مرة أخرى سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م فدخلوا المدينة « وأخذوا من فيها وما فيها وضربوا الناقوس فى جامعها »(٢١) ٠

وفى ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م أسس محمد بن طغج الاخشـيد الدولة الاخشيدية(٢٢) ٠ فعنى بانشاء المراكب الحربيـة ونقل جزءا من دار صناعة السفن من جزيرة الروضـة الى الفسطاط فى دار عرف باسم « صناعة السفن » وغدت السفن الحربيـة والتجارية تصنع فى دار صناعة مصر تارة وفى دار صناعة الجزيرة تارة أخرى(٢٣) ٠

وعندما انشغل الروم بقيادة حنا كوركواس بالحرب مع سيف الدولة الحمداني ــ وذلك فى الأربعينيات من القرن العاشر الميلادى ،

والثلاثينات من القرن الرابع الهجرى « ولكى يحموا أنفسهم من ذلك العدو الجديد اضطروا للدخول فى علاقات ودية مع خلافة بغداد ومع الاخشيديين فى مصر »(٢٤) لذلك لم نقرأ عن حملات للروم وجهت الى شواطىء مصر فى تلك الفترة ٠

ولكن كداب الروم دائما أنه كلما لمحوا بادرة صغيرة من بوادر الضعف فى شئون مصر سارعوا بارسال حملة بحرية اليها ٠ فقد انتهز الروم الفتن التى سادت مصر بعد وفاة كافور الاخشيدى(٢٥) ٠ وهاجموا دمياط فى العاشر من رجب ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م « طرق الروم دمياط لعشر خلون من رجب سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ، فى بضعة وعشرين مركبا » فقتلوا وأسروا حوالى مائة وخمسين من المسلمين(٢٦) ٠

وبقيام الدولة الفاطمية كان اهتمام الخليفة المعز لدين الله ، أبو تميم معد (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ(٢٧) / ٩٥٢ ـ ٩٧٥ م) بالبحر شديدا ، حتى أن أهالى جزيرة كريت استنجدوا به ضد تهديدات الروم واوضحوا له أن مجىء الأسطول الفاطمى اليهم يتيح له فرصة الحصول على قاعدة حربية قريبة من القسطنطينية عاصمة الروم ويهيىء للفاطميين مركزا لسيادة شرق البحر المتوسط ٠٠٠ وبالفعل بادر المعز بالاتصال بالاخشيديين وطلب منهم مساعدته فى تلك المهمة(٢٨) ٠ ولكن تدهور أحوال الاخشيديين بعد وفاة كافور كما راينا شجعت الروم على مهاجمة دمياط ٠

هذا وقد وصلت البحرية المصرية فى عهد الخليفة العزيز ، أبو منصور نزار (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ(٢٩) / ٩٧٥ ـ ٩٩٦ م) درجة كبيرة من التقدم مكنته من اعداد حملة بحرية لغزو بلاد الروم غير ان تلك الحملة لم تحقق الغرض الذى كانت تجهز من أجله

« لاحتراق مراكبها »(٣٠) عندئذ أرسل امبراطور الروم رسله الى الخليفة العزيز لطلب الصلح وحملهم بالهدايا فوافق الخليفة على الصلح(٣١) ٠

والحقيقة أن الامبراطور باسل الثانى Pasil II ٩٧٦ ـ ١٠٢٥ م(٣٢) / ٣٦٦ ـ ٤١٦ هـ مرت به آنذاك بعض الأحداث اضطرته الى طلب تلك الهدنة من الفاطميين(٣٣) ٠

لكن الهدنة لم تستمر طويلا « بسبب الصراع الفاطمى الحمدانى الذى تحول الى صراع فاطمى بيزنطى بسبب استنجاد ولاة حلب الحمدانيين بالبيزنطيين »(٣٤) ٠

وبوفاة الخليفة العزيز ، خلفه الخليفة الحاكم ، أبو على المنصور (٣٦٨ ـ ٤١١ هـ / ٩٩٦ ـ ١٠٢١ م) الذى « أحرزت الجيوش المصرية فى بداية عهده العديد من الانتصارات على الدولة البيزنطية فى بلاد الشام »(٣٥) ٠ وعندما وصلت تلك الأخبار الى الامبراطور باسل حزن حزنا شديدا لأنه كان مشغولا حينئذ بحرب البلغار ، فحرص على أن يستتب الأمن والسلام فى بلاد الشام حتى يتفرغ لحربه مع البلغار ، اذ كان يخشى من تدخل الفاطميين فى بلاد الروم ، لذلك طلب عقد هدنة سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م لكن الحاكم بأمر الله بعث له باجابة غير مرضية مما جعل الامبراطور يصمم على الاتجاه بنفسه الى بلاد الشام مرة أخرى تاركا القيادة فى بلغاريا لنقفور أورانوس(٣٦) ٠

وبالفعل قدم الامبراطور باسل بنفسه الى بلاد الشام ٩٩٩ م / ٣٩٠ هـ وأحرز عدة انتصارات على الفاطميين فيها(٣٧) ٠ وعندئذ علم بوفاة ملك الكرج الذى كان قد أوصى بملكه قبل وفاته

لباسل ، لذلك أسرع باسل بالعودة وضم بلاد الكرج الى امبراطوريته(٣٨) . وبوصول باسل للقسطنطينية وجد هناك سفارة بعثها الحاكم بأمر الله برئاسة أريسطس Arestes بطريرك بيت المقدس يطلب عقد هدنة لمدة عشر سنوات وذلك ١٠٠١ م / ٣٩٢ هـ(٣٩) .

وهناك رأى آخر يذكر أن امبراطور الروم هو الذى أرسل رسله الى مصر لطلب الهدنة وأن الحاكم أعد عدته لاستقبال السفراء وبالغ فى تزيين القصر وفى الحفاوة برسول الروم ، وتم الاتفاق على صلح لمدة عشر سنوات(٤٠) .

ومهما اختلفت الآراء فان ما نود أن نؤكده هنا هو أنه عقدت هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات . الا أن تلك السياسة الودية ما لبثت أن تبدلت الى علاقة عدائية عندما علم الامبراطور البيزنطى بنبأ السياسة العدائية التى اتبعها الحاكم ازاء النصارى(٤١) ، وظل الأمر كذلك حتى عهد الخليفة الظاهر أبى الحسن على (٤١١ ــ ٤٢٧ هـ(٤٢) / ١٠٢٠ ــ ١٠٣٥ م) فعملت عمته ست الملك التى كانت وصية عليه على اقامة علاقات ودية بين مصر ودولة الروم(٤٣) .

تلا ذلك فترة من الهدوء النسبى بين الجانبين ففى سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م عقدت معاهدة بين امبراطور الروم قنسطنطين الثامن Constantine VIII ١٠٢٥ ــ ١٠٢٨ م / ٤١٦ ــ ٤١٩ هـ وبين الخليفة الظاهر تمت بمقتضاها الموافقة على الدعوة للظاهر فى الخطبة فى جامع القسطنطينية(٤٤) . كذلك عقد الظاهر معاهدة صداقة مع الامبراطور رومانوس الثالث Rumanus III Argerus (١٠٢٨ ــ ١٠٣٤ م)(٤٥) .

وفى أوائل عهـد الخليفـة المستنصر بالله أبو تميم معـد ٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م كانت العلاقـة بين الدولة الفاطميـة ودولة الروم على شيء من الصفـاء ايضـا ٠ ففى سـنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م تم الاتفـاق بين الخليفـة المستنصر والامبراطـور ميخـائيل الرابـع Mighaeil IV (١٠٣٤ ـ ١٠٣٤ م(٤٧) / ٤٢٦ ـ ٤٣٣ هـ) ٠

ثم تجددت العلاقات الودية بين الخليفة المستنصر والامبراطور قنسطنطين التاسع مونوماخوس Constantine IX Monomachus (١٠٤٢ ـ ١٠٥٥ م / ٤٣٤ ـ ٤٤٧ هـ) ٠ وعليه ففى ٨ ذى الحجة سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م وردت هديـة من الامبراطور قنسطنطين التاسع للخليفـة المستنصر بالله الفـاطمى « كان من جملتها بغل وحصان من أحسن الدواب وأغلاها قيمة ، كل منهمـا عليه ثوب ديباج رومى منقوش ثقيل ، وخمسون بغلا عليها مائة صندوق مصفحة بالفضة ، فيها آنية الذهب والفضـة ، منها مائة قطعة بمينـاء ، وفيها من الديباج والسندس والابريسم والعمائم المعلمة ما لا يقدر على مثله ، فعوض عن هديته بمثلها من حق مصر ومن الجوهر والمسك والعود والطراز ، عمـل تنيس ودميـاط ، ما هو أكثر قيمـة مما بعثه »(٤٨) ٠

وفى ١٠٤٧ ـ ١٠٤٨ م / ٤٣٩ ـ ٤٤٠ هـ وقعت معـاهدة بواسطة قنسطنطين مونوماخوس ، الذى تبادل فى مناسبات عديدة السفارات مع الخليفة الفاطمى المستنصر ٠ وفى ١٠٥١ ـ ١٠٥٢ م / ٤٤٣ ـ ٤٤٤ هـ تمـكن الامبراطور قنسطنطين من القبض عـلى الرسـول الذى كان متوجها الى حاكم شمال افريقيا الثائر وأخبر به الخليفة المستنصر بسرعة(٤٩) ٠

وقد وقع اتفاق جديد بين الجانبين فى ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ـ أثناء الشدة العظمى(٥٠) التى عانت منها مصر آنذاك ـ وقد نص

الاتفاق على أن يمد الامبراطور مصر بالغـلال والأقوات ليستطيع الخليفـة بذلك أن يقاوم الغلاء والمجـاعة التى حلت بمصر فى تلك السنة(٥١) • « فقد هلك الناس بالجوع وفنيت ذخـائر مصر بعد مقاساة شديدة من غلاء السعر • وكان القمح والشعير يجلب من بلاد الأندلس وبلاد النصـارى • وكان التجـار الذين يجلبونه يأخذون فيه الجوهر والياقوت وغير ذلك من ذخائر مصر »(٥٢) •

وقد اختلفت الآراء عن مدى تنفيذ الاتفـاق السابق الذكر فبينمـا يذكر العينى أن الامبراطور أرسـل للمستنصر « أربعمائة أردب » من غـلات بلاده(٥٣) • أو بمعنى آخر أمد الفـاطميين بالقمح(٥٤) • يذكر رأى آخر أن الامبراطور قنسطنطين التاسـع مات قبل أن ينفذ الاتفاق(٥٥) •

لكن مهما كان الأمر فان الامبراطورة ثيودورا Theodora التى خلفته اشترطت مسـاعدة الفاطميين الحربيـة ضد السلاجقة فى مقـابل امدادها لهم بالقمح ، فلمـا رفض المستنصر منعت عنه القمح(٥٦) • فما كان من المستنصر الا أن أرسـل حملة حربيـة الى أنطاكية فردت الامبراطورة على ذلك بارسال حملة بحريـة سـنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م • فأرسـل المستنصر الى القسطنطينية بالقاضى عبد الله القضاعى لتسوية الخلاف بين الدولتين(٥٧) •

ولكن ثيودورا لم تهتم بوجود رسـول المستنصر ، بينمـا سمحت لرسول السـلطان طغرلبك السلجوقى بالخطبة للخليفـة القائم العباسى ، فغضب المستنصر واستولى على نفائس كنيسـة القيامـة(٥٨) •

ولم تلبث دولة الروم أن دخلت فى مرحلة حرجة من تاريخها « بدأ فيها موكب الغروب ليسجل بداية النهاية لتلك الدولة وهى الفترة الممتدة من ١٠٥٧ ــ ١٢٠٤ م »(٥٩) •

ويجمل لنا الأستاذ الدكتور حسنين ربيع معالم تلك الفترة بقوله : انه بوفاة الامبراطورة ثيودورا فى ١٠٥٦ م / ٤٤٨ هـ انتهت الأسرة المقدونيــة وبدأت فترة من الفوضى والاضطراب اســتمرت لمدة خمس وعشرين سنة انتهت بتولية الكسيوس كومنين عرش الامبراطورية وكانت أهم ملامح تلك الفترة من الفوضى والاضطراب التى شاهدتها الدولة البيزنطيــة بين سنتى ١٠٥٦ ـ ١٠٨١ م ما حدث من زيادة النزاع بين الفئات العسكرية فى المناطق الثغرية من أرباب السيوف وأفراد الســلطات البيروقراطيــة فى العاصمة القسطنطينية من أصحاب الأقلام ، وما حدث من تغيرات اجتماعية واقتصادية هزت المجتمع البيزنطى ، وما تعرضت له بيزنطــة من أخطار خارجية من النورمان والبشناق Patzinaks والسلاجقــة وغيرهم »(٦٠) ٠

ويكفى للتدليل على مدى الهزات التى أصيبت بها دولة الروم آنذاك أن نذكر هزيمة الروم فى موقعة مانزيكرت ١٠٧١م / ٤٦٣هـ على يد السلاجقــة وأسر الامبراطور رومانوس الرابــع ديوجــين (١٩٦٨ ـ ١٠٧١ م) على يد السلطان ألب أرسلان السلجوقى(٦١) وما ترتب على تلك الموقعة من نتائج خطيرة بالنسبة لدولة الروم ٠ ذلك أنها لا تقل عن معركة اليرموك ٠ لأن مانزيكرت قررت مصير آسيا الصغرى ، واليرموك قررت مصير الشام ، فلقد كانت خسارة دولة الروم لولايات شرق آسيا الصغرى دليلا وبرهانا على قرب موت دولتهم أو بدايــة النهايــة لحياتهــا « فعندما فقدت الدولة البيزنطية ولاياتها الغنية فى آسيا الصغرى أصبحت القسطنطينية رأسا حرم من الجسد الذى يسنده »(٦٢) ٠

وبوصول الكسيوس كومنين الى عرش الروم ١٠٨١ ـ ١١١٨م كان عليه أن يواجه الأخطــار الثلاثة السابقة الذكر : السلاجقــة والبشناق والنورمان ٠

والواقع أن الخطر الأخير كان أشد وأقوى من أى وقت مضى بظهور أطماع روبرت جويسكارد النورماندى فى عرش القسطنطينية نفسها(٦٣) • وبوفاة جويسكارد بالطاعون فى بداية ١٠٨٥ م دخلت ايطاليا فى فترة من الاضطراب واستراحت دولة الروم من الخطر النورماندى لعدة سنوات(٦٤) •

وفى ١٠٩٠ ـ ١٠٩١ م هوجمت القسطنطينية برا وبحرا بواسطة البشناق فاستخدم الكسيوس كومنين الدبلوماسية البيزنطية فى الاستعانة ببعض القبائل البربرية خاصة الكومان الذين قدموا من سهول جنوب روسيا فى التخلص من الخطر البشناقى ، وانتهى الأمر بهزيمة البشناق فى معركة جبل ليفونيون Mt. Levunion الشهيرة فى ٢٩ ابريل ١٠٩١ م(٦٥) •

وباستيلاء السلاجقة على بيت المقدس ١٠٧٧ م كان على دولة الروم أن تبحث عن وسيلة تحمى بها الأراضى المقدسة باعتبار أن تلك الأراضى كانت يوما ما ضمن دائرة نفوذها • وربما كان ذلك هو الدافع لألكسيوس كومنين لطلب جنود مرتزقة من الكونت روبرت فلاندر Count Robert of Flanders الذى زاره أثناء حجه سنة ١٠٨٩ م أو بداية ١٠٩٠ م والذى أعطاه وعدا بارسال خمسة آلاف فارس ، وكان نفس المطلب هو الذى رمى اليه الكسيوس عندما طلب المساعدة من روما وعلى رأسها البابا أوربان الثانى Urban II « ولكن الأحداث تطورت بطريقة غير مرغوب فيها وغير متوقعة ففى الوقت الذى بدأت فيه الحملة الصليبية الأولى تأخذ طريقها الى الشرق بسرعة كان الامبراطور الكسيوس يعد نفسه لحملة عسكرية الى آسيا الصغرى وبعد مرور خمسة عشر عاما قضاها امبراطور الروم فى صراعات مع جبهات معادية مختلفة وجد نفسه أمام خطر جديد لم يحسب حسابه(٦٦) •

ولم تلبث أن تطورت الأحداث بسرعة ووصـل العديد من أمراء الغرب الى القسطنطينية فما كان من الامبراطور الكسيوس الا أن جعلهم يقسمون له يمين الولاء والطاعة وتم بين الجانبين اتفاق ١٠٩٧ م تعهد الأمراء الصليبيون بمقتضاه " أن يعيدوا للامبراطور كل ما استولوا عليه من مدن كانت تتبع فيما مضى الامبراطورية البيزنطية » ووعدهم الامبراطور فى مقابل ذلك بذل ما يحتاجون اليه من مؤن ومعدات عسكرية وان يتولى بنفسه قيادتهم مع كل قواته • ولقد وافق جميع أمراء الصليبيين على ذلك الاتفاق فيما عدا ريموند التولوزى(٦٧) •

وقد نفذ الصليبيون بالفعل اتفاقهم مع امبراطور الروم ، فور استيلائهم على نيقية فى يونية ١٠٩٧ م سلموها للامبراطور ، لكن ما ان استولى الصليبيون على انطاكيـة فى يونيه ١٠٩٨ م حتى انتهت علاقات الود والتآلف بين الصليبيين والروم وبدأت تظهر المنافسـات الدفينـة بين أمراء الصليبيين انفسهم(٦٨) • وبمعنى آخر كان استيلاء الصليبيين على انطاكيـة ١٠٩٨ م " مفرقـا للطرق »(٦٩) سواء بالنسبة للعلاقات بين دولة الروم والصليبيين أو بين الصليبيين أنفسهم •

وهنا يتبادر للذهن سؤال عن حقيقة موقف دولة الروم من مصر وشواطئها آنذاك ؟ خصوصا بعد ان لمسنا مدى حرص دوله الروم باستمرار على عدم التفريط فى ممصر •

هنا يشير (رنسيمان) الى أن الامبراطور الكسيوس كومنين نصح الصليبيين أثناء تواجدهم بالقسطنطينية بالوصـول الى شىء من التفاهم مع الفاطميين فى مصر(٧٠) • وبالفعل ارسلت سـفارة صليبية لهذا الغرض من نيقية(٧١) •

وقبل أن نسترسل فى تتبع تلك السفارة ونتائجها نود أن نتوقف قليلا لنتعرف عن قرب على هدف الكسيوس كومنين الحقيقى من وراء نصيحته تلك • وهنا لن نجد تفسيرا أصدق مما دونته ابنته الأميرة المؤرخة أنا كومنينا نفسها عندما قالت « أنه عندما كان يتصارع عدوان للروم بعضهما مع بعض كان من الضرورى أن يساعد الامبراطور ــ والدها ــ الأضعف ، وليس ذلك بهدف أن تزداد قوته ، لكن لكى يتغلب على خصمه الآخر ، ثم بعد ذلك يستطيع الامبراطور أن ينتزع البلد من المنتصر ويجعلها ضمن ممتلكاته ، ويتلو ذلك أن يأخذ بالتدريج بلدا بعد آخر • وهكذا يستطيع الامبراطور أن يوسع رقعة الامبراطورية الرومانية التى أصبحت محدودة جدا وخصوصا بعد أن زادت قوة سيف الأتراك زيادة ملحوظة »(٧٢) •

والواقع ان ذلك كان الهدف البعيد الذى رمى اليه الكسيوس من وراء نصيحته تلك للصليبيين ان صح تسليمنا بها • وعلى ذلك يتحالف الصليبيون والفاطميون ويقضى الحليفان على الأتراك السلاجقة عندئذ تسنح الفرصة لألكسيوس فيسهل عليه استعادة ممتلكات الروم من أيدى السلاجقة ، ثم بعد ذلك يأتى دور الفاطميين بعد أن تزداد قوته وسطوته • والراجح أن ذلك كان السبب فى عدم وجود أى احتكاكات رومية مصرية فى ذلك الوقت •

بل أن المصادر والمراجع المختلفة تسهب فى الكلام عن مشروع التحالف الفاطمى الصليبى(٧٣) • فى ذلك الوقت والذى يعتبر ــ فى رأينا ــ رد الفعل الطبيعى لتوصية الكسيوس والسفارة الصليبية الى مصر ، رغم اشارة رنسيمان الى أن الصليبيين لم يأخذوا بنصيحة الامبراطور(٧٤) •

وقد فصل لنا وليم الصوري الحديث عن ملابسات ذلك التحالف بصورة توضح مدى جهل الفاطميين فى مصر بمغزى الحركة الصليبية آنذاك • حيث ذكر فى روايته « أن المصريين كانوا ينظرون نظرة شك الى أى تقدم يحرزه (الفرس والأتراك)(٧٥) ، ولقد سر (أمير مصر)(٧٦) سرورا بالغا لسماعه أخبار فقدان قلج أرسلان السلجوقي لنيقية ولحصار المسيحيين أنطاكية • وعندما طال حصارها وخشى من اخفاق أهلنا أرسل مبعوثين من قبله ليرجو القادة أن يستمروا فى الحصار وأكد للمسحيين أن السلطان(٧٧) سيمدهم بالتأييد العسكرى والمؤن ، وكان عليهم أيضا أن يكسبوا ود القادة وأن يوقعوا معهم معاهدة صداقة » • ثم يؤكد وليم الصورى أن المبعوثين المصريين « قوبلوا بحفاوة واحترام من قادة جيشنا »(٧٨) •

وكانت أهم النقاط التى دارت حولها المفاوضات الفاطمية الصليبية عندئذ هى أن تكون أنطاكية والمنطقة الشمالية من بلاد الشام للصليبيين ، وتكون بيت المقدس والأراضى المقدسة فى جنوب بلاد الشام للفاطميين(٧٩) •

استمع الصليبيون الى المقترحات الخاصة بالتحالف الصليبى الفاطمي بسرور(٨٠) واستقبلوا سفراء الفاطميين بمودة(٨١) • وكيف لا يفرحون وهذا غاية ما كانوا يتمنونه ، حيث يكفل لهم ذلك التحالف التخلص من نصف الجبهة الاسلامية آنذاك •

وبعد عدة أسابيع عاد المبعوثون الفاطميون الى مصر محملين بالهدايا ومصحوبين بسفارة صليبية صغيرة(٨٢) ، للتفاوض مع أولى الأمر فى مصر(٨٣) •

ولكن الأفضل لم يلبث أن أرسل جيشا استولى على بيت المقدس ١٠٩٨ م ويقال ان ذلك حدث أثناء وجود السفارة المصرية

فى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية(٨٤) • بينما يشير راى آخر الى أن ذلك تم أثناء وجود السفارة الصليبية التى جاءت بعد ذلك الى مصر لتأكيد التحالف الصليبى الفاطمى(٨٥) •

وثمــة رأى يذكر أن الوزير الفــاطمى الأفضــــل نظر الى الصليبيين على أنهم « جنود مرتزقة لامبراطور الروم »(٨٦) • وعليه دخل معهم فى مفاوضات للتحالف ضد السلاجقة السنيين أعداء الفاطميين • وهــذا يوضح لنا أنه حدث فى ذلك الوقت تقارب بين كل من أولى الأمر فى مصر وامبراطور الروم ، وممــا يعضـــد ذلك الرأى أن ثمــة اتفاقا سريا تم بين امبراطور الروم والفــاطميين فى مصر • وقد شاء سوء الحظ أن تقع رســالة بهذا المعنى موجهة من الامبراطور الى الوزير الأفضل فى أيدى الصليبيين عقب موقعة عسقلان مباشرة(٨٧) •

والذى نود أن نبرزه هنا هو أن دولة الروم لم تقم قبيل قدوم الحملة الصليبية الأولى الى الشرق وفى أثنــاء تواجدها به بأى هجمات على شــواطىء مصر لانشغالها بالقضــية الصليبية التى جــدت على مسرح بلاد الشــــام • ومنذ ذلك الوقت بدأ الصراع الصليبى الرومى على الأرض المقدســة يحل محل أى تطلعات أخرى لدولة الروم •

هوامش الفصل الثالث

(١) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 227. Cam Med. Hist., V. IV. Part 1, P. 713. M. (Canard), Cam, Med. Hist. V. IV, Part, 1, P. 110 (The Late H. Grégoire)

ويذكر المرجع الأخير أن ذلك كان فى يونية ، يولية من السنة .

(٢) قدم يزيد الى مصر « يوم الاثنين لعشر بقين من رجب » ٢٤٢ هـ (الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٠٢) .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٣٠٨ .

(٥) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٠٣ .

أما أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٣٠٨ — ٣٠٩ . فيذكر انه عاد الى مصر فبلغه نزول الروم الى دمياط مرة ثانيـة فخرج اليهم فلم يلقهم . فأقام بالثغر مدة ثم عاد الى مصر .

(٦) زامبور : معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، ص ١٤٣ ، د. سيدة كاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ، ص ١٧ .

(٧) Cam. Hist, of Islam, V, 1, P. 184.

(٨) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٩١ . ويضيف نفس المرجع أن ابن طولون جدد بناء دور الصناعة التى تصنع بها السفن ودب النشاط فى القواعد البحرية فى دمياط والاسكندرية .

(٩) د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩٢ .

(١٠) المرجع السابق نفس الصفحة .

(١١) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 578.

(١٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ٣٢٨ . كان ارسال حاكم منطقة الثغور العربيـة الذى كان قد وقع أسيرا فى أيدى الروم دليلا على رغبة الامبراطور فى كسب ود أحمد بن طولون (د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩٢) .

(١٣) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 236.

(١٤) G. Ostrogorsky : Ibid., P. 600.

(١٥) أنظر كتاب المؤلفة : الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى ، ص ١٧١ – ١٧٨ .

(١٦) G. Ostrogorsky : Op. Cit., PP. 237 — 238.

هنا يضيف استروجورسكى : « أن روما نفسها التى كانت مهددة بواسطة الهجمات العربيـة المستمرة على السواحل الايطالية ، اضطرت لطلب النجدة من الامبراطور البيزنطى . وهـذه نقطة جديرة بأن يلفت اليها النظر عن الموقف المتسامح الذى اتخذته البابوية فى الشئون الدينية آنذاك تجاه البيزنطيين » .

(١٧) Gam. Hist of Islam. V.I. P. 181.

(١٨) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٤٦ . فقد ذكر أن هرون قتل ليلة الأحد لاحدى عشرة ليلة بقيت من صفر سنة اثنتين وتسعين ومائتين » وهنا أخطـأ الشيخ عبد الله الشرقاوى فى كتابه تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسـلاطين ، جـ ١ ، ص ١٢٧ حين ذكر أن هرون توفى فى سنة ٢٩١ هـ .

(١٩) نقولا يوسف : تاريخ دمياط منذ أقدم العصور ، ص ١٠٩ .

(٢٠) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ .

(٢١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٢ .

(٢٢) د. سيده كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٩٣ – ٩٤ .

(٢٢) د. سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٩٣ – ٩٤ .

(٢٤) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 276.

(٢٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ ، زامبور : معجم الانساب ص ١٤٤ . أما الشيخ عبد الله الشرقاوى : تحفة الناظرين ... ، جـ ١ ، ص ١٢٩ فقد أخطـأ فى تحديد سنة وفـاة كافور حين ذكر أنها كانت سنة ٣٤٩ هـ والصحيح ان هـذا التاريخ هو تاريخ وفاة أونوجور بن الاخشيد الذى قيل أن

كافور دس له السم فمات (د. سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ١٣٥) .

(٢٦) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠١ . هنا تذكر الدكتورة سعاد ماهر أن ذلك كان فى العاشر من يونية ٩٥٨ م ولكن الراجع أنها ٩٦٨ م ، بمقابلتها بالتاريخ الهجرى الذى ذكره المقريزى وبالاستعانة بزامبور : معجم الانساب ص ٥٢٥ ـ ٥٢٦ .

(٢٧) زامبور : معجم الانساب ... ، ص ١٤٤ .

(٢٨) د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩٤ ـ ٩٦ .

(٢٩) زامبور : معجم الانساب ... ، ص ١٤٤ .

(٣٠) د. حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٧ . اذا كان الدكتور حسن ابراهيم يذكر هنا أن الحملة كانت قد أرسلت بالفعل الا أن الدكتورة سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩٨ تذكر أنها كانت فى مرحلة الاعداد ولو انها أخطأت فى ذكر السنة حيث قالت أنها ٩٩٦ م وهى تقابل بذلك ٣٨٦ هـ ، ولكن الراجح أنها ٣٧٧ هـ لأن الروم بعثوا بعدها فى طلب الصلح من العزيز . وتفصل لنا الدكتورة سعاد ماهر الحديث عن احتراق تلك الحملة اثناء اعدادها بقولها : « ان الروم هالهم قوة الأسطول المصرى فى العصر الفاطمى فلجأوا الى بعض أساليب الغدر والخيانة لعرقلة استعدادات الفاطميين البحرية ، فقد حدث سنة ٩٩٦ م أن أمر الخليفة العزيز بالله باعداد أسطول عظيم فى دار الصناعة بالمقس للهجوم على قواعد الروم المجاورة للشام ، ولكن ما كادت دار الصناعة تفرغ من بناء السفن حتى نشبت فيها النار وأحرقت معظم قطع الأسطول واتهم الخليفة الفاطمى تجار الروم وعملاءهم من مدينة أمالفى بتدبير هذا الحادث واعترف الروم بجريمتهم وغادروا البلاد مطرودين » (د. سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٩٨ عن (Bréhier : Vie et Mort de Byzance

(٣١) Cam. Med. Hist. V. IV., Part, 1. P. 724.

د. الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، طبعة ١٩٦٥ ، ص ٦١١ .

د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩٨ ، د. حسن ابراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٧ ، د. على ابراهيم حسن : مصر فى العصور

الوسطى ، ص ٢٨٢ . ويذكر المرجعان الأخيران أن أهم شروط ذلك الصلح كانت : اطلاق سراح أسرى المسلمين ، الدعاء للخليفة الفاطمى بجامع القسطنطينية فى خطبة الجمعة ، وأن تكون هـذه الهدنة بين الفريقين سبع سنين . أما أسد رستم ، جـ ٢ ، ص ٥٤ ـ ٥٥ فيذكر أن مسجد القسطنطينية كان قد أقيم منذ القرن الثامن (عن Slumberger, Dolger)

(٣٢) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 578.

(٣٣) بعد هزيمة الامبراطور باسل فى بلاد البلغار بدأت الارستقراطية البيزنطية تتشجع على الثورة فتجهز سكليروس لغزو آسيا وكان يدعى الملك لنفسه فى حين أن برداس فوكاس لم يكن أقل طموحا من سكليروس ولم ينس ما نزل به فى السنوات القليلة الماضية من الاذلال والمهانة بأن عزله عن دمستقية الشرق التى يتولى صاحبها القيادة العامة للجيوش البيزنطية فى الشرق . يضاف الى ذلك أن بارداس اتخذ عمه الامبراطور نقفور فوقاس مثله الأعلى ثم أعلن نفسه امبراطورا فى أغسطس سنة ٩٨٧ م / ٣٧٧ هـ . وهكذا أصبح هناك امبراطوران فى آسيا برداس سكليروس وبرداس فوقاس (يسميهم أسد رستم البرداسيين) . وامبراطوران بالقسطنطينية (باسل وقنسطنطين) وخشى الأولان اذا تطاحنا أفاد من ذلك الآخران فتحالفا واتفقا ضد عدوهما المشترك . وعلى ذلك بدأ باسل يستعين بالجند المرتزقة من الروس ليوازن بذلك الانشقاق الداخلى فى امبراطوريته بينه وبين كبار القواد . وأدت تلك الظروف مجتمعة الى خوف باسل من الدخول فى حرب مكشوفة مع الفاطميين فسعى لعقد هدنة معهم سنة ٣٧٧ هـ (د. الباز العرينى : الدولة البيزنطية طبعة ١٩٦٥ ، ص ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ طبعة ١٩٦٣ ، ص ٦٨ ، د. أسد رستم : الروم ، جـ ٢ ، ص ٥٤) .

(٣٤) Grousset: L'Empire du Levant, P. 123.

ولقد سيطر الحمدانيون على حلب فى الفترة ما بين سيف الدولة أبى الحسن على ٣٣٣ هـ الى اخضاع الفاطميين لمرتضى الدولة أبى نصر منصور بن لؤلؤ ٤٠٦ هـ (زامبور : معجم الانساب ... ، ص ٢٠١) استنجد سعد الدولة الحمدانى (٣٥٦ م ـ ٣٨١ هـ) بالروم ضد الفاطميين فقدم اليه جيش رومى بقيادة ميخائيل بورتزيه ، لكن لحقت بهم الهزيمة وأسر قائد الروم (Grousset : Op. Cit., P. 123) وبعد وفاة سعد الدولة حاول الفاطميون الاستفادة من صغر سن ابنه سعيد الدولة (٣٨١ ـ ٣٩٢ هـ)

للاستيلاء على حلب فاستنجد سعيد الدولة بالامبراطور باسل الثانى وكتب اليه « لتات مسرعا يا باسل ، ان الصوت الوحيد أو الاشاعة بمجيئك سوف تجبر المصريين على فك الحصار » فتقدم باسل بنفسه ، وكان قد فرغ من حرب البلغار ، ووصل فى ربيع الثانى ٣٨٥ هـ فى سرعة مذهلة فقدم اليه اميرها فروض الولاء والطاعة ، وتقدم باسل فاستولى على شيزر وحمص ورفنيه من الحاميات الفاطمية .

د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٦٨ ، (Grousset : Ibid., P. 124) عندئذ أفاق الأمير الحمدانى من الصدمة وأدرك الخليفة الفاطمى خطأه فى استمرار النزاع بينهما فقرر عقد الصلح ٣٨٥ هـ ثم رأى الخليفة العزيز الخروج بنفسه لقتال الروم حتى اذا ما وصل الى بلبيس توفى فى رمضان ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م (ابن القلانسى . ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤ ، ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٥٠ ، د. على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٣ .

Cam. Med. Hist. V. IV, Part 1. P. 724).

(٣٥) Lane-Poole, St. : A Hist. of Egypt... V.I. P. 159, Cam. Med. Hist. V. V, Part, 1. P. 725. Grousset : L'Empire du Levant, P. 124.

(٣٦) د. الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٦٧٤ (طبعة ١٩٦٥).

(٣٧) د. الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ٦٧٦ ، أسد رستم : الروم ، جـ ٢ ، ص ٥٦ ــ ٥٧ .

Grousset : L'Empire... P. 125, Cam. Med. Hist. V. IV. Part, 1. PP. 724 — 725.

(٣٨) أسد رستم : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٧ .

(٣٩) د. الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٦٧٧ (طبعة ١٩٦٥) ، Cam. Med. Hist. V. IV. Part. 1. P. 725.

(٤٠) د. أسد رستم : الروم ، جـ ٢ ، ص ٥٧ ، د. على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٣ ــ ٢٨٤ ، د. حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٨ .

(٤١) William of Tyre : A History of Deeds done beyond the See. V. I. PP. 66 — 67.

وقد فصل وليم الصورى تلك السياسة الشاذة للحاكم بأمر الله وعلى رأسها « نبش كنيسة السيد المسيح » أى كنيسة القيامة بيت المقدس : ولو أننا نرجح أن ذلك فيه مبالغة شديدة من جانب وليم كعهده دائما مع المسلمين عامة فكيف لا يكون هذا رأيه فى الحاكم بأمر الله .

(٤٢) زامباور : معجم الانساب والأسرات الحاكمة ... ، ص ١٤٤ .

(٤٣) د. على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٤ . أرسلت تقفور بطريرك بيت المقدس سفيرا الى الامبراطور ليبلغه أمر الاجراءات التى اتخذت فى القاهرة لصالح النصارى وتجديد بناء الكنائس .

وهنا أخطأ د. أسد رستم : الروم ، جـ ٢ ، ص ٦٥ فى نقطتين حين ذكر أن التى كانت تقوم بالوصاية فى ذلك الوقت كانت أرملة الظاهر ، والحقيقة أنها عمته ست الملك كما ذكر كذلك أن الذى كان قاصرا هو المنتصر ، والحقيقة أنه الظاهر .

(٤٤) Lane-Poole. St. : A Hist. of Egypt... V. 1, P. 136.

تقرر فيها الخطبة للظاهر ببلاد الروم وافتتاح الجامع فى القسطنطينية وتزويده بالحصر والقناديل ومده بمؤذن ، وعند ذلك اذن الظاهر بفتح كنيسة القيامة التى بالقدس (المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٥ ، د. على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٤ ، د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٨)

(٤٥) William of Tyre : Op. Cit., V.I, P 69

(٤٦) زامبور : معجم الانساب ... ، ص ١٤٥ .

(٤٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، دار صادر وبيروت ١٩٦٦ ، ص ٤٦٠ . وقد تم الاتفاق بينهما على أن يطلق الروم خمسة آلاف أسير وأن يعمروا كنيسة القيامة التى كانت قد خربت أيام الخليفة الحاكم بأمر الله . فأطلق امبراطور الروم الأسرى وأرسل من عمر الكنيسة وأنفق عليها أموالا كثيرة ، كذلك أصبح للامبراطور حق اختبار بطريرك بيت المقدس « ولو أن ذلك لا يفهم منه أن هناك أية حماية فرضت من الجانب البيزنطى على الأماكن المقدسة » . (Cam. Med. Hist. V. IV, Part 1, P. 726.

(٤٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ .

(٤٩) Cam. Med. Hist. V. IV. Part, 1. P. 726.

(٥٠) هنا يذكر عبد الله الشرقاوى فى كتابه تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين ، جـ ١ ، ص ١٣٩ أنه حدث فى عهد المستنصر (غلاء عظيم لم يعهد مثله الا ما كان فى زمن يوسف عليه السلام فمكث سبع سنين حتى اكل الناس بعضهم بعضا وبيع الرغيف الواحد بخمسين دينارا وخرجت امراة بمد جوهر وطلبت عوضه مدبر فلم يوجد من يأخذه) .

(٥١) Cam. Med. Hist. V. IV. Part, 1. P. 726.

د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٩ ، د. على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٤ .

(٥٢) تحقيق الدكتور حسن نصار : النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب فى حلى المغرب ، مطبعة دار الكتب ١٩٧٠ ، ص ٧٩ .. ويضيف نفس المرجع ، ص ٧٨ « أن المستنصر لقى شدائد وأهوالا وانفتقت عليه الفتوق بديار مصر فأخرج فيها أمواله وذخائره الى أن بقى لا يملك غير سجادته التى يجلس عليها وهو مع ذلك صابر غير خاشع » .

(٥٣) العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان جزء ١٥ مجلد ١ ، ص ٩٨ . مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ .

(٥٤) اسد رستم : الروم ، جـ ٢ ، ص ٦٩ . عن
(Dolger, Regesten)

(٥٥) د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٩ ، د. على ابراهيم حسن ، مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٤ .

(٥٦) Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1, P. 726.

د. اسد رستم : الروم ، جـ ٢ ، ص ٧٨ عن Wustenfeld

وقد نسيت ثيودورا أن مصر كانت يوما ما مخزن قمح القسطنطينية .

(٥٧) د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٩ ، د. على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٥ . يذكر عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ٢٣٣ « أن أبا عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى ، الفقيه المحدث المؤرخ ، ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وتوفى سنة ٤٥٤ هـ وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى ، وتولى القضاء

وغيره من مهام الدولة فى عهد المستنصر بالله وأوفده المستنصر الى ثيودورا امبراطورة القسطنطينية سنة ٤٤٧ هـ » .

(٥٨) ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٧ ،
Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1, P. 726.

(٥٩) د. حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٥٦ .

(٦٠) د. حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(٦١) G. Ostrogorsky : Op. Cti., P. 344.

ابن الأثير : الكامل ، جـ ١ ، ص ٦٥ (دار صادر وبيروت ١٩٦٦ — ١٣٨٦ هـ) والب أرسلان حكم من ٤٥٥ — ٤٦٥ هـ (زامبور : معجم الانساب ... ، ص ٣٣٣) .

(٦٢) د. حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ١٩٠ — ١٩١ . عن Vryonis .

(٦٣) كان روبرت جويسكارد زعيم النورمان قد انتهى فى ١٠٧١ م — وهى التى سبق أن ذكرنا أنه حدثت فيها موقعة مانزيكرت — من الاستيلاء على مدينة بارى وهو العمل الذى جعله سيد جنوب ايطاليا ومن هذا المركز فى أبوليا استطاع روبرت جويسكارد تحقيق انتصارات سريعة بغزوه ما تبقى من أقاليم صغيرة للدولة البيزنطية فى داخل ايطاليا وسهلت انتصاراته فى جنوب ايطاليا استرداد صقلية من المسلمين . واصبح جويسكارد دوقا لأبوليا واعتبر نفسه خليفة شرعيا للأباطرة البيزنطيين ، وقد ذهبت آمال جويسكارد الى أبعد من اراضى جنوب ايطاليا فقد انتهز فرصة ضعف الدولة البيزنطية من الداخل ومشاكلها الخطرة فى الخارج وتطلع الى تحقيق حلمه فى الاستيلاء على التاج الامبراطورى البيزنطى . د. حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(٦٤) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 358.

(٦٥) G. Ostrogorsdky : Ibid., P. 360.

(٦٦) G. Ostrogorsky : Ibid ., PP. 361 — 363.

(٦٧) G. Ostrogorsky : Ibid., P. 363.

كان أمراء الصليبيين الذين وافقوا على اتفاقية ١٠٩٧ م هم جودفرى

برايون دوق اللورين وهيو أف فرماندوا شقيق ملك فرنســا وروبرت النورماندى شــقيق ملك انجلترا وروبرت أف فلاندرز وبوهيموند النورمانى ابن روبرت جويسكارد .

(٦٨) G. Ostrogorsky : Ibid., P. 364.

(٦٩) د. حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ٢١١ .

(٧٠) Runciman : Op. Cit., V. 1, P. 229.

(٧١) Runciman : Ibid., V. 1, P. 230.

(٧٢) Anna Comnen : The Alexiad ... P. 158.

(٧٣) William of Tyre : Op. Cit., V.I. P. 224, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, PP. 219 — 220. Runciman : Op. Cit., V. I, P. 229, Stevenson : The Crusaders inthe East, P. 26.

هنا يذكر الأستاذ الدكتور سعيد عاشور نقلا عن
Riant : Inventaire des Lettres des Croisades.

أن الصــليبين لم يتســوا نصيحة الامبراطور البيزنطى مما جعلهم يرحبون بالسفارة التى أرسلها اليهم الأفضل فى أوائل ١٠٩٨ م أمام أنطاكية .

(٧٤) Runciman :Ibid., V. I, P. 229.

(٧٥) يقصد بالطبع الخلافة العباسية والسلاجقة .

(٧٦) يعنى هنا الوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمــالى ، الحاكم الفعلى لمصر آنذاك من ٤٨٧ — ٥١٥ هـ (زامبور : معجم الانساب ... ص ١٤٩) ١٠٩٤ — ١١٢١ م والذى ظل يحكم مصر طوال عهد الخليفة المستعلى والعشرين سنة الأولى من حكم الخليفة الآمر (د. عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ، ص ١٩٧) .

(٧٧) يقصد الخليفة الفاطمى .

(٧٨) William of Tyre : Op. Cit., V. I, PP. 223 — 224.

(٧٩) J. Prawer : Op. Cit., T.I, P. 220, Runciman . Op. Cit., V.I. P. 229.

د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٩٧ .

(٨٠) J. Prawwer : Ibid., T. I, P. 220.

(٨١) Runciman : Op. Cit., V. I, P. 229.

(٨٢) Runciman : Ibid., V. I, P. 229.

(٨٣) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 220.

(٨٤) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٩٨ .

(٨٥) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 220.

(٨٦) Runciman : Op. Cit., V. 1, P. 229.

(٨٧) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢١٧ ، عن
(Chalandon : Alsexis Comnene)

البـــالب الثـــالث

التحالف بين الصليبيين والروم ضد مصر

الفصل الأول : الصليبيون وضرورة الاستيلاء على مصر ٠

الفصل الثاني : الدور الايجابى للتحالف بين الصليبيين والروم ٠

الفصل الثالث : الهجوم الصليبى الرومي على دميـاط ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م ٠

الفصــــل الأول

الصليبيون وضرورة الاستيلاء على مصر

تجددت هجمات نور الدين محمود(١) على ممتلكات الصليبيين فى بلاد الشام بعد فشل الحملة الصليبية الثانيــة ، ففتح ما تبقى فى يد الصليبيين من امارة الرها ، واستولى على مدن عديدة تقع فى شرق امارة أنطاكية . وقد حاول بلدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٤ ـ ١١٦٢ م / ٥٣٩ ـ ٥٥٨ هـ) أن يوقف تلك القلاقل والاضطرابات بتجديد التحالف القديم مع دمشق من جهة وبازدياد التقرب من مانويل امبراطور الروم(٢) (١١٤٣ ـ ١١٨٠ م / ٥٣٨ ـ ٥٧٦ هـ) منجهــة أخرى . وهو ما أشار اليه (أبو شامة) بقوله : « أن المصالحة بين ملك الفرنج وبين ملك الروم تقررت والمهادنة انعقدت » وذلك فى ٥٥٤ هـ(٣) / ١١٥٩ م .

بل انه لمن المرجــح أيضــا أن العــلاقات المصريــة الصليبية والمصرية الرومية كانت مستتبة الى حد ما فى ذلك الوقت أيضــا . فقد ذكر (ابن ميسر) أنه فى ٥٥٢ هـ / ١١٥٨ م « وصــل رسول الفرنج يطلب الصلح ورسول من صاحب قسطنطينية يطلب مراكب نجدة له على صاحب صقلية » لذلك فعندما خرجت القوات المصرية فى البر والبحر فى تلك السنة عادوا بكثير من الأسرى منهم شقيق

صاحب جزيرة قبرص فأكرمه الصالح ـ طلائع بن رزيك وزير مصر آنذاك ـ وسيره الى امبراطور الروم(٤) ٠

ولقد ظل الاتصال مستمرا بين مملكة بيت المقدس ودولة الروم ، أثناء حكم بلدوين الثالث وعمورى الأول (١١٦٢ ـ ١١٧٤ م(٥) / ٥٥٨ ـ ٥٧٠ هـ) ٠ بل أن علاقات الروم مع الصليبيين ظلت حسنة طيبة حتى نهاية عهد مانويل الذى ظل « محافظا على احترامه لأمراء الفرنجة مكبرا فيهم مثلهم العليا فى الفروسية طوال أيامه »(٦) ٠ وقد تزوج كل من بلدوين وعمورى من بيت كومنين ٠٠ كما تزوج مانويل من ماريا أميرة أنطاكية وابنه ريموند(٧) ٠

ولم يلبث بلدوين الثالث أن هدد بغزو مصر حوالى ١١٦٠ م(٨) / ٥٥٦ هـ أو ١١٦١ م(٩) / ٥٥٧ هـ منتهزا فرصة الفوضى التى عمتها عقب مقتل الخليفة الفائز ٥٥٥ هـ(١٠)/ ١١٦٠ م ، ولكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن محاولته مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار(١١) ٠

وقد أفاد بلدوين الثالث من حملته تلك على مصر بأن أحيط علما بفكرة حقيقية عن مدى ضعفها وأيضا بمدى أهميتها الاستراتيجية ٠ وقد جهز نفسه لعملية سياسية وعسكرية لاسترجاع غزة وأخذ عسقلان ٠ وقد أتبعت تلك السياسة خلال العشر السنوات التالية أى خلال فترة حكم أخيه وخليفته عمورى الأول(١٢) ٠ والواقع أن مصر بدأت تحتل مكان الصدارة فى خطط الفرنجة منذ عهد جودفرى بوايون وبلدوين الأول(١٣) ٠ « ولم يتركوا التفكير فى مشروع التحالف البيزنطى ، بالرغم من خيبة الآمال المتراكمة فيه »(١٤) ٠

وبوفاة بلدوين الثالث واعتلاء أخيه عمورى عرش مملكة بيت المقدس ، وبالتحديد فى مستهل حكمه ، تحجج بعدم وفاء الفاطميين بوعدهم بدفع جزية سنوية ، وقام بمغامرته الأولى فغزاها فى سبتمبر ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م وعبر برزخ السويس وحاصر بلبيس ولكن ضرغام استغل فرصة فيضان النيل وأجبر عمورى الأول على الانسحاب الى فلسطين(١٥) • بل قيل أن المصريين حفروا الخنادق وأجبروه على الانسحاب(١٦) •

ومع أن عمورى الأول عاد الى فلسطين فاشلا ، فان تلك الحملة الاستطلاعية لم تخل من فائدة بالنسبة له وللصليبيين ، ويكفى أنها أطلعتهم عمليا على مدى ضعف مصر وعظم ثروتها وسهولة الاستيلاء عليها « وهذا ما كتبه عمورى الى لويس السابع ملك فرنسا »(١٧) • مما جعل عمورى يستعد لغزوة كبرى تمكنه من وضع يده على مصر • ولقد كان أخطر ما يخشاه عمورى فى رأى (ستون) أن تقع مصر فى قبضة النفوذ السورى السنى الاسلامى، وبذلك تطوق الامارات اللاتينية هذا بالاضافة الى أهمية مصر وميناءها العظيم ، الاسكندرية ولقد كان ذلك هو سبب اصرار عمورى فيما بعد على الاندفاع جنوبا(١٨) •

ومن ناحية أخرى فان جرأة عمورى فى مهاجمة مصر أثارت مخاوف نور الدين محمود الذى كان قد استولى على دمشق ١١٥٤ م / ٥٤٩ هـ وأخذ يتطلع الى الاستيلاء على مصر لاتمام الجبهة الاسلامية المتحدة من ناحية واحكام حصار مملكة بيت المقدس الصليبية من ناحيتى الشمال والجنوب من ناحية أخرى(١٩) •

هنا تدخل القدر ليسرع بتحقيق رغبات كل من نور الدين وعمورى فى مصر • فقد خرج على وزير مصر المسمى شاور

السعدى(٢٠) ، رجل يقال له ضرغام وتغلب عليه وقتل ولده وتولى الوزارة مكانه « كان يروم منصبه ومكانه فجمع له جموعا كثيرة لم يكن له بها قبل وغلب عليه وأخرجه من القاهرة » . وقتل ولده طيا وولى الوزارة(٢١) . وخطورة ذلك الوضع كانت تكمن فى أن المصريين كانوا يخضعون للأقوى وأن « قوتهم كانت بعسكر وزيرهم وهو الملقب عندهم بالسلطان »(٢٢) .

لذلك عندما قهر شاور ـ امير الجيوش أبو شجاع ـ وأخرج من القاهرة اتجه الى بلاد الشام وقصد نور الدين بن زنكى فى ربيع الأول ٥٥٨ هـ مستصرخا ومستنصرا على ضرغام بن سوار الملقب بالمنصور(٢٣) فطلب نور الدين من أسد الدين شيركوه الخروج الى مصر لأنه لم ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع منه(٢٤) . وذلك « قضاء لحق الوافد المستصرخ وحفظا للبلاد وتطلعا على أحوالها »(٢٥) الى جانب رغبته الملحة فى « الاستيلاء على اقليم اشتهر بالهرطقة (المذهب الشيعى) اعادته الى المذهب الصحيح ، وهو المذهب السنى واتمام تطويق مملكة بيت المقدس »(٢٦) .

فاستجاب أسد الدين بسرعة لطلب نور الدين ، فقد « كان هوى أسد الدين فى ذلك وكان عنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالى معه بمخاوفه »(٢٧) . وقد قيل أن شاور شرط لنور الدين أنه ان سير معه قواته ليقوى بهم على خصمه ضرغام وينتزع الوزارة منه « أن يكون لنور الدين حصته من البلاد ويكون شاور متصرفا تحت أمره ونهيه واختياره »(٢٨) وبمعنى آخر أطمع شاور نور الدين فى البلاد وقال له : « أكون نائبك بها وأقنع بما تعين لى من الضياع والباقى لك »(٢٩) .

ولا عبرة هنا بما ذكره ميخائيل السريانى من أن سبب استنجاد بعض المصريين بنور الدين هو تشككهم فى نوايا الملك عمورى الذى كان قد قدم لأخذ الضريبة السنوية(٣٠) .

ويبدو أن نور الدين كان مترددا فى بادىء الأمر فى ارسال حملة الى مصر ، وربما يرجع ذلك الى سببين : أولهما فى رأى برويه « أن الذى يطلب النجدة أو الدعم السورى هو شاور وحزبة وأن ذلك يجعل من الممكن أن يصبح نور الدين سيدا لبلد شيعى(٣١) . والثانى هو الخوف من أن يتورط فى ذلك المشروع وهو لايزال أمام أعداء أقوياء فى الشام(٣٢) . فكان يقدم فى ذلك رجلا ويؤخر أخرى « تارة تحمله رعاية قصد شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه الا أن يوغلوا فى البر فيتعرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج أيضا »(٣٣) . والدليل على ذلك أنه « استخار الله سبحانه فى ذلك » ثم خرج بنفسه بصحبة أسد الدين « الى طرف بلاد الاسلام مما يلى بلد الافرنج فى بقية العسكر ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين »(٣٤) . وصحب أسد الدين معه ابن أخيه صلاح الدين على كره منه(٣٥) . وكان ذلك فى جمادى الأولى ٥٥٩ هـ(٣٦) .

وثمة رأى لابن شداد يذكر فيه أنهم وصلوا الى مصر فى جمادى الآخرة ٥٥٨ هـ(٣٧) . والراجح أنه أخطأ فى ذكر السنة. وأنها سنة ٥٥٩ هـ(٣٨) ١١٦٤ م(٣٩) لاجماع المصادر والمراجع على ذلك ، بل أن (ستيفنسون Stevenson) « يعتبر سنة١١٦٤م نقطة تحول فى تاريخ تلك الفترة لأنها شهدت أولى خطوات الوحدة بين مسلمى مصر وسوريا »(٤٠) .

وفى الوقت الذى استنجد فيه شاور بنور الدين ، استنجد ضرغام بالصليبيين ، وتعهد لعمورى ، مقابل مساعدته ، أن يعقد

معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين(٤١) • والحقيقة أن عمورى وجد فى تلك الحرب « وسـيلة للافلات من مصـيدة نور الدين وازدياد الاتصـال المباشر المثمر بالتجارة الشرقية(٤٢) الا أن جيش القـائد الكردى المـاهر شيركوه وصـل قبل الجيش الصليبى رغم كبر سن أسد الدين(٤٣) •

وعند اقتراب أسد الدين من مصر خرج الى لقائه ناصر الدين أخو الضرغام بقوات مصر ، فلقيهم فانهزم ناصر الدين وعـاد الى القاهرة ، فلما وصل أسد الدين القاهرة خرج اليه ضرغام فقتل عند مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسـن بن على بن أبى طـالب(٤٤) • « وبذلك كانت مدة وزارة ضرغـام تسعة أشهر وعشرة أيام » وعاد شاور الى وزارته الثانيـة آخر جمادى الآخرة ٥٥٩ هـ(٤٥) / آخر مايو ١١٦٤ م(٤٦) •

عندئذ طلب أسد الدين من شاور أن يفى له بما تعهد به ، فتنكر له شـاور بل طلب منه الرجوع الى الشـام(٤٧) فامتنـع أسـد الدين وطلب منه ما وقـع الاسـتقرار عليـه فلم يجبـه شاور »(٤٨) • وأمام اصرار شاور على النكث بالعهود وعلى الغدر أرسل أسد الدين نوابه الى مدينة بلبيس فتسلموها وحكم اقليم الشرقية(٤٩) • وعندئذ خاف شاور من قوات الشام(٥٠) واستنجد بالفرنج(٥١) وخوفهم من نور الدين وأنه ان ملك مصر فلن ينعموا بالاستقرار(٥٢) •

والحقيقة أن الفرنج كانوا فى حالة خوف شديد عندما سمعوا بتوجه قوات نور الدين الى مصر فقد أيقنوا بالهلاك اذا اسـتولى عليها نور الدين ، لذلك فعندما وصلتهم رسل شاور تطلب المساعدة سروا بذلك وسارعوا بتلبية طلبه(٥٣) •

وهنا يؤكد (بربيه) ذلك القول بأن عمورى لم يتردد فى التدخل وأنه لبى رغبة شاور « كى يحطم الخطر الذى قد يطوق

الامارات المسيحية ، اذا وفق نور الدين فى تقوية وتعزيز مركزه فى وادى النيل »(٥٤) • وبذلك نجح شاور فى تأليبهم ضد أسد الدين بعد أن وعدهم باعطائهم مبلغا من المال(٥٥) وبمعنى آخر عقد معهم صلحا(٥٦) ووعدهم « بتأييد عسكرى ومساعدة مالية »(٥٧) •

عندئذ ساروا الى مصر • فوصلت تلك الأخبار الى نور الدين فما كان منه الا أن سار بقواته الى أطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير ، لكنهم لم يكترثوا لذلك لعلمهم « أن الخطر فى مقامهم اذا ملك أسد الدين مصر أشد من الخطر فى مسيرهم » لذلك ترك ملك بيت المقدس بعض قواته فى مملكته وسار بالقوات الباقية الى مصر ، مستعينا فى ذلك بجموع الصليبيين الكثيرة التى وفدت لزيارة بيت المقدس فى ذلك الوقت(٥٨) كي لا يستنزف دفاع المملكة(٥٩)•

كان أسد الدين فى ذلك الوقت ــ كما سبق القول ــ متحصنا فى مدينة بلبيس « معتمدا على مساعدات عرب كنانة »(٦٠) فهاجمته القوات المصرية بقيادة شاور والقوات الصليبية بقيادة عمورى(٦١) التى اتحدت لأول مرة(٦٢) وحاصروه ببلبيس عدة أشهر(٦٣) فاستبسل فى قتالهم رغم بساطة معداته وتحصيناته لكنهم لم ينالوا منه شيئا(٦٤) •

وثمة رأى هنا لابن أيبك يذكر فيه أن أسد الدين عندما رأى اتحاد الصليبيين والمصريين ضده ، واشتم رائحة الغدر من شاور، أرسل الى الملك عمورى وطلب منه الصلح على أن يعطيه ما بقى معهم من مال ، وأخبره أنه اذا رفض فسوف يستبسلون فى القتال ضدهم « فان تركت البغي ، وقنعت بما فى أيدينا من فضلات نفقاتنا نفذناها اليك •• وان أبيت فنحن والله ما يقتل الواحد منا حتى يقتل عدة منكم •• »(٦٥) •

لم تلبث أن وصلت الى مسـامع الصليبيين عندئذ أخبـار استيلاء نور الدين على حارم(٦٦) ، ثم توجه بعد ذلك الى بانياس لأخذها فساورهم الخوف فراسلوا أسد الدين فى الصلح وتسليم ما بيده من البلاد الى المصريين فوافق(٦٧) • ويقال أن سبب موافقته أنه « لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج فى الساحل »(٦٨) • وأن الأقوات قلت مع قواته(٦٩) و « علم عجزه عن مقاومة الفريقين فصـالحهم »(٧٠) وعـاد الى بلاد الشـام بعد أن « بذلوا له قطيعة »(٧١) ونحن نرجح أن قلة الأقوات مع شيركوه هى التى جعلته يوافق بسرعة على الصلح •

وجع شيركوه وكله رغبة فى العودة الى مصر ، « عاد منهـا وقد غرس فى قلبه الطمع فى البلاد وعرف أنها بلاد بغير رجـال ، تمشى الأمور فيها بمجرد الايهام بالمحال »(٧٢) • ولكنه انشغل مع نور الدين فى تدبير أمور بلاد الشام ولم ينس مطلقـا التفكير فى الرجوع الى مصر « أقام بالشـام مدبرا لأمره مفكرا فى كيفيـة الرجوع الى البلاد المصرية »(٧٣) •

ويرى (ستون) أن تلك الحملة التى كان يرجى من ورائها نتائج مختلفـة تماما للصليبيين ، « انتهت وهم فى مأزق بسبب الحكم المتفائل للملك »(٧٤) عمورى الأول ، اذا أخذنا فى اعتبارنا شدة الحاجة الى تقوية الحدود الشمالية فى مواجهة نور الدين •

هنا يشير (ستون وبروييه) أنه منذ ذلك الوقت أيضا بدأ نور الدين يشعر بالخوف من أى تدخل بيزنطى يحفظ توازن القوى فى شمال سـوريا(٧٥) وان ذلك كان سبب احجامه عن مهاجمـة أنطاكية نفسها(٧٦) •

وهكذا انتهت تلك الجولة وعاد الجميع وكلهم رغبة فى العودة ثانية الى مصر : فأسد الدين كانت فى قلبه « نار لا تنطفىء من فعل شاور »(٧٧) وكان تفكيره دائبا فى كيفية الرجوع الى مصر(٧٨) . وربما كان نور الدين نفسه مهيأ جدا فى ذلك الوقت لما يدور فى خلد شيركوه لأنه كان فى قلبه من شاور حزازة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالفرنج(٧٩) .

أما عمورى فكان يطمع فى العودة الى مصر لينعم بثرائها وبموقعها الاستراتيجى الممتاز ، لكى يستطيع فى نفس الوقت أن ينعم بشىء من الراحة تجاه نور الدين وتوسعاته .

والحقيقة أن أشد ما كان يخشاه نور الدين ـ كما سبق الذكر ـ هو الخوف من تحالف بين الروم والصليبيين يضعه بين فكى الكماشة ، يضاف الى ذلك رغبته الملحة فى ضم مصر الى حظيرة المذهب السنى والسيادة العباسية .

ومهما يكن من أمر فقد رغب نور الدين فى أن يمتلك مصر ، لذلك أمر أسد الدين « بتجنيد الأجناد واستخدام الرجال »(٨٠).

كذلك ما ان سبر شاور غور أسد الدين واستشف حقيقة ما فى نفسه من طمع فى مصر وأنه لابد له من قصدها(٨١) حتى اشتد خوفه على البلاد من الأتراك ، فأعاد الاستنجاد بالصليبيين مرة ثانية ، واتفق معهم على أن يحضروا الى مصر « ويمكنوه فيها تمكينا كليا ويعينوه على استئصال أعدائه »(٨٢) .

وما أن علم عمورى الأول بخروج شيركوه ـ الذى يصفه ستون ـ « بالمثابر » فى يناير ١١٦٧ م / ٥٦٢ هـ متجها الى مصر « ليستعيد مكاسبه فيها »(٨٣) أو للانتقام من شاور(٨٤) ،

حتى عقد مجلسا فى نابلس ضم كبار رجـال مملكته وتقررت فيه ضرورة ارسال حملة جديدة لتعترض سبيل شـيركوه ، وقد قرر المجلس أن يدفع رجال الدين والمدنيين ممن لن يصاحبوا تلك الحملة الى مصر ضريبة تقدر بحوالى ١٠٪ على كل الممتلكات ، وعليه فقد جمع الملك قواته وتقدم بها فى آخر يناير فى حملته الثالثة على مصر ..
وفى تلك المرة أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع شاور تضمن لهم أجرهم قبل أن يساعدوه فى محاربة شيركوه ، فما كان من شاور الا أن جدد تعهداته السابقة لعمورى من جديد . وبالفعل تم توقيع اتفاق جديد بين عمورى من ناحية وشاور من ناحية أخرى ، بل أن الملك عمورى حرص على اعطائها صفة رسمية فارسل سـفارة الى الخليفة الفاطمى زارته فى مصر حيث تم اعتماد الاتفاق(٨٥) .

هنا يذكر (ابن شداد) أن جيش أسد الدين شيركوه وصـل مصر فى نفس الوقت الذى وصـل فيه جيش عمورى اليها « مقارنا لوصـول الفرنج اليها »(٨٦) . أما غالبيـة المصـادر العربيـة الأخرى(٨٧) فتشـير الى أن شـيركوه وصـل أولا ثم تلا ذلك استنجاد شاور بملك بيت المقدس . ويتفق رنسيمان مع الراى الثانى حيث يذكر أن قوات عمورى « وصلت متأخرة جدا »(٨٨) .

بينما انفرد أبو شامة برواية أخرى توضح أن الملك عمورى هو الذى أخبر شاور بتحرك شيركوه الى مصر فأعـاد شاور طلب النجدة منه فسار عمورى بجيشه الى مصر بجوار البحر بينما كان أسد الدين يسير فى البر فسبقه الفرنج ونزلوا بلبيس واجتمعوا بشـاور وانتظروا وصـول الجيش النورى ، عندئذ وصلت تلك الأخبار لأسد الدين فغير طريقه ووصـل الى الصعيد وعبر الى البر الغربى فلم يستطع الفرنج وشاور اللحاق به(٨٩) .

جاء الصليبيون الى مصر وكان « الرجاء يقودهم والخوف يسوقهم »(٩٠) وكان أسد الدين شيركوه قد عبر النيل الى البر

الغربى ، ذلك أنه عمل حسابا لاستنجاد شاور بالصليبيين ، فلم يشأ أن يغامر بقواته فى القيام بهجوم على القاهرة(٩١) ٠ وسار الى الصعيد واستقر فى مكان يعرف بالبابين فتتبعته القوات المصرية والصليبية وادركوه فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى ٥٦٢ هـ(٩٢) / ١٨ مارس ١١٦٧ م(٩٣) ٠ وقد استطاع شيركوه ان ينزل بهم هزيمة ساحقة رغم قلة قواته بالنسبة لقواتهم ورغم محاولة بعض أصحابه اقناعه بالرجوع الى الشام(٩٤) ٠ وكان ذلك « من أعجب ما يؤرخ أن ألفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل »(٩٥) ٠

وقد قتل فى تلك المعركة « العديد من فرسان الصليبيين وأسر حشد كبير أيضا ، بالاضافة الى استيلاء المسلمين على كمية كبيرة من معدات العدو الحربية »(٩٦) ٠

وهكذا رجع شاور والملك عمورى الى القاهرة « فى أنحس الأحوال »(٩٧) أما أسد الدين فقد سار الى الاسكندرية « ففتح له حاكمها أبوابها »(٩٨) وتسلمها من أهلها بغير قتال(٩٩) ، ثم أناب بها ابن أخيه صلاح الدين وسار هو الى الصعيد فاستولى عليه « وجبى أمواله »(١٠٠) ٠

عندئذ حشد الصليبيون من جيش عمورى بالاضافة إلى المصريين بقيادة شاور جيشا كبيرا تقدموا به الى الاسكندرية وحاصروها حصارا شديدا(١٠١) فأبدى صلاح الدين شجاعة نادرة فى الدفاع عن المدينة رغم قلة الطعام والسلاح مع قواته(١٠٢) ٠ عندئذ توجه شيركوه بمن معه لنجدة صلاح الدين ومن معه(١٠٣) أى أنه توجه الى الاسكندرية رأسا عندئذ علم الصليبيون أنه حشد لهم جيشا كبيرا « استنهض لقصد القوم العموم والخصوص ٠٠٠ فرحلوا عن الحصار »(١٠٤) ٠

وثمة رأى هنا لابن أيبك يذكر فيه أن أسـد الدين جاء من الصعيد و « نازل القاهرة وحاصرها ، وضيق على من بها وعلى العاضد صاحب القصر »(١٠٥) والراجح أنه ربما فكر فى محاصرتهم وهو فى طريقه الى الاسكندرية ، ولكنه توجس من أن يقابل بمقاومة ضارية(١٠٦) . عندئذ وصلته رسل المصريين والصليبيين تطلب الصلح(١٠٧) . خصوصا بعد أن وصـل للصليبيين اخبار هجمات نور الدين فى بلاد الشام على ممتلكاتهم(١٠٨) .

اتفق الجانبان ـ المصريون والصليبيون من ناحية وشيركوه من ناحيـة اخرى ـ على عقد صـلح وأن يقدم المصريون والصليبيون لشيركوه « خمسين ألف دينار »(١٠٩) والا يقيم الصليبيون بمصر ولا يتسلموا منهـا قريـة واحـدة وأن تعـاد الاسـكندرية الى المصريين(١١٠) .

كذلك عقد اتفـاق داخلى بين الصليبيين والمصريين ـ بمعنى أصح بين عمورى وشاور على أن يكون للصليبيين شحنة بالقاهرة ، وأن تكون أبوابها بيد فرسانهم ، ويكون للصليبيين كل سنة مائة ألف دينار(١١١) وهذا ما أورده (بريبيه) تحت اصطلاح « فرض الحماية الفرنجية الحقيقية على مصر »(١١٢) وأوضحه ستون فى قوله « أن شيركوه لم يكن قد حطم ، ولكن اللاتين كانت لهم السيادة فى مصر »(١١٣) .

عاد اسـد الدين شـيركوه حزينـا الى دمشـق فى سبتمبر ١١٦٧ م(١١٤) ذى القعدة ٥٦٢ هـ(١١٥) . أما الملك عمورى الذى وصل عسقلان فى أغسطس ١١٦٧ م(١١٦) / شوال ٥٦٢ هـ ، فقد رجع هو الآخر الى مملكته مضطرا نظرا لصعوبة موقف الصليبيين بالشـام تحت وطـأة ضربـات نـور الدين محمـود(١١٧) الا أن الصليبيين لم يتخلوا مطلقا عن فكرة ضرورة الاستيلاء على مصر ، وهو ما ستثبته لنا الحوادث التالية .

هوامش الفصل الأول

(١) قال عنه ان الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (بالموصل) ، ص ١٦٣ « قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن العزيز ، ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، ومبادة يقوم بها واحسان يوليه ، وانعام يسديه » .

ومما قاله العماد محمد بن حامد الكاتب عنه : « .... كنت للفرنج فى أيام غيره على بلاد الشام قطائع فقطعها ، وعفى رسومها ومنعها ، ونصره الله عليهم مرارا ، حتى أسر ملوكهم ، وبدد سلوكهم ، وصان الثغور منهم وحماها عنهم ... » (ابن الأثير : الباهر ، ص ١٧٤) .

(٢) أرنست باركر : الحروب الصليبية ،ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ، ص ٧٧ .

(٣) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ١ ، ص ١٢٣ . ولو أن امبراطور الروم دخل فى نفس الوقت فى علاقات ودية مع نور الدين ايضا فى جمادي الأولى سنة ٥٥٤ هـ « تجددت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم بعد تكرر المراسلات والاقتراحات فى التقريرات » وقد أوضح لنا ذلك أبو شامة فى نفس المصدر السابق والصفحة وأضاف قائلا « ان ملك الروم أجيب الى ما التمسه من اطلاق مقدمى الفرنج المقيمين فى حبس نور الدين فأنقذهم بأسرهم وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاهيه من الاتحاف بأثواب الديباج الفاخرة المختلفة الأجناس الوافرة العدد ومن الجوهر النفيس وخيمة من الديباج لها قيمة وافرة ، وما استحسن من الخيول الجبلية ...» .

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٩٧ ـ ٩٨ . والصالح طلائع ابن رزيك تولى الوزارة فى مصر للخليفة الفاطمى الفائز وذلك فى الفترة ما بين ٥٤٩ الى ٥٥٥ هـ . (زامبور : معجم الانساب والأسرات الحاكمة ... ، ص ١٥٠) .

(٥) كان عمورى الأول يمتلك من المواهب ما جعلت منه ملكا ممتازا ، فمثلا كان يفضل التسلية بأشياء تحتاج لجهد مثل الصيد عن المسرحيات الكوميدية وكان ماكرا ، ورغم أنه كان لم يكن متقفا ما فيه الكفاية الا أنه كان يهوى القراءة والدخول فى مناقشات مع رجال مثل وليم الصورى ـ الذى كتب تاريخه بالحاح منه ـ وكان متذوقا لكل ما يسمعه أو يقرأ له . الى جانب شهرته فى الدبلوماسية والاستراتيجية . ولكن رغم كل انجازاته لم تكن له شعبية أخيه بلدوين ، فقد كانت تنقصه عذوبة معاشرة بلدوين وكان يميل للصمت وأحيانا كان استبداديا ، كما كان مفرطا فى فرض الضرائب ، قادرا على تبرئة نفسه من الاثم بما يقدمه من مبررات . عارضة بعض البارونات بسبب زوجته A. Snes of Court enry التى كانوا يعتبرونها حقيرة تافهة ، وقد صدق حدسهم فيما بعد حيث مارست تأثيرا شريرا على شئون المملكة .

(Setton : A History of the Crusades, V. 1, P. 549, Nomar Daniel : The Arabs and Mediaeval Europe P. 179).

تزوج عمورى أيضا من أميرة رومية واعترف بسيادة الامبراطور مانويل الذى أنفق الكثير على كنائس الأماكن المقدسة وآثارها ، وقد اعترف الملك عمورى بذلك وأقام النقوش تخليدا لاهتمام سيده « ولاتزال هناك كتابة باليونانية تحفظ ذكر ما يدل على سيادة الفسيلفس (الامبراطور) وهذا النقش التاريخى يبدأ بعبارة : فى عهد عمانوئيل وكما كان أمورى ملك أورشليم » د. أسد رستم : الروم ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ عن

(Corpus Inscript, Greaecarum)

هذا وقد كان عمورى مولعا بالتنجيم والمنجمين الذين لعبوا دورا مهما فى فترة حملاته على مصر . (Norman Daniel : Op. Cit., P. 179).

(٦) أسد رستم : الروم ، جـ ٢ ، ص ١٥٢ .

(٧) أرنست باركر : المرجع السابق ، ص ٧٧ ، المؤلفة : المرأة فى الحضارة البيزنطية ص ٤٣ ـ ٤٦ . بعد وفاة زوجة الامبراطور مانويل الأولى

(برته الألمانية) اتجه نحو قصور الأمراء الصليبيين ليفتش عن « فسيلسه » جديدة (أى امبراطورة) وكاد يجدها فى طرابلس فى شخص شقيقة أميرها الصليبى، ثم أثر الاقتران بمريم ابنة قسطنسه (مارى ابنة كونستانس) وريثة أنطاكية فتزوج منها فى سنة ١١٦١ م (أسد رستم : الروم ، جـ ٢ ، ص ١٥٣ عن (Chalandon .

(٨) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٢٠٤ عن وليم الصورى وميخائيل السريانى .

(٩) The Chronography of Bar Hebraeus, V. I, P. 286.

(١٠) هو أبو القاسم عيسى تولى فى مستهل صفر ٥٤٩ هـ وتوفى فى ١٧ رجب ٥٥٥ هـ (زامبور : معجم الانساب ... ، ص ١٤٥) .

كان احتمال سقوط الخلافة الفاطمية وسط مؤامرات القصر وعمليات القتل الكثيرة التى حدثت فى مصر ، تجعل الصليبيين فى بيت المقدس فى حالة قلق شديد من وقوع مصر فى قبضة مسلمى بلاد الشام السنيين أى نور الدين ورجاله The New Encyclopaedia Britannica, V. 5 (1768) P. 302.

بل قيل أن من أكبر العوامل التى حركت بلدوين الثالث آنذاك هو ذلك التحالف الذى تم بين حلب ودمشق بواسطة نور الدين
(Setton : Op. Cit., V. I. P. 549).

(١١) Runciman : A History ofthe crusades. V. 2, P. 367.

د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢٠٤ عن وليم الصورى وميخائيل السريانى ،
The Chronography of Bar Hebraeus, V. I, P. 286.

وهنا يعقب أستاذنا الدكتور سعيد عاشور تعقيبا منطقيا ووجيها على عدد ذكر المصادر العربية لذلك الخبر بأنه اذا كنت الدولة الفاطمية فى ذلك الدور أضعف من أن تدفع خطر أعدائها بالقوة فلا أقل من أن تشترى مسالمتهم بالمال .. وهذا موقف معيب يتطلب التستر عليه بحيث لا يصل خبره الى الرعية فيستثيرهم ، والى كافة المسلمين فيؤذى شعورهم ويسىء الى الخلافة الفاطمية نفسها وربما كان هذا هو السر فى عدم وصوله الى المؤرخين المسلمين وبالتالى عدم اشارتهم اليه .

(١٢) J. Prawer : Histoire du Royaume Latin de Jerusalem, T. I. P. 427.

(١٣) أرنست باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة د. الباز العرينى ، ش ٧٨ .

(١٤) J. Prawer : Op. Cit., P. 427.

(١٥) Setton : A History of the Crusades, V.I, P. 550, Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 367.
د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ص ٢٠٤ عن (Schlumberger : Campagnes du roi Amoury de Jersualem en Egypte), J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 432.

وهنا يذكر برويه أن عمورى الذى كان قبل اعتلائه العرش أميرا ليافا وعسقلان ، وكان مرتبطا بالمنطقة الساحلية الفلسطينية فى جزئها الجنوبى المتجه نحو مصر ، لذلك أسهم وضعه هذا فى توجيه نظره الى مصر ، بالاضافة الى تكملته للخط السياسى الذى سار عليه الفرنج منذ عهد بلدوين الثالث (J. Prawer : P. 430).

(١٦) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 550.

والراجح أن هذه الحملة هى التى أشار اليها ميخائيل السريانى وخلط بينها وبين حملة عمورى التالية على مصر لأن الحملتين ورد فيهما ذكر حصار عمورى لبلبيس . ومن المرجح أن المقصود بها حملة ١١٦٤ م / ٥٥٩ هـ والتى سيأتى ذكرها فيما بعد . فقد ذكر ميخائيل السريانى أن عمورى خرج الى مصر لجمع الضريبة فانقسم المصريون قسمين : قسم قدم له فروض الولاء والقسم الثانى كانوا ممتلئين بالريبة فقاوموه واستنجدوا بنور الدين ضده .
(Michel Le Syrien : Recueille des Historiens des Croisades, Documents Armeniens, T. 1, P. 359).

(١٧) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 432.

(١٨) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 540.

(١٩) د. عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢٠) اسمه بالكامل « شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاس بن مغيث بن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن مخيس بن أبى ذؤيب . كان الصالح

بن رزيك قد ولى فى أيام وزارته أبا شجاع شاور الصعيد بكماله . وكان شاور ذا شهامة ونجابة وفروسية وشجاعة . وكان الصالح قد أوصى ولده العادل رزيك الا ينعرض لشاور بمساءة قط ولا يغير عليه ، وأن يتلافاه جهده فانه لا يأمن عصيانه وخروجه » (ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٧ ، الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، ص ١٨ – ١٩ حوادث ٥٥٧ هـ) وهو ما حدث فعلا فقد تغلب شاور على الوزارة وانتزعها من بنى رزيك وقتل رزيك بن طلائع بن رزيك الذى وزر بعد أبيه (أبو شامة : الروضتين : جـ ١ ، ص ١٣٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ مطبعة دار الكتب ١٩٣٥) ، ص ٣٦٣ .

(٢١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب .. جـ ١ ، ص ١٣٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٢٦٤ . وكان ضرغام مقدم الأمراء البرقية ، ونائب الباب (ابن خلدون : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٧٧ طبعة (١٩٧١) ويقال ضرغام كان يتمتع بشعبية كبيرة واستحوذ على حب العامة . (J. Prawer ; Op. Cit., P. 432)

(٢٢) ابن شداد : المصدر السابق والصفحة ، أبو شامة : المصدر السابق والصفحة فقد كانت عادة المصريين أنه اذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه ، وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه .

(٢٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٧ . وكان الخليفة يومئذ هو العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف ابن أبي الميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله والحكم للوزراء .

(٢٤) هو أسد الدين شيركوه أخو نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، كان شيركوه وأيوب أبناء شادى من بلدة دوين – وهى بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلى الروم وكانوا من أصل كردى – كانوا فى خدمة مجاهد الدين بهروز شحنة العراق ، وبعد قتل شيركوه لأحد المسيحيين المقربين للأمير ، فر الأخان الى زنكى فى الموصل حيث بدأ نجمهما فى الصعود ، فلما قتل الشهيد عمل نجم الدين فى خدمة صاحب دمشق ، أما أسد الدين شيركوه فقد خدم نور الدين، فرأى منه فى حروبه آثارا يعجز عنها غيره فزاد فى اقطاعه وقربه حتى صار

له حمص والرحبة وغيرهما وجعله مقدم جيشه (ابن الأثير . الباهر ، ص ١١٩ — ١٢٠) ؛

The Chronography of Bar Hebraeus, V. I, P. 289.

(٢٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٠ . والمصدر الأخير يضع كلمة حبسا مكان حفظا . وسواء كان غرض نور الدين حبسا للبلاد أو حفظا لها فنحن نلمح فى التعبيرين رغبته فى المحافظة عليها من الصليبيين حتى لا تذهب لأيديهم وفى نفس الوقت نلاحظ أيضا رغبة نور الدين فى تملكها بعد الاطلاع على أحوالها عن قرب .

(٢٦) أرنست باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العرينى ، ص ٧٩ .

(٢٧) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(٢٨) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢٠ ، أبو شامة : الروضتين ... ، ج ١ ، ص ١٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج ١ ، ص ١٣٧ . ويضيف ابن الأثير هنا أن نور الدين طلب من أسد الدين اعادة شاور الى منصبه والانتقام ممن نازعه فى الوزارة .

(٢٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، القاهرة ١٩٣٥ ، ص ٣٤٦ .

(٣٠) Michel Le Syrien : Recueille des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, T, 1, P. 359.

(٣١) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 432.

(٣٢) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢٠٥ .

(٣٣) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢٠ — ١٢١ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(٣٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٨ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٧٧ . هنا يذكر برويه أن شيركوه هو الذى أزال تردده « ورجح كفة » تلبية رغبة شاور لأن فى ذلك تحقيقا لحلمه فى أن يكون حاكما لمصر تحت سيادة نور الدين (J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 433).

(٣٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ .

(٣٦) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢١ .

(٣٧) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٣٨) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٩ . ذكرا أنهم وصلوا القاهرة فى أواخر جمادى الأولى . أما بن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٢٦ وابن خلدون : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٧٧ فقد ذكرا أنهم وصلوها فى جمادى الآخرة من السنة أى ٥٥٩ هـ .

(٣٩) L. Bréhier : Vie et Mort de Byzance, P. 338.
Gibb : The life of Saladin, P. 5, Setton : Op. Cit , V. I., P. 550.

ويذكر ستون أن الحملة تحركت الى مصر فى ابريل ١١٦٤ م .

(٤٠) Stevenson : Op. Cit., P. 186.

(٤١) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات .. ص ٢٠٥ عن (عمارة اليمنى ، Wiet) ، د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٨٥ .

(٤٢) أرنست باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العرينى ، ص ٧٩ .

(٤٣) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢٠٥ .

(٤٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٩ ، ابن خلدون : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٧٧ .

(٤٥) أبو شامه : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣١ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، الدر المطلوب ... ص ٢٦ ، ابن خلدون : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٧٧ ، هنا يذكر أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦٥ (عن كتاب السيرة الصلاحية ليحيى بن أبى طى الحلبى) أن بعض الأمراء فى مصر كانوا غير راضين عن ضرغام وذلك لأن بعضهم حسدوه وكاتبوا شاور الذى كان قد صار الى الشام « فأخذ فى أعمال الحيلة عليهم وأحضرهم الى دار الوزارة ليلا فقتلهم جميعا » .. وقيل أنه قتل منهم سبعين أميرا آنذاك .

(٤٦) Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 368.

وهو يذكر هنا أن ضرغام مات ولم يشر الى أنه قتل .

(٤٧) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢١ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣١ ، وفى ص ١٦٦ يذكر أبو شامة عن كتاب السيرة الصلاحية أن أسد الدين أرسل الى شاور يستعجله ما تعهد به لنور الدين بعد أن « ضجر العسكر من الحر والغبار » فأرسل اليه شاور ثلاثين ألف دينار وقال له ترحل الآن . عندئذ أرسل اليه أسد الدين يقول : أن نور الدين أوصاه أنه اذا ملك شاور مصر أن يقيم عنده ويكون له ثلث غلة البلاد والثلث الثانى لشاور والجيش والثلث للخليفة . عندئذ قال له شاور : أنا ما قررت شيئا مع نور الدين وقد سيرت اليكم نفقة فخذوها وانصرفوا .

(٤٨) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢١ ، ابن واصل : مفرج الكروب.. ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

(٤٩) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢١ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٣١ ، الذهبى : دول الاسلام ، ج ١ ، ص ٧٣ ،
Setton : Op. Ct., V.I. P. 550
The Chronography of Bar Hebraeus, V. I, P. 289.

(٥٠) The Chronography of Bar Hebraeus, V.I.P. 289.
هنا يذكر ابن العبرى أن شاور أحس من حملة شيركوه أنها قدمت لإزاحة المصريين عن الحكم .

(٥١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ، ص ١٦٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٩ ، ابن ايبك : كنز الدر .. ، ج ٧ ، الدرر المطلوب ، ص ٢٧ ، Setton : Op. Cit., V. 1, P. 550.
هنا أخطأ ابن أيبك عندما ذكر أن شاور استنجد بملك الروم (مرى) لأن مرى هو نفسه عمورى الأول ملك بيت المقدس لا ملك الروم .

(٥٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

(٥٣) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢١ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٩ .
هنا يذكر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٧ عن كتاب السيرة الصلاحية أن شاور ضمن لعمورى ملك الصليبيين عن كل مرحلة يرحلها الى مصر ألف دينار بل انه قرر شيئا لدوابه ولطائفة الاسبتارية . ويقال ان عمورى قطع المسافة بين عسقلان وفاقوس « فى سبع وعشرين مرحلة قبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار » .

(٥٤) L. Bréhier : Vie et Mort, P. 338.

(٥٥) ابن الاثير : الباهر : ص ١٢١ ، ابن واصل : مفرج الكروب .. جـ ١ ، ص ١٣٩ ، د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢٠٦ عن Schvmberzer)

(٥٦) The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, P. 289.

(٥٧) Setton : Op. Cit., V. I, P. 550.

(٥٨) ابن الأثير : الباهر : ص ١٢١ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٤٠ .

(٥٩) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 550.

وكان قد عقد اجتماعا مع (بارونانه) ووضع شئون المملكة تحت رعاية بوهيموند الثالث أمير أنطاكية .

(٦٠) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢٠٦ ، د. عبد الرحمن الرافعي ، سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسيطى ، ص ٢٨٦ ، قدرى قلعجى : صلاح الدين الأيوبى ، ص ١٦٨ .

(٦١) Gibb : The Life of Saladin, P. 5.

(٦٢) L. Bréhier : Vie et Morst, P. 338.

(٦٣) يذكر ميخائيل السريانى أن مدة الحصار كانت سبعة أشهر Michel Le Syrien : Recueille des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, T. 1, P. 359.

أما أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦٧ عن كتاب السيرة الصلاحية ليحيى بن أبى طى الحلبى فيذكر أنها كانت ثمانية أشهر . أما أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٤٦ فيقول أنها كانت شهرين . أما ستون فيحددها بثلاثة أشهر من أغسطس الى أكتوبر ١١٦٤ م .

(٦٤) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢١ ، الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٤٠ .

(٦٥) أنظر الملحق رقم (٣) . وليس معنى ذلك أن القوات المصرية الصليبية المتحدة أجبرت شيركوه على التنازل عن مصر والرحيل منها كما ذكر بريبه (L. Bréhier : Vie et Mort, P. 339).

(٦٦) هنا يذكر ميخائيل السريانى أن ملك بيت المقدس علم بمهاجمة نور الدين لحارم أثناء محاصرته بلبيس . فأرسل الى أهالى حارم خطابا

يأمرهم فيه بعدم الخروج من الحصن حتى يصل اليهم . ولكنه بمجرد تركه الحصار وبداية المسير الى حارم علم أن أهالى حارم لم يلتزموا بما أمرهم به وأنهم خرجوا من الحصن ، ووقعوا فى أيدى المسلمين الذين أخذوهم على غرة فقتلوا منهم عددا كبيرا وسيطروا على الحصن بعد أن أسروا أمير انطاكية وحشدا آخر من كبار الشخصيات .

Michel Le Syrien : Recueille des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, T. 1, P. 359.

(٦٧) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢٢ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1. P. 289.

Setton : Op. Cit., V. 1, PP. 550 — 551.

ويفصل لنا براوير ذلك بقوله أن السبب فى اسراع عمورى فى الدخول فى مفاوضات من أجل الصلح مع شيركوه هو أن أكثر قوات الفرنج كانت موجودة فى مصر آنذاك معه وان نور الدين استولى على قلعة حارم وعلى نهر العاصي ، كما أسر عددا كبيرا من الأمراء الصليبيين من بينهم أمير أنطاكية وأمير طرابلس وبذلك انتهت ممتلكات الصليبيين شرق العاص كذلك هاجم بانياس التى كان حاكمها مع عموري بمصر فسلمها القائد Gautier de Qusenoy لنور الدين .
(J. Prawer : Op. Cti., T. 1, PP. 433 — 434).

وهنا أخطأ (جب) فى القول بأن طلب نور الدين الهدنة كانت المنقذ لشيركوه من الحصار المضروب حوله آنذاك وأنه كان محظوظا »
(Gibb : The Life of Saladin, P. 5).

كما لا نأخذ هنا أيضا برأى (ستيفنسون) الذى يشير الى سرور شيركوه لشروط الصلح عندما قدمها عمورى . (Stevenson : Op. Cit., P. 188)

(٦٨) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢٢ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٢ . ويؤيد هذا الرأى أيضا ما ذكره (ستون) من أن نور الدين كان قد طلب ارسال رؤوس القتلى من الصليبيين وأعلامهم ، التى وقعت فى أيدى القوات الاسلامية بعد الاستيلاء على حارم فى ١٢ أغسطس ١١٦٤ م ، الى شيركوه فى مصر وأعطى تعليماته بعرضهم على أسوار بلبيس لتخويف المحاصرين (Setton : Op. Cit., V. 1, P. 551) ولكن الراجح أنها لم تكن قد وصلت الى شيركوه بعد .

ولو أن أبو شامة يعود فى موضع آخر فيذكر أن أسد الدين علم بذلك ونفذ طلب نور الدين « أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦٧ عن السيرة الصلاحية ليحيى بن أبى طى الحلبى »

(٦٩) Setton : Op. Cit., V. 1, PP. 550 — 551.

ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٤٠ .

(٧٠) ابن واصل : نفس المصدر السابق والصفحة .

والواقع ان هذا يتعارض مع ما ذكر من الاشادة بسجاعة شيركوه وانه خرج وأصحابه أمامه « يحمى ساقتهم وفى يده لت حديد والمسلمون ، والفرنج ينظرون اليه فجاءه رجل من الفرنج وقال له أما تخاف أن يغدر بك ، هؤلاء المسلمون والفرنج قد أحاطوا بك وبأصحابك فلا يبقى لك معهم بقية . فقال شيركوه يا ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثله كنت والله أضع فيهم السيف فلا أقتل حتى أقتل رجالا ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى أبطالهم فيملك بلادهم ويفنى من بقى منهم ووالله لو أطاعنى هؤلاء ــ يعنى أصحابه ــ لخرجت اليكم أول يوم لكنهم امتنعوا . فصلب الفرنجى على وجهه وقال كنا نتعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم فى صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم » (ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢٢ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣٢) .

(٧١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٥٥٩ هـ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣٢ ــ ١٦٧ . فقد تعهد شاور لشيركوه بدفع ثلاثين ألف دينار أخرى . أما ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٢٧ فيذكر أنه كانت هناك عقبات فى طريق عودة أسد الدين الى الشام فأخذ منه الملك عمورى بعض المال فى مقابل افساح الطريق لهم . وهو يشير لعمورى بملك الروم كما سبق الذكر .

(٧٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ .

(٧٣) ابن شداد : نفس المصدر والصفحة . هنا يضيف أستاذنا الدكتور سعيد عاشور عن (شلومبرجيه) الذى لم يسعدنا الحظ بالاطلاع عليه أنه لو ترك الأمر لشيركوه لعاد الى مصر سنة ١١٦٥ م أو ١١٦٦ م (٥٦٠ ــ ٥٦١ هـ) ولكن يبدو أن نور الدين خشى أن يقوم بمحاولة جديدة ضد مصر فى هاتين السنتين خوفا من تشتيت جهوده وتقسيم قواته فى الوقت الذى كان الموقف فى بلاد الشام

يستدعى شيئا من اليقظة والانتباه ، د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ، ص ٢٠٧ .

(٧٤) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 551.

هنا تتضح لنا مدى خطورة الوضع بالنسبة لمملكة بيت المقدس بل وللصليبيين عامة مما ذكره (ستون) من أن نور الدين بعد استيلائه على حارم كان قد أسر عددا كبيرا من كبار أمراء الصليبيين وفرسانهم مثل بوهيموند الثالث أمير أنطاكية وريموند الثالث أمير طرابلس وقنسطنطين كولومان حاكم قيليقية البيزنطى وجوسلين الثالث أمير الرها الاسمى ، هذا بالاضافة الى أن عمورى الأول كان قد أخذ معه فى حملته على مصر معظم القوات الصليبية ، وبذلك كانت المملكة معرضة للهجوم والخطر .

(٧٥) Setton : Ibid V. 1, P. 552. J. Prawer : Op. Cit.. T. 1, P. 434.

بل قيل أن الامبراطور مانول كان يفكر فى الاستيلاء على أنطاكية نفسها آنذاك . Stevensdon : Op. Cit., P. 189.

(٧٦) J. Prawer : Ibid., T. 1, P. 434.

(٧٧) ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٢٨ .

(٧٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧ .

(٧٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٤٨ .

(٨٠) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦٧ . وثمة رأى لرنسيمان هنا يذكر فيه أن شيركوه كان له دور ملحوظ فى حث الخليفة العباسى نفسه فى بغداد كى يعلن أن تلك الحرب هي حرب مقدسة ضد (هرطقة) الخلافة الفاطمية الشيعية : (Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 372). والواقع انه بالرغم من أننا لم نعثر على ما يؤيد رأيه هذا فى المصادر العربية فاننا نرجح صحة مضمونه على اعتبار أنه استشفه من طبيعة العلاقات السنية الشيعية آنذاك .

(٨١) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٢ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٢ . كان أسد الدين يكثر من التحدث الى من يثق فيهم عن رغبته فى الرجوع الى مصر ، حتى وصلت تلك الأخبار الى شاور .

(٨٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ... ، ص ٣٧ ، اليافعى : مرآن الجنان وعبرة اليقظان ، جـ ٣ ، ص ٣٤١ . وهنا يصور لنا أبو شامة فى الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣٢ مدى خوف شاور من أسد الدين بيتين من قصيدة لعرقلة الكلبى جاء فيها :

وهل هم يوما شيركوه بجلق الى الصيد الا ارتاع فى مصر شاور
هو الملك المنصور والأسد الذى ثنا ذكره فى الشرق والغرب سائر

(٨٣) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 552.

يوافق ذلك ربيع الأول سنة ٥٦٢ هـ ، ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٣٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٤٨ .

(٨٤) L. Bréhier : Vie et Mort, P. 338.

(٨٥) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 552, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, PP. 434 — 435.

د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٨ . عن
(Schumberger : Campagnes du Roi Amoury).

وقدرى قلعجى : صلاح الدين الأيوبى ، ص ١٧٢ . هنا يذكر ستون أن شاور تعهد بدفع ٤٠٠,٠٠٠ دينار دفع نصفها مقدما للصليبيين ، وتعهد الملك بالا يترك مصر حتى تسحق جيش شيركوه أو ينسحب من البلاد . وكان الوفد المفوض من الملك فى توقيع تلك المعاهدة برأسه هيو حاكم قيصرية . وقد أيد الخليفة الفاطمى شاور فى استنجاده بالصليبيين وعضده بدليل ما ذكره ستون من كرم الخليفة الزائد وتواضعه فى مقابلة هيو رئيس الوفد وأنه أعاد وراءه نص المعاهدة فى صدق واخلاص .

(٨٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧ . فى الوقت الذى يذكر فيه ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٤٨ أن جيش شيركوه كان ألفى فارس . يذكر ابن العبرى انه وصل الى مصر فى عدد قليل من المشاه وذلك بسبب قلقه وميله الشديد للعودة الى مصر ، وذلك دون اعطاء رقم معين لهذاالجيش .
(The Chronography of Bar Hebraeus. V. 1, P. 290).

ثم يعود بعد ذلك فيذكر أن عدد الجيش كان ألفى فارس .

أما برويبه فيؤكد أن جيش شيركوه كان ألفي جندي يضـاف عليهم بعض القوات من الاسكندرية على رأسها نجم الدين بن مصـال . أما جيش الصليبيين فكان يقدر بـ ٣٧٤ فارسا و ٥٠٠٠ راجل يضاف اليهم الجنود المصريون التابعون لشـاور
(J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 435).

(٨٧) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٢ ، أبو شـامة : الروضـتين ، ج ١ ، ص ١٤٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٩ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٢٨ ، اليافعى مرآة الجنان ، جـ ٣ ، ص ٣٧٠ ،
Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 372.

(٨٨)

(٨٩) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦٨ . عن كتاب السـيرة الصلاحية ليحيى بن أبى طى الحلبى هنا يذكر نفس المصـدر أن أسد الدين حاول أن يتعاون مع شاور ضد الصليبيين وأنه أرسـل اليه رسولا يقول له : « أنا أحلف لك بالله الذى لا اله الا هو وبكل يمين يثق بها مسلم من الخيـه اننى لا أقيم ببلاد مصر ولا أعـاود اليها ابدا ولا أمكن أحدا من التعرض اليها .. وما أؤمل منك الا نصر الاسـلام فقط وهوان العدو ... وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه وننتهز فيه الفرصـة التى قد أمكنت والغنيمة التى قد كتبت فنستأصل شأفته ونخمد ثائرته » فلمـا وصل الرسول الى شاور قتله واطلع عمورى بفحوى الرسـالة . فلما علم أسد الدين ذلك ندم على ما فعله مع شاور وقال : « لعنه الله لو أطاعنى لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج » عندئذ كتب الى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور .

هنا أيضا نقرأ رأيا خاطئا للذهبى يذكر فيه أن الصليبيين دخلوا الى مصر سنة ٥٦٢ هـ « من بحر دمياط » (الذهبى : دول الاسلام ، جـ ١ ، ص ٧٦) .

(٩٠) ابن الأثير : الباهر ، ص ٢٣٢ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٢ .

(٩١) د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصـور الوسطى ، ص ٢٨٧ .

(٩٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٠ . هنا ذكر أبو شامة البابين خطـأ (البانين) والراجح انه خطـأ مطبعى .

(٩٣) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 553, Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 374.

أما بروييه فيذكر أن ذلك كان فى مارس أو ابريل ١١٦٧ م
(J. Prawer : T. 1, P. 435)

(٩٤) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٢ ، أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٤٣ . فبالرغم من معرفة كثرة عدد المصريين والصليبيين وعددهم فان أسد الدين صمم على ضرورة قتالهم : الا أنه خاف أن تضعف نفوسهم فى هذا المكان الخطير الذى « عطبهم فيه أقرب من السلامة لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم فاستشار أصحابه فأشاروا عيله بعبور النيل الى الجانب الشرقى والعودة الى الشام وقالوا له : نحن ان انهزمنا وهو الذى لاشك فيه فالى أين نلتجىء وبمن نحتمى وكل من فى هذه الديار عدو لنا .. فقام أحد المماليك النورية يسمى (برغش) وقال ما ملخصه : من يخاف القتل لا يخدم الملوك بل يبقى فى بيته مع النساء ، والله لو رجعتم الى الملك العادل نور الدين من غير علبة فسوف يأخذ اقطاعاتكم وأموالكم التى أعطاها لكم الى يومنا هذا ويقول كم تأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم ، فقا أسد الدين : ان هذا رأيه وبه يعمل ووافقه صلاح الدين . ثم اجتمعت كلمتهم على ضرورة القتال، فوضع أسد الدين خطة محكمة ضمنت لهم النصر . وبالفعل انزلوا بالقوات المشتركة هزيمة منكرة » .

(٩٥) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٣ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٣ .

(٩٦) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 553.

هنا ينفرد ستون كمرجع أجنبى بالكلام عن الخسائر بين الجانبين فيذكر أن الملك عمورى أحصى القتلى فى الجانبين فوجد قتلاهم ١٠٠ وقتلى المسلمين ١٥٠٠ . ويبدو أن هذا الرقم فيه شىء من المبالغة . أما المصادر العربية فقد ذكرت عدة روايات مختلفة عن هذا الموضوع فمثلا أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٥ ذكر أن أسد الدين أسر « سبعين فارسا من بارونانهم » أما ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٢٩ فقد ذكر أن أسد الدين كسر قوات أعدائه كسرة عظيمة و « أخذ صاحب قيسارية أسيرا مع جماعة من أصحابهم » . بينما ذكر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ (القاهرة

١٩٣٥) ، ص ٣٤٩ أن أسد الدين وصلاح الدين قتلا من الصليبيين « ألوفا وأسرا مائة وسبعين فارسا » .

أما بريبه فيعطينا رأيا خاطئا عندما ذكر أن عمورى « عاقب شيركوه بهزيمة فاصلة » فى تلك المعركة .

L. Bréhier : Vie et Mort, P. 339

والواقع أن عمورى وجد أن « الواجب يحتم عليه أن يهرب حيا » في ذلك اليوم كما ذكر رنسيمان .

Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 374.

(٩٧) ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ... ، ص ٢٩ .

(٩٨) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 436

(٩٩) هنا يذكر ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٢ أن أهل الاسكندرية ساعدوا جيش شيركوه خوفا من الفرنج . أما ابن واصل مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥١ فقد ذكر أن ذلك يرجع الى ميلهم لمذهب السنة وكراهيتهم لرأى المصريين ؛ بينما أعطانا الدكتور سعيد عاشور رأيا آخر له قيمته وهو أن أهل الاسكندرية عرفوا دائما بالنخوة والشهامة . بالاضافة الى أن بعدهم عن العاصمة وملامستهم الخطر الصليبى عن طريق البحر جعلهم أكثر احساسا بذلك الخطر وأكثر حرية فى التعبير عن شعورهم (د. عاشور : بحوث ودراسات ... ص ٢١٠) أما رنسيمان وستيفنسون فيذكران ان ذلك كان راجعا الى أن شاور كان مكروها من بعض السكندرين

(Runciiman : Op. Cit., V.I. P. 375) Steveon : Op. Cit., P. 91.

(١٠٠) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥١ . وقد ظل أسد الدين بالصعيد حتى شهر رمضان ٥٦٢ هـ .

وهنا يعقب الدكتور حامد غنيم : الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية جـ ٢ ، ص ٢٩ بأن مصر شهدت لمدة حوالى شهرين وجود نظامين متصارعين على أرضها ففى الاسكندرية والصعيد كان يوجد نظام يمثل حركة المقاومة الاسلامية . وفى القاهرة ومناطق أخرى كان يوجد نظام يمثل تحالف شاور مع الصليبيين وهو تحالف معاد لحركة المقاومة الاسلامية .

(١٠١) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٣ ، ١٦٨ - ١٦٩ . ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥١ ،

ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ... ، ص ٢٩ وهنا يذكر رنسيمان أن أسطولا صليبيا اشترك من البحر فى الحصار الى جانب تعزيزات برية وصلت من فلسطين
(Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 375).

وهنا يذكر ابن أيبك أن الحصار استمر سبعة وخمسين يوما بينما ذكر جب أنه استمر ٧٥ يوما ، والراجح أنه أخطأ فى ترجمة العدد
(Gibb : The Life of Saladin, P. 5).

بل قيل استمر لمدة « أربعة أشهر » (أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٥) وفى موضع آخر ذكر نفس المصدر ص ١٦٨ عن كتاب السيرة الصلاحية أنه استمر « ثلاثة أشهر » ويتفق براوييه مع ذلك الرأى الأخير
(Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 436).

(١٠٢) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة الروضتين ، جـ ١ ص ١٤٣ .
J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 436.

هنا يعلق براوييه على موقف أهل الاسكندرية بقوله أنهم لم يكونوا معتادين على العمليات العسكرية باعتبارها مدينة تجارية لذا تعب أهلها كثيرا وقد نتج عن هذا الحصار مجاعة .

(١٠٣) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥١ .

(١٠٤) أبوشامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٥ .

(١٠٥) ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٣٩ . يؤيد ذلك ما ذكره براوييه من أن القاهرة كان يقود الدفاع عنها
(Prawer : T 1, P. 436) Hugues d'Ibelin

أما أبو المحاسن فيذكر أن أسد الدين ضيع فرصة احتلال القاهرة فى الحال لانه لم يتبع الصليبيين اليها . « أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، (القاهرة ١٩٣٥) ، ص ٣٤٩ » .

(١٠٦) قدرى قلعجى : صلاح الدين الأيوبى ، ص ١٧٨ .

(١٠٧) اذا كانت كل المصادر العربية تقريبا تذكر ذلك وعلى سبيل المثال لا الحصر : ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٣ ،
The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, P. 291.

ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ۱ ، ص ١٥١ . فان « بريبه أخطأ في أنه ذكر أن عمورى وجيشه هو الذى أجبر أهل الاسكندرية على التسليم وعلى توقيع معاهدة »
(L. Bréhier : Vie et Mort, P. 339)

كذلك أخطأ برويبه فى القول بأن شيركوه هو الذى بدأ مفاوضات الصلح
(J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 436)

والراجح أن طلب الصلح بدأ من الجانب الصليبى المصرى وأنه جاء فى وقت كان شاور قد استمال فيه جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين فوافق الأخير على الصلح استنادا الى رأى ابن الأثير وأبو شامة .

(١٠٨) J. Prawer : Ibid., T. 1, P. 436.

وصلت أخبار من بلاد الشام تشير الى عمليات لنور الدين قرب طرابلس وانه هاجم مملكة بيت المقدس وهدم قلعة حنين على طريق صور فى الجليل الشمالى .

(١٠٩) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٣
The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, P. 291.

وفى موضع آخر يذكر أبو شامة « عن صاحب السيرة الصلاحية » : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦٩ أن شاور اتفق مع أسد الدين على أن يعطيه كل ما تكلفته تلك الحملة وأن يعطى للصليبيين ثلاثين ألف دينار ويعود كل منهم الى بلاده وان صلاح الدين طلب من ملك الصليبيين مراكب حمل فيها الضعفاء من أصحابه فأرسل له عدة مراكب .

(١١٠) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥١ ؛ هنا يذكر المصدر الأخير أن المصريين تسلموا الاسكندرية فى منتصف شوال .

(١١١) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٤٩ ، ابن خلدون : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٧٨ .

(١١٢) L. Bréhier : Vie et Mort, P. 339.

(١١٣) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 554.

(١١٤) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 553. Stevenson : Op. Cit., P. 191.

(١١٥) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥١ ، ابن خلدون : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٧٨ .

(١١٦) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 583, Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 376.

(١١٧) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢١١ ، د. عبد الرحمن الرافعي ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٩ .

الفصـــل الثـــانى

الدور الايجابى للتحالف بين الصليبيين والروم

رأينا كيف احتلت مصر مكان الصدارة فى خطط الصليبيين ، فكان ذلك هو سبب تعدد السفارات المبعوثة الى أوربا لطلب النجدة ولو أنها لم تأت بأية نتائج مثمرة ۰ فقد كانت أوربا لا تزال تحت تأثير الآثار السيئة للحملة الصليبية الثانية ۰ ومن ناحيـة ثانيـة كانت المشكلات المعقدة التى نتجت عن العلاقات بين فرنسا وانجلترا من ناحية ، والبابوية ودولة الروم من ناحية ثانية ، قد غطت على كل المشكلات الأخرى(١) ۰

والحقيقة أن الملك عمورى كان فى بداية حكمه يرى فى الروم عدوا لا يقل خطورة عن المسلمين ، وعليه فقد بنى آماله على لويس السابع ملك فرنسا ، الا أنه بمرور الوقت اتضح له أنه من الواجب عليه ألا ينتظر أى نجدة من فرنسا(٢) ۰

وهنا نود أن نؤكد ما قيل من أنه اذا كانت أحـداث الفترة المبكرة لحـكم عمورى الأول قد أثبتت بوضـوح مدى ضعف مصر حينئذ ، فانها أيضـا تركز الضـوء على طبيعة الدفـاع الصليبى المحفوف بالمخاطر فى شمال بلاد الشام ۰ وعليه فقد زاد نفوذ ومكانة

امبراطور الروم مانويل كومنين فى الشمال ، وهو الذى كان ممسكا بيده توازن القوى فى الشرق ، ومن هنا كان على الصليبيين أن يعملوا على حماية استقلالهم بتأييده فى أهدافه التى كانت منصبة فى الغالب على أنطاكية(٣) ٠

لم تلبث العلاقات بين الصليبيين والروم أن دخلت فى دور ايجابى فعال عن طريق اتمام بعض الزيجات بين الجانبين ، وعن طريق العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين ٠

فقد تزوج بوهيموند الثالث أمير أنطاكية من حفيدة الامبراطور مانويل بينما تزوج الامبراطور مانويل كومنين من ماريا أخت بوهيموند نفسه ٠ كذلك تزوج الملك عمورى من ماريا ابنة حناكومنين ، فى كنيسة صور فى ٢٩ أغسطس ١١٦٧ م ، وذلك بعد رجوع عمورى من حملته الثالثة على مصر مباشرة(٤) ٠

وهكذا دعمت تلك الزيجات الروابط بين الصليبيين والروم وشجعت الجانبين على الدخول فى علاقات دبلوماسية تزيد من تقوية تلك الروابط ولو لفترة محدودة ٠

ومما لا شك فيه أن عمورى كان قد أدرك بعد احتكاكه عن قرب بمصر أكثر من مرة أنه فى حاجة الى قوة خارجية تمكنه من تحقيق حلمه الكبير فى الاستيلاء عليها ، بل فى المحافظة على مركزه بها ، الى جانب القدرة على مواجهات نور الدين المتكررة(٥) ٠

لذلك فكر فى تقوية الرابطة مع امبراطورية الروم ، ولم يتوان عن الزواج من الأميرة مارى كومنين ٠ وفى نفس الوقت لم يكن أباطرة القسطنطينية فى غفلة عما جرى فى مصر طوال السنوات الأخيرة من انحلال الخلافة الفاطمية وتنافس نور الدين محمود

وعمورى الأول حول الفوز بوادى النيل ، لذلك لم يلبث الامبراطور أن أرسل مبعوثين سنة ١١٦٨ م / ٥٦٣ هـ الى بيت المقدس للاتفاق على عمل مشترك بحيث تقوم القوات الرومية الصليبية بفتح مصر على أن يكون الثمن الذى اتفق على أن يتقاضاه الامبراطور لقاء مساعدته للصليبيين هو جزءا من مصر ، فضلا عن انطاكية(٦) .

وقد أورد لنا وليم الصورى نصا لتلك الرسالة التى بعث بها الامبراطور الى الملك عمورى(٧) .

وسواء أكان الملك عمورى هو الذى بدأ المفاوضات من أجل مصر(٨) أم أن الامبراطور نفسه هو الذى بدأها(٩) فان الملك عمورى أرسل بعثة من قبله الى القسطنطينية ، كان أحد أعضائها المؤرخ المشهور وليم الصورى ، رئيس أساقفة صور(١٠) .

لم يكن الامبراطور موجودا آنذاك بالقسطنطينية ، بل كان مشغولا باخماد احدى الثورات فى بلاد الصرب(١١) ، وبعد أن تم له اخضاعهم وأسر زعمائهم ، وفى طريق عودته للقسطنطينية ، تقابل مع الوفد الصليبى عند بلدة Butella فى اقليم Pelagonia (١٢) .

هنا يروى لنا وليم الصورى أن الامبراطور استقبل مبعوثى الملك عمورى « استقبالا مشرفا ، وعاملهم برقة امبراطورية » عندئذ أوضحوا الهدف من رحلتهم وسفارتهم ، كما شرحوا له بعناية فائقة فحوى المعاهدة ، فاستمع الامبراطور للتقرير الكامل بسرور زائد ، وبلباقة وأدب جم وافق عليها ، بل أقر كل ما اتفق عليه . وبعد أن حلف الجانبان قسما مقدسا كل منهما للآخر ، أقر الامبراطور بما له من سلطة التفاصيل التى كانت قد وضعت بواسطة المبعوثين ، وصدق على المعاهدة ، وبذلك نجحت تلك السفارة ، وبدأ وليم ورفاقه رحلة العودة الى بيت المقدس وذلك « فى اليوم الأول من أكتوبر » ١١٦٨ م(١٣) .

واذا كان وليم الصورى لم يذكر لنا تفاصيل المعاهدة التى تم الاتفاق عليها فان برييه قد ذكر لنا باختصار أنها نصت على « اقتسام مصر »(١٤) ٠

ومهما يكن من أمر فانه قبل أن تعود البعثة الملكية من عند امبراطور الروم الى بيت المقدس ، كان الملك عمورى قد خرج فى حملتـه الرابعـة على مصر والتى بدأت آخر أكتوبر ١١٦٨ م / ٥٦٤ هـ(١٥) ٠

فما مغزى ذلك التحرك المفاجىء لعمورى ؟ وما سر انفراده بتلك الحمـلة على مصر وهو الذى كان حريصـا على وقـوف امبراطور الروم الى جواره فيها ؟ ، وخير دليل على ذلك تلك البعثة التى أرسلها والتى كان يعلم مسبقا مصيرها ؟ وانها كانت ستأتى بموافقة الامبراطور على المشاركة فى الاستيلاء على مصر ٠

هنا تضاربت الأقوال وكثرت الآراء للرد على هـذا التساؤل فيروييه ذكر لنا رأيين : أولهما يستند الى بنود الاتفاق الذى لم يتوافر لدينا نصـه ، وهو أن عمورى ، كان ينوى أولا مهاجمـة مصر ، ثم يحضر الامبراطور لتأييده ٠ بينما ذكر رأيا آخر ــ وهو فى رأيه أكثر الافتراضات قربا من الحقيقة ــ أن عمورى رغب فى أن يختبر قواته كى لا يضـطر الى تقسـيم ثمرة انتصـاره مـع الامبراطور(١٦) ٠ وبمعنى آخر عدم رغبة عمورى فى أن يشـاركه الروم فى اقتسام مصر ولو أن ذلك كان رأى « العناصر المحبـة للحرب والشرهة من بارونات المملكة » والتى كانت تضغط بشـدة على الملك(١٧) ٠

أما وليم الصورى فقد أوضح لنا أن الملك تحرك بسرعة الى مصر « مثارا بواسطة السخط الذى فجرته الاشاعات التى انتشرت

فى مملكة بيت المقدس من أن شاور كان يرسل باستمرار السفراء الى نور الدين مناشدا اياه سرا المساعدة ، وأنه ادعى أنه ضد ارادته تماما ، أنه ارتبط بأى معاهدة من معاهدات السلم مع أى عدو ، كما أنه رغب فى الانسحاب من الاتفاق الذى عقده مع الملك وأنه اذا استطاع الاعتماد على مساعدة نور الدين فانه سوف يخرق المعاهدة ويتخلى عن الملك تماما »(١٨) ٠

والحقيقة أن ذلك الرأى وأمثاله كان من آراء الاسبتارية(١٩) التى كان رئيسها المحرك الأول للملك(٢٠) ٠ وأيدهم فى رأيهم هذا وليم الرابع دوق نيفر الذى قدم الى فلسطين فى نهاية صيف ١١٦٨ م وكان بصحبته عدد كبير من الفرسان(٢١) ٠ بينما وقف فرسان الداوية(٢٢) موقفا معارضا بسبب تنافى الحملة مع ما يمليه عليه الضمير ، أو لأن سيد المجموعة الاسبتارية كان هو المحرك الأول لها ـ كما سبق الذكر ـ لذلك رفضوا أن يمدوا الملك بالقوات لأن اعلان الحرب ضد أى قوة صديقة ، يعتبر خطأ مخالفا لمغزى المعاهدة ودون أى اعتبار للحق والعدالة ، وباعتبار أن مصر حافظت على حسن نواياها ، فانها لا تستحق تلك المعاملة(٢٣) ٠ وهنا نود أن نشير الى أن الخرق المتكرر للمعاهدات هو الذى دفع نورمان دانييل الى القول بأن « المبادىء الخلقية للقانون الدولى لم تكن واضحة فى القرن الأول للمملكة اللاتينية »(٢٤) ٠

والواقع أن عمورى الأول وجد نفسه مضطرا الى الاسراع بهذه الحملة نتيجة لانقلاب سياسة شاور ضد الصليبيين(٢٥) ٠

ذلك أن شاور أخذ يتخوف من المساعدة الصليبية التى تحولت الى حماية بل الى نوع من الوصاية على الدولة الفاطمية ،

فوجود مندوب أو شحنة عن ملك بيت المقدس الصليبي فى القاهرة يشاركه فى شئون الحكم ، ووجود حامية صليبية تحرس أبواب القاهرة كل ذلك أزعج الفكر الاسلامى خصوصا أن أولئك الصليبيين أساءوا معاملة أهل البلاد(٢٦) « فنال المسلمين منهم أذى شديد ، وجور عظيم وقهر زائد »(٢٧) .

ولقد كان ذلك الاستياء أمرا طبيعيا وكان لابد من حدوث انفجار نتيجة للسيادة الفرنجية المباشرة فلا يمكن لأى مسلم أن يقبل بدون مجادلة أن تصبح بلاد النيل تحت السيادة الصليبية(٢٨) .

هذا بالاضافة الى أن الضريبة السنوية التى فرضها عمورى على شاور ــ وهى مائة الف دينار ــ أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية فى الوقت الذى ضعفت فيه تلك الدولة ونضبت مواردها . وهكذا لم يجد شاور مفرا أمام ضغط الرأى العام وشعوره بالاستياء من أن يقلب سياسته رأسا على عقب ، لذلك اتصل بنور الدين محمود طالبا مساعدته فى التخلص من الحماية الصليبية(٢٩) .

والراجح ان شاور قد تناقش فى ذلك الموضوع مع ابنه الكامل شجاع الذى كان باستمرار دائم النصح لوالده بالابتعاد عن الصليبيين ، وعمل كل ما يهم المصلحة الاسلامية ، وانتهى الأمر باتفاق الوالد وابنه على سياسة جديدة يتم الاتفاق عليها مع نور الدين . والدليل على ذلك أن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين « ينهى محبته وولاءه ، ويسأله أن يأمر باصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته وبجمع كلمة الاسلام ، وبذل ما لا يحمله كل سنة » فوافق نور الدين(٣٠) .

وقبل أن نستطرد فى الحديث عن حملة عمورى تلك نود أن نورد هنا رأيا غريبا لميخائيل السريانى جعله السبب الأساسى

لتحرك ملك بيت المقدس الى مصر تلك المرة · حيث يقول ما ملخصه : « ان المسلمين فى مصر كانوا منقسمين الى حزبين أحدهما الشيعة والثانى السنة ، أيد الشيعة نور الدين ، وأيد السنة الصليبيون · وقد أرسل نور الدين مبعوثين للحزب السنى لكى يحثوهم على الانفصال عن الصليبيين ، وأن يرفضوا اعطاءهم الضريبية السنوية وأن يعملوا كل ما فى وسعهم على تدعيم دينهم ، فوافقوا على ذلك الاقتراح ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الأتراك· ثم حصنوا بلبيس وامتنعوا عن دفع الضريبة المألوفة للصليبيين عندئذ أسرع ملك بيت المقدس بأخذ بلبيس »(٣١) ·

ويكفى للتدليل على عدم صحة ذلك الرأى من القول بأن (الشيعة هم الذين أيدوا نور الدين) لأن نور الدين كان سنيا وبالتالى كان من الأحرى أن يؤيده السنة لا الشيعة ·

أما عن المثير الأول لفكرة حملة عمورى الرابعة على مصر فهو الحزب الصليبى الذى كان موجودا فى مصر آنذاك ــ وفقا للاتفاق السابق بين الصليبيين وبين شاور ــ فقد راسلوا الملك عمورى وأخبروه بسهولة الاستيلاء على البلاد « أعلموه خلوها من موانع »(٣٢) وأنه « ليس بها راد ولا عن أخذها صاد »(٣٣) ·

عندئذ انقسم الصليبيون فى مملكة بيت المقدس الى قسمين ــ وفقا لما دونه وليم الصورى ــ فريق حرض الملك وحثه بالحاح على ضرورة القيام بتلك الحملة على رأس هؤلاء الاسبتارية ومقدمهم ــ كما سبق الذكر ــ وفريق عارض بشدة ذلك المشروع وحذر الملك من مغبة عواقبه وعلى رأسهم الداوية(٣٤) ·

ولكن ما سر ذلك الانقسام فى الرأى الصليبى تلك المرة ؟ ولما لم نر منهم ذلك الموقف من قبل فى حملات عمورى السابقة ؟

هنا يعطينا برويبه ردا موجزا وكافيا فى نفس الوقت عندما يقول « أن الصليبيين تحركوا فى تلك المرة الى مصر ، لا لتأثرهم بحزب من الأحزاب المصرية ، بل لانبعاث فكرة جديدة من داخلهم هى السيطرة على مصر لا حمايتها »(٣٥) • ولو أن المصادر العربية تشير الى وجود بعض المؤيدين للفكرة داخل مصر ممثلين فى بعض أعداء شاور(٣٦) • ولكن هناك فارق كبير بين أن يكونوا مشايعين فقط للفكرة ، وأن يكونوا هم أصحابها الأصليين •

والحقيقة أن الملك عمورى تردد بعض الشىء فى توجيه حملته تلك ، وعندما ألح عليه الحزب المتطرف المؤيد للحرب(٣٧) رد عليهم بأنه لا يريد أن يتوجه اليها لأن أموالها تساق اليهم فيتقووا بها على نور الدين ، أما اذا صمموا على صدها « فان صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ويقاتلوننا دونها »(٣٤) • أو يسلمونها الى نور الدين وفى ذلك هلاك الصليبيين(٣٩) • فأكدوا رغبتهم فى التوجه اليها وأنه بامكانهم أخذها قبل أن يصل الخبر الى نور الدين • فما كان منه الا أن وافق « على كره شديد » وتجهز للسفر(٤٠) •

وعليه فلا عبرة هنا بما ذكره ابن أيبك وابن الفرات من أن الملك عمورى توجه بتلك الحملة الى مصر بدافع شخصى بحت ، والراجح أن ابن الفرات نقل رأيه هذا عن ابن أيبك(٤١) •

والحقيقة أن الصليبيين جاءوا الى مصر تلك المرة « ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد طمعا فى البلاد »(٤٢) •

وكن ما يهمنا هو أن الملك عمورى تحرك من عسقلان فى منتصف محرم ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ووصل بجيشه الى بلبيس

أول يوم من صفر ٥٦٤ هـ/(٤٣) وأوائل نوفمبر ١١٦٨ م(٤٤) فقتل الصليبيون الكثير من أهالى بلبيس وأسروا عددا آخر ، كما تعرضت المدينة نفسها للسلب والنهب(٤٥) . وذلك لمدة خمسة أيام(٤٦) أو ثلاثة(٤٧) .

وقد أوضحت لنا المصادر السريانية واللاتينية الى جانب المراجع الأجنبية الحديثة مدى التنكيل الذى حل بأهالى بلبيس آنذاك . فقد ذكر ميخائيل السريانى أن الملك « وجد بالمدينة اثنى عشر ألف فارس ومائتى ألف من المشاه فوضع فيهم حد السيف »(٤٨) . أما وليم الصورى فيقول « أعمل فيهم السيف دون مراعاة لسن أو جنس »(٤٩) . فى حين ذكر رنسيمان أنه تلا دخول الصليبيين بلبيس مذبحة مروعة للأهالى(٥٠) .

وبعد أن قضى عمورى عدة أيام فى بلبيس لاعادة تنظيم قواته(٥١) ، تقدم الصليبيون الى القاهرة فوصلوها فى العاشر من صفر ٥٦٤(٥٢) ، وعسكروا قرب بركة الجيش قرب الفسطاط(٥٣)، وبدأوا يستعدون لمحاصرة القاهرة فخاف أهلها أن يتعرضوا لنفس المصير الذى تعرض له أهل بلبيس « فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه » والحقيقة أنه ربما سلمت القاهرة للصليبيين اذ لم تكن بلبيس قد تعرضت للمصير السابق الذكر « ولكن الله تعالم حسن لهم ذلك ليقضى أمرا كان مفعولا »(٥٤) .

بل أن شاور نفسه أمر باشعال النار فى مدينة مصر (أى الفسطاط) فى تاسع صفر ٥٦٤ هـ / ١٢ نوفمبر ١١٦٨ م وذلك قبل نزول الصليبيين عليها بيوم واحد(٥٥) « بعد أن أمر أهلها بالانتقال الى القاهرة وأن ينهب البلد فانتقلوا ، وبقوا على الطرق ونهبت مصر وافتقر أهلها ودهبت أموالهم ونعمهم »(٥٦) ويقال أن

النار ظلت مشتعلة فى الفسطاط حوالى أربعة وخمسين يوما(٥٧) ٠ والراجح أن شاور لجأ الى هذا الأسلوب المدمر بعد أن أعيته الحيلة فى رد عمورى عن مصر بطريقة هادئة(٥٨) ٠

أما الخليفة العاضد فقد أفزعته تلك الأخبار فأرسل يستنجد بنور الدين ويعرفه « ضعف المسلمين عن الفرنج » وبعث مع الرسائل بعضا من شعور نسائه لكى يزيد من حثه على التقدم لنجدته « هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج »(٥٩) وذلك لما لحق نساء مصر فى ذلك الوقت من « أحوال تقشعر لسماعها الأبدان »(٦٠) على أيد الصليبيين ٠ وما ان وصلت تلك الأخبار الى نور الدين حتى « قام وقعد » وشرع فى الحال فى تجهيز قواته الى مصر(٦١) ٠

وبوصول الأمر الى هذا الحد كان على شاور أن يتحرك بسرعة حتى لا تضيع منه البلاد فقد « اشتد الأمر وعظم الخطب ، وضاق الحصار وخيف البوار وعلم شاور عجزه وضعفه وأن البلاد ذاهبة لا محالة فسلك طريق التمحل »(٦٢) أى أنه بدا يطرق طريق الحيلة والخداع ٠ فأرسل الى الملك عمورى « يذكر له مودته ومحبته القديمة » وأنه معه قلبا وقالبا لولا خوفه فقط من العاضد ونور الدين ، وطلب منه الصلح على أن يأخذ « ألف ألف دينار مصرية ، يعجل البعض ويؤخر البعض » فأجابه الى ذلك(٦٣) ٠

ووفقا لرأى وليم الصورى فان الملك عمورى كان قد طلب مليونين من الدينارات من شاور فى مقابل عقد ذلك الصلح لكى تعوضه عن الخسائر التى لحقت بمملكته من جراء حروبه مع شاور وجعل ذلك شرطا لاطلاق سراح ابن شاور وحفيده وبقية من معه من أصحاب المنزلة العالية فى مصر من أسرى(٦٤) ٠

أما المصادر العربية فلم تحدد مقدار المـال الذى طلبه عمورى آنذاك بل ذكر بعضهـا أن شاور طلب من عمورى أن يمهله بعض الوقت لكى يجمع له بعض المـال وأطمعه فى « ألف ألف دينـار معجلة ومنجمة » وقال له « ترحل عنا وتوسـع الخنـاق وتظهر الارفـاق »(٦٥) ٠ بينما أشـار مصدر آخر أن شاور طلب من عمورى الرحيل وأن يأخذ فى مقابل ذلك ما يريده من المـال كى لا تقع البـلاد فى يد نور الدين ، لأنه لو حدث ذلك فلن يأخذ مصر ولن يأخذ أى مال(٦٦) ٠

هنا انقسم الصليبيون الى فريقين أمام ذلك العرض ، فالبعض ومعهم الملك حبذ فكرة العودة وأخذ المـال ليتقووا به ويعودوا مرة أخرى بعد ذلك ـ خصـوصا أن بعض الأخبـار وصلتهم بتحرك قوات نور الدين اليهم ٠ والفريق الثانى رأى ضرورة الاستيلاء على القاهرة(٦٧) ٠

والحقيقة أن أخبار حملة عمورى تلك على مصر لم تصـل أخبارها الى نور الدين عن طريق الخليفة العاضد فقط بل عن طريق شاور نفسه أيضـا الذى بدأ يلعب على الوترين فى وقت واحد ٠ ففى نفس الوقت الذى بدأ يفاوض الصليبيين فى الصـلح ٠ أرسل أيضا الى نور الدين يستنجد به ٠ فقد أرسل كتبـه الى نور الدين « مستصرخا ومستنفرا وبما نـال الاسـلام من الكفر مخبرا ، وسير الكتب مسودة بمدادها ، كاسـية لباس حدادها » ومعها أيضا بعض شعور أهل القصر « للاشعار بما عراهم من بلية الحصر »(٦٨) ٠

أما الخليفة العاضد فبمجرد أن علم بأخبار المفاوضـات التى دارت بين شاور والصليبيين وأنها انتهت باتفاقهم على أن يعطيهم

شاور مائة ألف دينـار وأن يرحلوا عن البلد حتى يتمكن من جمع المـال ، حتى أعاد مراسلة نور الدين وأعلمه بما لقى المسلمون من الصليبيين ، وأغراه بعدة وعود منها أن يكون له ثلث مصر واعطـاء أراض أخرى لأسـد الدين شيركوه يقيم فيها هو وجنده وأن يكون اقطاعهم عليه خارجا عن الثلث الذى لنور الدين(٦٩) ٠

والراجح أن أخبار عمورى وحملته على مصر وصلت بسرعة الى أسد الدين شيركوه قبل وصولها الى نور الدين(٧٠) ، لذلك سار من حمص الى حلب فى « ليلة واحدة » وطلب من نور الدين التوجه بنفسه اليهم لأنه وحده القادر على ردهم عن مصر ، فما كان من نور الدين الا أن وضـع كل خزائنه تحت تصرف أسد الدين لكى يأخذ منها ما يشاء لاعداد جيش قوى يتوجه به الى مصر « ان خزائنى لك فخذ منها ما تريد » وبالفعل تم ذلك فى وقت قصير وخرجت القوات النورية متوجهـة الى مصر فى منتصف شهر ربيع الأول ٥٦٤ هـ(٧١) بقيادة أسد الدين شيركوه الذى توجه الى مصر « بسيفه وملكه وماله وأهله ورجاله »(٧٢) ٠ وصحبه عدد من الأمراء والمماليك ــ من صفوة الجيش وصلاح الدين ابن أخيه على كره منه(٧٣) ٠

أما عن الصليبيين وحملتهم فقد رأينـا أنهم توقفوا أمـام القاهرة ، وكان شاور قد أشعل النار فى الفسطاط ، وكان ما كان من أمر المحادثات بين شاور والصليبيين ٠

وفى نفس الوقت الذى كان فيه عمورى قد غادر مملكته ، كان قد أعطى أوامر لأسـطول صليبى أن يتحرك الى شـواطىء مصر ليهاجمها من جهة البحر ، وبالفعل وصـل الأسطول ودخل فرع النيل الذى تقع عليه مدينة تنيس ، واستولى عليها وأخذت قواته

فى نهب وسلب المدينة ، ثم بدأت قوات الأسطول الصليبى تحاول اللحاق بالملك مستخدمة فرع النيل فى تحركها ، فوقف المصريون وقفة جريئة وسدوا النيل بواسطة مراكبهم ومنعوا الصليبيين من المرور • فى الوقت الذى أصدر عمورى أوامره الى Humphrey of Toron ـ المسئول عن الأمن فى قصره ـ بأن يستولى على الشاطىء المواجه بواسطة بعض الفرسان ، ولكن ما ان بدأ همفرى فى تنفيذ الأوامر حتى وصلت أخبار تفيد باقتراب شيركوه ، عندئذ كان لابد من تغيير الخطط فصدرت الأوامر للأسطول بالعودة الى البحر ثم الى المملكة(٧٤) •

ويقال أن شاور ورجاله بذلوا كل ما فى وسعهم كى ينسحب الملك آنذاك من الأراضى المصرية ، وأنه دفع لعمورى مائة ألف دينار مقابل انسحابه ، واستعاد شاور ابنه وحفيده اللذين كانا رهينة عند عمورى • عندئذ تقدم الملك حتى وصل الى سرياقوس • ولم يلبث شاور بعد ذلك أن أخذ يلهب حماس المصريين للدفاع عن بلدهم فسدوا كل الثغرات وأعدوا كافة وسائل الدفاع بعد أن جمع القوات من كافة أرجاء مصر وزود القاهرة بالمؤن الكافية(٧٥)•

ولواقع أن شاور أخذ يماطل ويسوف مع الصليبيين فى اعطائهم المال المتبقى بحجة أنه مشغول بجمعه حتى أصبح جيش شيركوه على مقربة منه(٧٦) • وكان وصول جيش أسد الدين الى مصر فى ربيع الأول ٥٦٤ هـ(٧٧) •

وهكذا جاء شيركوه بحملته الجديدة الى مصر « كمحرر ومنقذ لا كعدو »(٧٨) ، فقد جاء شيركوه لينقذ مصر كلها خليفة وشعبا بعد استنجادهم بنور الدين •

وثمة رأى لابن العبرى هنا يجعل هدف نور الدين من وراء ارسال تلك الحملة هو (الوصول الى حكم مصر ، دون أن يكون دافعه تقديم المساعدة للمصريين »(٧٩) .

والراجح أن نور الدين رمى الى الوصول للهدفين معا ، تحرير مصر من الصليبيين المتربصين بها والذين ألحقوا بها الأذى ، ثم ضمها الى حوزته حتى تدخل تحت ظل المذهب السنى الذى يعضده ، ولما فيه أيضا من تأمين لبلاد الشام . وهذا ما عبر عنه ابن الأثير بعد فتح مصر على يد شيركوه تلك المرة بقوله « أنه كان فتحا جديدا لمصر وحفظا لسائر بلاد الشام وغيرها »(٨٠) .

والحقيقة أنه بمجرد وصول أخبار اقتراب جيش شيركوه من مصر خشى الملك عمورى أن يصبح محصورا بين نارين(٨١) . فأعطى أوامره للجيش الصليبى بالعودة الى بلاد الشام وبدأ تحركه بالفعل فى ٢ يناير ١١٦٩ م .

واذا كانت تلك الحملة ذات سمات مميزة عما سبقها من حملات للملك عمورى على مصر ، باعتبارها تحركت بأهداف تخص الصليبيين وحدهم دون استنجاد من داخل مصر ، ولأنها كانت ترمى الى السيطرة على مصر لا حمايتها ، لذا كانت أصداء اخفاقها كبيرة لذلك أبرزت المصادر العربية تلك النقطة بما تستحقه من الازدراء والشماتة(٨٢) . وأوضحت أنهم جاءوا عن غير حق ورحلوا دون أن يجنوا شيئا الا الندم . فابن الأثير ذكر أنهم « رجعوا بخفى حنين خائبين مما أملوا(٨٣) ، أما ابن شداد فيقول « رحلوا راجعين وعلى أعقابهم ناكصين»(٨٤) . بينما يقول البندارى « واجفلوا اجفال النعام »(٨٥) . أما ابن واصل وابن الفرات فيقولان « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله

المؤمنين القتال »(٨٦) • وقد توجه عمورى أولا الى بلبيس ثم عاد الى مملكتـــه(٨٧) بل أن ابن الأثير يبرز لنــا مدى ضيق عمورى وضجره من نتيجة تلك الحملة الخـاسرة بقوله « وسب ملكهم كل من أشار عليه بقصد مصر »(٨٨) • فقد كانت « نهاية واهنــة لمحاولة حمقاء » على حد تعبير (ستيفنسون)(٨٩) •

وهكذا كانت نتائج حملات عمورى حتى ذلك الوقت فى رأى برييه « لا تبشر بأى خير ، فقد أنهكت حملاته المتكررة على مصر ميزانيــة الامارات الصليبية ، وفى مقابل توجيه عمورى نظره الى مصر اضطر الى التنازل عن أنطاكية ، بل ترتب على تلك الحملات أيضا نقص وامكانات التدخل السياسى والعسكرى فى الدبلوماسية السورية الاسلامية »(٩٠) •

وكان وصول أسد الدين شيركوه الى مصر فى بدايــة ربيع الآخر ٥٦٤ هـ(٩١) / ٨ يناير ١١٦٩ م(٩٢) • فخلع عليه الخليفة « الخلعة العاضدية وفرح به أهل مصر وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة »(٩٣) • أما شاور فقد بدأ يخادع شيركوه من جديد ويظهر له الود « تودد شاور الى أسد الدين وتردد ، وتجدد بينهما من الوداد ما تأكد »(٩٤) •

فقد كان شاور يخرج كل يوم الى معسكر شيركوه الذى كان موجودا أمام القاهرة فيقدم له فروض الود والمحبة الى جانب بعض الهدايا ، ويعود مرة أخرى الى القاهرة(٩٥) • وكان شاور يلحظ هوى العاضــد والشعب وميلهم لشيركوه ، فظل يماطل فى اعطــاء شيركوه المــال والاقطــاع المتفق عليــه مع تخصيص ثلث البــلاد لنور الدين(٩٦) • وكان الحقد قد أذهب صــوابه من جديد ودفعه الى مكاتبة الصليبيين حيث طلب منهم الحضــور بحملة برية بحرية

الى دمياط « يكون مجيئكم الى دمياط فى البحر والبر »(٩٧) . بل انه فكر فى التخلص من شيركوه لولا تدخل ابنه فى الأمر ومنعه من ذلك(٩٨) .

فلما أحس شيركوه ومن معه بمماطلة شاور لهم قرروا التخلص منه ، وبالفعل عهد شيركوه الى صـلاح الدين بتلك المهمـة فتم التخلص من شاور بقتله ، تنفيذا لرغباتهم الى جانب رغبـة الخليفة العاضد أيضا(٩٩) . « فحم حمامه وحمل الى القصر هامه وذلك يوم السبت سابع عشر ربيع الآخر »(١٠٠) .

عندئذ تقلد أسد الدين الوزارة ولقب بالملك المنصـور أمير الجيوش(١٠١) وقد اعتبر وليم الصورى أن شيركوه بوضعه الجديد، أصبح « سيدا لمصر كلها »(١٠٢) . ولم يستطع أن يخفى تحسره الشديد لذلك واعتبره فاصـلا بين عهدين مختلفين تماما بالنسبة لصالح مملكة بيت المقدس(١٠٣) .

والواقع أن شيركوه لم يستقر فى الوزارة سـوى شـهرين وخمسة أيام ، فقد توفى فى « الثانى والعشرين من جمادى الآخرة » سنة ٥٦٤ هـ(١٠٤) / ٢٣ مارس ١١٦٩ م(١٠٥) .

وبوفاة شيركوه ولى الخليفة العاضد ابن أخيه صلاح الدين مكانه فى الوزارة(١٠٦) . وذلك فى الخـامس والعشرين من شـهر جمـادى الآخرة ٥٦٤ هـ(١٠٧) . ولقبه بالملك النـاصر ، وكان مما كتبه العاضد فى منشور الوزارة لصلاح الدين : « فيومك واسطة فى المجدين : يومك وأمسك .. وكل ناد من أندية الفخار لك أن تقول فيه ، ولغيرك أن يمسـك ، فبشراك أن أنعمه منكم موصـولة بوالد وولد ، وان شـمس ملكه بكم كالشـمس أقوى ما كانت فى بيت أسـد »(١٠٨) .

وبتولى صلاح الدين الوزارة وزع على قواته كل ما جمعه أسد الدين فى حياته ، الى جانب جزء طلبه من الخليفة العاضد فأحبه الجميع(١٠٩) • فما زالت محبته غالبة على مهابته وهو يبالغ فى تقريبهم كأنهم ذوو قرابته »(١١٠) •

وبذلك خيب صلاح الدين آمال الخليفة العاضد وأمسك بيد من حديد على زمام الحكم فى مصر ، مما ترتب عليه أيضا سريان موجة من الذعر والقلق فى مملكة بيت المقدس بل فى كل الممالك الصليبية فى بلاد الشام ، والراجح أن ذلك الذعر ظهر بجلاء بعد تخلص صلاح الدين من مؤتمن الخلافة الذى كاد أن يعيد من جديد دور ضرغام وشاور ويستنجد بالصليبيين ضد صلاح الدين(١١١) •

وقد صور لنا وليم الصورى فى تلك السطور القليلة التالية مدى القلق الذى أصاب الصليبيين بتولى الأتراك حكم مصر : « كان خضوع مصر للأتراك أمرا غاية فى الخطورة بالنسبة لنا فقد أصبح وضعنا غاية فى السوء ، فاذا خرج نور الدين بأسطوله الضخم من مصر ، كان بامكانه أن يسد علينا منافذ المملكة وأن يحاصر كل المدن الساحلية بواسطة البر والبحر بجيشه • بالاضافة الى ذلك فانه كان بامكانه أن يعرقل وصول الحجاج الى بيت المقدس أو حتى يرفض السماح لهم بالمرور كلية »(١١٢) •

كما أعطانا (ستون) رأيا آخر عن نفس الموضوع حين قال : « تسببت الأحداث التى وقعت آنذاك فى قيام ثورة فى ميزان القوى فى الشرق • فقد انتهت الحماية الفرنجية على مصر بكل مميزاتها الاقتصادية والسياسية • واتحد مسلمو مصر وسوريا وبدأ تطويق الدويلات المسيحية الذى أثبتت السنوات التالية مدى خطورته »(١١٣) •

أما (ستانلى لين بول) فقد زودنا بتفسير ثالث لخطورة الوضع على الصليبيين حين قال : « ان مينائى دمياط والاسكندرية جعلا للمسلمين القيادة على الأسطول ، وجعلهم قادرين على قطع اتصالات الصليبيين بأوربا وعلى ايقاف سفن الحج السنوية كما وضع أيدى المسلمين على امدادات الصليبيين »(١١٤) .

والواقع أنه كرد فعل لتولي شيركوه الوزارة فى مصر مباشرة(١١٥) وبالتحديد فى بداية ١١٦٩ م تكونت سفارة اختيرت بالاجماع من المبرزين من أصحاب المكانة العالية فى الكنيسة ، توجهت من بيت المقدس الى أمراء الغرب المسيحيين مدفوعة ــ وفقا لتعبير وليم الصورى ــ « بهول المحنة » التى كانت مملكة بيت المقدس ترزح تحتها آنذاك . وحمل السفراء رسائل من الملك ومن كل القساوسة الى فردريك امبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك انجلترا ووليم ملك صقلية ، بل لكل النبلاء والكونتات البارزين فى الغرب وما ان أبحرت تلك البعثة برئاسة هرنسيوس Hernesius رئيس أساقفة قيصرية ووليم أسقف عكا حتى هبت عاصفة شديدة فى الليلة التالية مما اضطرهم للعودة بصعوبة بعد ثلاثة أيام بعد أن نجوا من حادث غرق سفينتهم . عندئذ تكونت سفارة أخرى من فردريك رئيس أساقفة صور ، وحنا أسقف بانياس ولقد وصلت تلك السفارة بنجاح الى الغرب ولكنها لم تحقق سوى نجاح جزئى فى المهمة التى عهدت اليها . فقد مات الأسقف فى باريس بعد وصوله الى فرنسا بفترة وجيزة وعاد رئيس الأساقفة بعد أن أمضى سنتين بالخارج دون أى نجاح فى مهمته(١١٦) .

والحقيقة أن الأوضاع السياسية فى غرب أوربا عندئذ لاسيما فيما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والامبراطورية ، حالت دون

تحقيق أمنية عمورى الأول ، فقد اتفقت تلك الفترة مع الدور الثانى من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية ٠وهكذا لم يبق أمام الصليبيين بالشـام سـوى الاتجاه الى دولة الروم وطرق أبواب القسطنطينية طالبين مساعدتها(١١٧) ٠

ولقد شجع عمورى على أن يتمسك بموقفه فى ضرورة الاستيلاء على مصر ، أن ظروف البلاد فى ذلك الوقت كانت مهيأة لنجـاح فكرته خصـوصا أنه كان يوجد بمصر عنـاصر مسـتعدة لتأييد الصليبيين ، ممثلة فى اتباع شاور القدماء بالاضافـة الى هؤلاء الذين تصارعوا للحفاظ على الحكم الفاطمى والذين كانوا موجودين داخل قصر الخليفة نفسه(١١٨) ٠

ومن حسن حظ الصليبيين أن امبراطور الروم مانويل كومنين لم يكلفهم مشقة تجديد طلب المساعدة منه فقد « كان يقظا ما فيه الكفاية للاتفاق الذى قطعه على نفسه » فى العام السابق ، وعليه فقد « أرسل الأسطول الذى وعد به وفقا لمتطلبات المعاهدة التى عقدها مع الملك » ، والتى كانت قد جاءت ـ مطابقة تماما لمقترحات الصليبيين ورغباتهم(١١٩) ٠

وبمعنى آخر كان امبراطور الروم « لايزال تواقا لانجـاز ما تعهد به فى الاتفاق الذى عقده من قبل مع وليم الصـورى فى سبتمبر ١١٦٨ م »(١٢٠) وعلى ذلك وجد الملك عمورى فى التعاون الذى وعد به الامبراطور مانويل كومنين(١٢١) ، ضالته المنشـودة ومطلبه الملح ، على عكس ما كان يظن خصـوصا بعد موقفه المتسرع فى حملته الرابعة كما أوضحنا من قبل ٠

وهكذا يفهم من كلام وليم الصورى ومن نقل عنه من مراجع أجنبية حديثة ، أن الامبراطور أرسل أسطولا من قبله دون أن

يطلب الملك ذلك ، أما ميخائيل السرياني فيعطينا رأيا آخر و حوليته هو أن الملك عمورى طلب من نسيبه وقريبه امبراطور الروم بعض القوات كي يسير ضد مصر وأن الامبراطور أرسلها له عن طريق البحر(١٢٢) • واذا كان وليم غير موجود فى مملكة بيت المقدس ١١٦٩ م فانه عرف تفاصيل الحملة من مصادر وثيقة(١٢٣)• بينما كان ميخائيل السرياني هو البطريرك اليعقوبى لأنطاكية من ١١٦٦ م حتى ١١٩٩ م(١٢٤) • الا أننا نميل الى الأخذ برأى وليم لأنه كان أكثر معرفة بمشاعر الامبراطور لأنه كان أحد أعضاء البعثة التى تفاوضت معه ١١٦٨ م •

ومهما كان الأمر فان وليم الصورى أعطانا وصفا تفصيليا للأسطول الذى أرسله امبراطور الروم للصليبيين فى ١٠ يوليو ١١٦٩ م فقال : أنه كان مكونا من مائة وخمسين سفينة منقارية الشكل ذات صفين من المجاديف • وكانت تسمى Galleys وكانت مصممة خصيصا للاستخدام الحربى • بالاضافة الى ستين مركبا كبيرا مسلحة تسليحا جيدا ، وكانت معدة لحمل الخيول •• وكان الأسطول يحتوى أيضا على عشرة أو عشرين سفينة من الحجم الكبير المسمى Dromones التى كانت مخصصة لحمل المؤن من كل نوع بكميات كبيرة الى جانب الآلات الحربية(١٢٥) •

ووضع الامبراطور على رأس ذلك الأسطول ثلاثة من كبار النبلاء هم Contostephanus, Megalducas أو grand duke وكان على صلة رحم بالامبراطور Maurice أو Theodore Maurozumes الذى كانت له منزلة عالية لدى الامبراطور الى جانب Conversana, Alexander of Crazina أحد نبلاء أبوليا Apulia ، والذى ورد اسمه من قبل فى السفارة التى أرسلت من قبل مانويل ١١٦٨ م الى ملك بيت المقدس •

وفى أواخر سبتمبر ١١٦٩ م دخل الأسطول الرومى ميناء صور ثم تقدم الى عكا (١٢٦) • ليكون تحت تصرف ملك بيت المقدس •

والواقع أن ذلك الأسطول كان قد توجه أولا الى قبرص وأرسل جزء صغير منه فقط الى عكا محملا بالاعانة المالية لقوات الملك ، وطلب من عمورى أن يرسل الى قبرص ليحدد التوقيت الذى يرغب أن يتحرك الأسطول فيه •

والحقيقة أننا اذا نظرنا الى تاريخ تحرك أسطول الروم من موانيه الأصلية(١٢٧) فى ١٠ يوليه ١١٦٩ م حتى دخول ميناء عكا فى أواخر سبتمبر من نفس السنة كما أشرنا من قبل نجد أن الأسطول تأخر عن القيام بمهمته حوالى شهرين يقال ان عمورى أعاد فيها المفاوضات من جديد مع الروم وكان مترددا خلالها(١٢٨)•

هوامش الفصـل الثاني

(١) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 428.

(٢) J. Prawer : Ibid., P. 438.

(٣) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 554.

(٤) Setton : Ibid., V. 1, P. 554, J. Prawer : Op Cit., T. 1, P. 438.

L. Bréhier : Vie et Mort, P. 339, Runciman : Op. Cit., V. 2, PP. 362, 377.

فبعد انفصال الملك عمورى عن زوجته الأولى Agnes دى كورتناى ـ أم بلدوين الرابع وايزابيلا ـ بتدخل الكنيسـة بسبب شدة القرابة بينهما ، أرسل عمورى بعثة الى القسطنطينية فعادت ومعها ماريا كومنين حيث قابلهم عمورى فى صور بعد عودته من مصر وهناك تم الزواج .

(٥) L. Bréhier : Vie et Mort, P. 339.

(٦) د. سـعيد عاشـور : بحوث ودراسـات .. ، ص ٢١١ عن Schlumberger : Campagnes du roi Amoury de de Jerusalem en Egypte.

هنا يذكر بروييه أن المفاوضـات فى ذلك الموضوع بدأت فى صـور فى فترة زواج الملك عمورى من ماريا كومنين وأن مبعوثى الامبراطور فى تلك المفاوضات كانا الكسندر الجرافينى Michel d'Otranté Alexandre de Conversano

(J. Prawer : Op. Cit., T. 1, PP. 438 — 439)

أما اميلى بابكوك Emily Babcick مترجمـة كتاب وليم الصورى الى الانجليزية فتشير فى احدى الحواشى الى أنه من الطريف أن يكون مبعوثا

الامبراطور مانويل من جنوب ايطاليا ، وأنه فى ذلك الوقت كان هناك العديد من الغربيين فى بلاط القسطنطينية وأن مانويل اعتمد عليهم فى الأحداث ذات الأهمية الكبرى .

(William of Tyre : A History of deeds done beyond the Sea V. 11, P. 347).

(٧) William of Tyre : Ibid., V. II, P. 348.

وفحواها « أن الامبراطور قد أدرك أن مملكة مصر التى كانت حتى الوقت الحاضر أى عهد عمورى ومانويل ـ قوية وغنيسة غنى مفرطا قد وقعت فى أيدى سلالة ضعيفة متخنثة ، وأن الشعوب المحيطة بها قد تيقنت من عجز وعدم قدرة الحاكم والأمراء .. وأن الامبراطور يعتقد أنه بمساعدة الملك يستطيع أن يضع مصر بسهولة تحت سيادته » .

(٨) J. Prawer : Op. Cit., T 1, P. 438, Runciman : Op . Cit., V. 1, P. 379, Stevenson : Op. Cit., P. 193, Setton : Op. Cit., V. 1, P 555.

(٩) William of Type : Op Cit., V, II, P. 348, L. Bréhier : Vie et Mort, P. 339.

(١٠) William of Tyre : Ibid., V. II, P. 348, Setton : Op. Cit., V. I, P. 555.

هنا يذكر وليم نفسه « أنه أضيف للوفد كأحد أعضائه بأمر الملك .. » وأنه فوض فى التوقيع على الاتفاق ، وربما دفع ذلك بريبه وبروييه الى القول بأن وليم كان رئيسا لتلك البعثة

(L. Bréhier : Vie et Mort, P. 339, J. Prawer : T. I, P. 439)

ولم يكن وليم هو المبعوث الوحيد للامبراطور ، كما أشارت دائرة المعارف البريطانية

(The New Encyclopaedia Britannica, V. 5, 1768, P. 302).

لأن وليم ذكر فى مكان آخر من كتابه : أنه انضم للمبعوثين الامبراطوريين الذين انتظروا قدومه فى طرابلس (William of Tyre : V. 11, P. 348)

(١١) William of Tyre : Ibid., V. 11, PP. 348 — 9.

هنا يذكر وليم « أن بلاد العرب هى البلاد الجبلية الواقعة بين

دلماشية وهنغاريا وايلليريا . وهى متشابكة الغابات ، صعبة الاجتياز .. ولذلك فاعتمادا على الطبيعة الجغرافية الصعبة لبلادهم والممرات الضيقة داخلها ، ثار الصرب ، وكانوا يستمدون أصولهم من المنفى أى لم يكونوا من سكان البلاد الأصليين ، وأنهم اقتيدوا الى تلك البلاد للعمل فيها كأرقاء فى المناجم ، وفى قطع أحجار الرخام ، وأنهم استمدوا اسمهم من حالة العبودية تلك .. خضع الصرب للامبراطور فى بعض الأحيان ، وفى أحيان أخرى ـ باعتبارهم شعوبا كانت فى الأصل شجاعة محبة للحرب ـ كانوا ينطلقون من جبالهم ويشيعون الخراب والدمار فى كل ما حولهم من أقاليم . ولقد اتجه الامبراطور ضدهم بجيش كبير ، بسبب الاعتداءات التى لا تحتمل التى ارتكبوها ضد جيرانهم » .

(١٢) William : Ibid., V. 11, P. 349.

ويضيف وليم هنا أن ذلك المكان كان قريبا من المدينة القديمة التى كانت تعرف فى الماضى باسم Justiniana Prima التى كانت الموطن الأصلى للامبراطور جستنيان ... والتى كانت تعرف آنذاك باسم Ochrida أو Acreda أما برويه ورنسيمان فيذكران أن البعثة التقت بالامبراطور فى البلقان فى مدينة Monastir

(J Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 439, Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 379).

(١٣) William of Tyre : Ibid., V. II, P. 349, Setton : Op. Cit., V. 1, P. 555.

يذكر لنا وليم هنا أنهم زودوا بخطابات امبراطورية تحوى النص الكامل للمعاهدة فى صيغتها النهائية ، وانهم انصرفوا محملين بالهدايا القيمة وفقا للعادة المتبعة آنذاك .

(١٤) L. Bréhier : Vie et Mort, P. 339.

(١٥) William of Tyre : Op. Cit., V, 11, PP. 349 — 350, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 439, The New Encyclopaedia Britannica, V. 5. 1768. P. 302.

(١٦) J. Prawer : bid., T. 1, P. 439.

(١٧) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 555.

(١٨) William of Tyre : Op. Cit., V 11, P. 350.

وقد أخطأ وليم الصورى هنا فى تسمية شاور بسلطان مصر .

(١٩) ثمة رأى يقول أن جذور هيئة الاسبتارية ترجع الى ما قبل قيام الحروب الصليبية ، عندما أسس بعض تجار مدينة أمالفى سنة ١٠٧٠ جمعية خيرية فى بيمارستان قرب كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، للعناية بفقراء الحجاج ، ومن ثم أطلق عليهم اسم فرسان المستشفى Hospitallers التى حرفت بالعربية الى اسبتارية . ولم يلبث أولئك الاسبتارية أن دخلوا تحت لواء النظام الديرى البندكتى المعروف فى غرب أوربا ، وصاروا يتبعون البابا فى روما تبعية مباشرة . وعند وصول الصليبيين الى بيت المقدس وحصارهم لها ، قام أولئك الاسبتارية - بحكم درايتهم بأحوال البلاد - بتقديم مساعدات قيمة للصليبيين . ومنذ ذلك الوقت أخذت هيئة الاسبتارية تتبلور ويصبح لها كيان ثابت مستقل ونظام خاص بها . وقد تعاقب فى رئاسة تلك الهيئة بعض الرؤساء المصلحين الذين عملوا دائما على اكساب منظمتهم أهمية خاصة فى النشاط الصليبى . وساعد الاسبتارية على ذلك حصولهم على كثير من الأراضى والاعانات ، فضلا عن ان كثيرا من كنائس بيت المقدس خصصت عشر دخلها لمساعدة الاسبتارية على النهوض برسالتهم . وهكذا لم تخل سنة ١١٣٧ الا وكان للاسبتارية دور فعال فى محاربة المسلمين . (د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٥٠١) .

(٢٠) William of Tyre : Ibid., V. 11, P. 350, L. Bréhier : Vie et Mort, P. 339.

ويعقب بريبه على تصرف عمورى هذا بأنه كان « غلطة كبيرة » ارتكبها وأدت الى تحول مصر الى سيادة نور الدين وممثله الحقيقى صلاح الدين . أما وليم الصورى فيذكر أن Gerbert وكنيته Assallit سيد بيت الاسبتارية فى بيت المقدس « كان المحرك الأول لتلك الحملة السيئة المصير . وأنه كان رجلا ذا روح عالية ، شديد الكرم لكنه متردد متذبذب فى أخلاقه . فبعد استنفاد كل ثروات الاسبتارية اقترض مبلغا كبيرا من المال وأنفقه كله على فرسانه الذين حشدوا له من كل مكان ، وبذلك أصبح فرسانه مكبلين بدين ثقيل ، يبلغ حوالى مائة الف دينار . وقد قيل أنه انفق تلك المبالغ الهائلة على الاتفاق الذى عقد بينه وبين الملك على أساس انه اذا استولى الملك على مصر يكون نصيب رئيس الاسبتارية هو مدينة بلبيس » .

(٢١) Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 379.

(٢٢) يرجع تأسيس هيئة الداوية الى ١١١٨ م عندما وضع أساسها فارس فرنسى اسمه هيودى باينز ، وقد اختار هيو جزءا من هيكل سليمان فى المسجد الاقصى ببيت المقدس ليكون مقرا لمنظمته الجديدة . ومن ثم اطلق على أتباعها اسم فرسان المعبد Tempiars التى حرفت فى العربية الى الداوية . ثم ذهب هيو الى فرنسا وانجلترا لحث الفرسان على الانضمام لهيئته وبالفعل أصبحت تضم نخبة ممتازة من الفرسان والنبلاء الذين جمعوا فى الأراضى المقدسة بين الحياة الدينية والحياة العسكرية . (د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ، ص ٥٠١ — ٥٠٢) .

(٢٣) William of Tyre : Op. Cit., V. 11, PP. 350 — 351.

هنا يعزى رنسيمان رفض الداوية هذا الى أنهم كانوا يحسدون الاسبتارية لانهم شرطوا على عمورى أن يعطيهم مدينة بلبيس مكافاة لهم على مساعدته فى ذلك المشروع . وهى فى الحقيقة كانت فى مقابل قلعة غزة التى كانت بيد الداوية فعلا .
(Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 380)

(٢٤) Norman Daniel : The Arabes and Mediaeval Europe, P. 197.

(٢٥) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢١٢ .

د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٩٥ . عن
(Chalendon : Les Commens II).

(٢٦) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢١٢ .

(٢٧) ابن الأثير الباهر ، ص ١٣٧ .

(٢٨) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 429.

(٢٩) د. عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢١٢ ، د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٩٠ ولو أن ستيفنسون يرى هنا أن عمورى كان غير راض عن الضريبة السنوية التى يدفعها « سلطان مصر » ، وأنه كان يطمع فى امتلاك مصر كلية .
(Stevenson : Op. Cit., P. 193)

(٣٠) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٣ .

(٣١) Michel Le Syrien : Recueille des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, T. 1, P. 363.

(٣٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٤ .

The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, P. 293.

ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الفرات : تاريخه مجلد ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٠ .

(٣٣) ابن واصل : المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

(٣٤) William : Op. Cit., V. II, PP. 350 — 351.

(٣٥) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 437.

(٣٦) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢٨ ، البنداري : سنا البرق الشامي ، ق ١ ، ص ٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الفرات : تاريخه م ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٠ ، هنا ينقل لنا البنداري تعبير العماد في البرق الشامي في هذا المعنى بقوله « شايعهم على قصدهم من أعيان مصر جماعة ما كانت للمصريين عليهم طاعة وشاوروا الفرنج على شاور لانهم أعداؤه وأغداهم داؤه وهم ابن الخياط وابن قرجله وأمثالهم » .

J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 437.

(٣٨) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٧ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، جـ ١ ، ص ١٩ .

هنا يعقب أستاذنا الدكتور سعيد عاشور على ذلك القول بأنه مما يشرف مصر وتاريخها أن الملك عمورى والصليبيين عملوا حسابا لعامة أهل مصر وفلاحيها في الوقت الذى كانوا يعلمون جيدا مدى انحلال حكام مصر وضعف حكومتها (د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢١٣)

(٣٩) يذكر ابن العبرى أن ذلك فيه هلاك الصليبيين لانهم سيحصرون بين هؤلاء الموجودين في داخل مصر وبين قوات نور الدين في الخارج ، وبذلك لا يستطيعون الاستيلاء على مصر .

The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, P. 293.

(٤٠) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ١٩ .

(٤١) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ الدر المطلوب .. ص ٢٩ : ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ١٩ .

(٤٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٣٨ .

وربما يظهر لنا ذلك الطمع فى أرض مصر بصورة أوضح اذا رجعنا الى ما دونته المصادر الاسلامية من أن الملك عمورى أحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لفرسانه وفرق قراها على جنوده . وهنا يذكر أبو شامة أن عمورى كان قد عرف أسماء القرى المصرية كلها عن طريق بعض أصحابه الذين صحبوه الى مصر . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٩ ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ١٩) .

(٤٣) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ : ص ٧٤ .

(٤٤) William of Tyre : Op. Cit., V. 11, P. 351, Stevenson : Op. Cit., P. 193.

ولقد ذكرنا من قبل وفقا لرواية وليم الصورى نفسه أنه كان قد بدأ هو ورفاقه رحلة العودة الى بيت المقدس أول أكتوبر ١١٦٨ م أى أنه لم يكن موجودا بالملكة عند خروج الملك بتلك الحملة

(William : Ibid, V. 11, P. 349)

(٤٥) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ،

The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, P. 293.

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

(٤٦) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ ، أبو شامة : الروضتين : ج ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

(٤٧) William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 351, Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 381.

(٤٨) Michel Le Syrien, : (R.H.C.), Documents Arméniens, T. 1, P. 363.

(٤٩) William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 351.

هنا يضيف وليم الصورى نفسه أن الذين قتلوا كانوا الشباب القادرين على حمل السلاح . أما من استطاع الفرار من الموت بأى وسيلة فقد فقد حريته ووقع تحت نير العبودية ... وهو شيء أشد قسوة على النفس ، خصوصا اذا كان الشخص من أصحاب المرتبة العالية ، ومن أمثلة ذلك ابن شاور وحفيده ، والواقع أن شهادة وليم الصورى هذه تدلنا دلالة واضحة على مدى الجور الذى تعرض له أهل بلبيس آنذاك . ويقال أن أسرى بلبيس ظلوا « أكثر من أربعين سنة فى أسر الفرنج » (أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٧٠ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٣) .

(٥٠) Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 381.

ويقال أن عددا كبيرا من الضحايا « كانوا من المسيحيين الوطنيين »

Setton : Op. Cit., V. 1, P. 555.

(٥١) Runciman : Ibid, V. 2, P. 331.

(٥٢) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ ، أبو شامة الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٧ .

(٥٣) J. Parwer : Op. Cit., T. 1, P. 440.

استقروا بجوار باب خطة البرقية فى شرق القاهرة .

(٥٤) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٤ ، ابن الفرات : تاريخه : م ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٤ .

(٥٥) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٤ ، ١٧٠ — ١٧١ .

Michel Le Syrien : (R.H.C.) Documents Arméniens, T. 1, P. 363.

هنا يضيف أبو شامة عن صاحب كتاب السيرة الصلاحية ، ص ١٧١ من الروضتين أن شاور أرسل الى عمورى رسولا بعد اشعال النار فى مصر مباشرة وقال له « هذا دخان مصر وما أتيت الا وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نفط وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل وما بقى فيها ما يؤمل بقاؤه ونفعه » .

(٥٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

هنا يذكر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٢٥٠ أن شاور أخرج « من كان بمصر من الفرنج بعد أن أساء فى حقهم قبل ذلك ، وقتل منهم جماعة كبيرة وهرب الباقون » ثم أمر بعد ذلك بانتقال أهل مصر الى القاهرة .

(٥٧) ابن الأثير : الباهر . ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ٢٤ ، ويذكر المصدر الأخير أن أجرة الجمل الى القاهرة بلغت ثلاثين دينارا .

(٥٨) أبو شامة : الروضتين ، ج أ ، ص ١٧٠ ، ابن الفرات : تاريخه : م ٤ ، ج ١ ، ص ٢١ وهنا يضيف المصدر أنه عندما وصل عمورى الى الداروم كان شاور قد أرسل اليه يسأله عن سبب قدومه تلك المرة ، فرد عليه بقوله « أنه قدم وفقا لما تقرر بينهما وأنه جاء لأخذ ما قرره له كل عام » فأجابه شاور أن الذى قرره جعله متى احتاج اليه أو اذا قدم عليه عدو « واما مع خلو بالى من الاعداء فلا حاجة لى اليك ولا لك عندى مقرر » فأجابه عمورى بأن لابد من حضوره وأخذ المقرر . عندئذ تيقن شاور من غدر عمورى .

(٥٩) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ . هنا يذكر ابن العبرى خطأ أن الذى أرسل شعور نسائه هو « أسد Asad » خليفة مصر . والراجح أنه خطأ بين اسم العاضد وبين أسد الدين شيركوه .
The Chronography of Bar Hebraeus V. 1, P. 283.

(٦٠) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ... ، ص ٣٠ . فهو يفصل ذلك هنا بقوله : « انتشر اللاعبين فى سائر الأعمال ، وعادوا يأخذون حريم أهل مصر وينزلون فى الزوارق ما بين مصر والجزيرة ويشربون عليهم الخمور ويفسقون فيهم ... » .

(٦١) ابن الأثير : الباهر، ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، هنا يذكر ابن العبرى أنه استغرق شهرين فى تجهيزها .
The Chronography of Bar Hebraeus V. 1, P. 283.

(٦٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

(٦٣) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، البندارى : سنا البرق الشامى ق ١ ، ص ٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٥٨ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٥ .

(٦٤) William of Tyre : Op. Cit., V. 11, P. 352.

(٦٥) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ .

(٦٦) The Chronography of Bar Hebraeus V. 1, P. 294.

(٦٧) William of Tyre : Op. Cit., V. 11, P. 353, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, PP. 440 — 441.

(٦٨) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ — ٧٥ .

(٦٩) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٨ — ١٣٩ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٨ .
Pnawer. Op. Cit., T.I. P. 441.

(٧٠) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٨ .

(٧١) البنـدارى : سنا البرق الشـامى ... ق ١ ، ص ٧٥ — ٧٦ . أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٥ . وهنا يذكر أبو شامة أن أسد الدين عندما وصلته كتب المصريين بخبر الصليبيين « بقى مسلوب القرار مغلوب الاصطبار لانه كان قد طمع فى بلاد مصر فخـاف خروجها من يده وأن يستولى عليهـا الكفر فساق فى ليلة واحدة من حمص الى حلب » عندئذ تعجب نور الدين الذى كانت الأخبار قد وصلته منذ وقت قليل ، وفى نفس الوقت تفاءل بها وشـكر أسد الدين وأمره بالتجهز لحرب الصليبيين . أما ابن واصـل فيذكر انه عندما خرج رسول نور الدين من حلب الى حمص كى يطلب من أسد الدين التجهز للحرب كان أسد الدين نفسه قد وصـل الى حلب (ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٨) .

(٧٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٩ . وهنا يشير ابن شداد أن نور الدين لم يخرج بنفسه اليها لانه كان مشغولا بالموصـل التى توفى حاكمها زين الدين على بكتكين فى ذى الحجة ٥٦٣ هـ وسلم ما كان بيده من الحصون الى قطب الدين أتابك ما عدا اربل التى كانت له من أتابك زنكى ، لذلك طمع نور الدين فى أخذها . أما عن عدد القوات التى صحبت شيركوه فى حملته تلك فكان عددها يقدر بـ ٨٠٠٠ فارس

(٧٣) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 441.

فصلها لنا ابن واصـل فى كتابـه : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٨ بأن

أسد الدين اختير من قوات نور الدين الفى فارس وجمع من التركمان ستة الاف فارس . أما اليافعى : مرآة الجنان ، جـ ٣ ، ص ٢٧٤ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٧ فالراجح أنهما أخطأ عندما ذكرا أن عدد القوات كان سبعين ألفا ما بين فارس وراجل . أما الذهبى : دول الاسلام ، جـ ١ ، ص ٧٧ فقد انفرد بالقول بأن عدد القوات كان عشرة آلاف فارس وخمسين ألف راجل .

(٧٣) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢٩ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٩ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٥ ،

Gibb : Op. Cit., P. 5, L. Bréhier : Vie et Mort... P. 339.

هنا يذكر أبو شامة أن أسد الدين طلب من ابن أخيه صلاح الدين المسير معه الى مصر فكان كمن ضرب قلبه بسكين . فقال له والله لو أعطيتنى ملك مصر ما سرت اليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبدا ، عندئذ طلب أسد الدين من نور الدين أن يأمره بمصاحبة عمه ففعل فكان صلاح الدين كمن يساق الى الموت .

(٧٤) William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 354, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 441, Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 381, Setton : Op. Cit., V. 1, P. 556.

د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ص ٢١٥ . عن Schlumberger

وهنا يذكر رنسيمان أن الجيش الصليبى كان يعسكر فى ذلك الوقت فى المطرية وأنه مكث هناك ثمانية أيام ثم وصلت أخبار جيش شيركوه (Runciman : V. 2, P. 382)

أما وليم الصورى فيفصل لنا الحديث عن جانب من تصرفات بعض أمراء الصليبيين الشاذة ويخص بالذكر Milon de Plancy يمثل الرجل الذى لا حياء عنده ، الرجل الذى يهوى المنازعات وتشويه سمعة الغير ، والذى كان دائما وأبدا نشطا فى اثارة المشاكل . فقد نصح الملك بالاحتيال على « المملكة المصرية » وأن يأخذ المال المتفق عليه منها ، ثم يعمل بعد ذلك على الدخول فى اتفاق جديد مع شاور والخليفة بدلا من مهاجمة القاهرة . وكان رأيه يرتكز على أنه اذا أخلت القاهرة بالقوة فسوف يستولى كل فرد من الجيش الصليبى على ما يقع تحت يده من غنيمة ، أما اذا دخلها

الملك وفقا لاتفاق معين فسوف يضع الملك يده على كل شيء ، عندئذ يوزعه على كبار رجال مملكته ومنها بالطبع ملون البلنسى نفسه .
(William : Ibid, V. II, P. 355)

(٧٥) William of Tyre : Ibdi, V. II, P. 354.

هنا يذكر وليم « أن شاور ذكرهم بما حدث للمدينة المجاورة من كارثة مروعة ـ وهو يقصد بذلك ما حدث فى بلبيس ـ وذكرهم أيضا بمرارة العبودية حتى يقفوا معه قلبا وقالبا » .

(٧٦) William : bid, V. II, P. 356.

(٧٧) ابن شداد : النوادر السلطانية ... ، ص ٣٩ .

(٧٨) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 441.

(٧٩) The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, P. 294.

(٨٠) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٩ .

(٨١) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 441.

(٨٢) William : Op. Cti., V. II, P. 356, J. Prawer : Ibid, T. 1, P. 441.

(٨٣) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٩ .

(٨٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ... ، ص ٣٩ .

(٨٥) البندارى سنا البرق الشامى ... ق ١ ، ص ٧٧ . عن العماد الاصفهانى .

(٨٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٦٠ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٨ .
J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 441.

(٨٧) البندارى : سنا البرق الشامى ... ق ١ ، ص ٧٧ .

(٨٨) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٩ .

(٨٩) Stevenson : Op. Cit., P. 194.

(٩٠) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 430.

(٩١) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٩ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٦١ ، أما ابن خلدون : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٧٨ فينفرد بالقول بأن ذلك كان فى جمادى ٥٦٤ هـ والراجح أنه كان فى ربيع .

(٩٢) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 442, Stevenson : Op. Cit., P. 194.

(٩٣) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٩ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦١ .

(٩٤) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١٠ ، ص ٧٧ .

(٩٥) William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 357.

(٩٦) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٩ — ١٤٠ .

(٩٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ (القاهرة ١٩٢٥) ، ص ٣٥١ .

(٩٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦١ ، أبو المحاسن : المرجع السابق ، ص ٣٥١ .

(٩٩) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٣٩ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، ص ١٧١ — ١٧٢ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٤ — ٣٥ ، اليافعى : مرآة الجنان ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ .

William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 359, The Chronography of Bar-Hebraeus, V. 1, P. 494, Gibb : Op. Cti., P. 6.

هنا يستخدم وليم الصورى فى التأريخ لذلك الحادث تعبيرات غريبة حيث يطلق على شيركوه اسم وزير الموت Minister of Murder وعلى صلاح الدين وأعوانه فى قتل شاور اسم عملاء الموت Agents of death أما ابن العبرى فيسمى الخليفة العاضد خطأ باسم (أسد) كما سبق الذكر. اما أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧١ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٧٩ ، فيوضحان أن الخليفة العاضد كان أول من أوحى الى شيركوه بفكرة التخلص من شاور .

(١٠٠) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٨ .

(١٠١) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٠ ، البندارى سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٨ — ٧٩ ، ابو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

هنا كتب البندارى عن العماد الاصفهانى أنه بمجرد وصول تلك البشرى الى الشام كتب العماد الى شيركوه مهنئا :

بالجـد أدركت ما أدركت لا اللعب　　كم راحـة جنيت من دوحة التعب
افخر فـان ملوك الأرض قاطبـة　　أفلاكهـا منك قـد دارت على قطب
فتحت مصر وأرجو أن تصـير بها　　ميسرا فتح بيت القـدس عن كثب

أما أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٧٢ فقد كتب عن ابن أبى طى صاحب السيرة الصلاحية أن نور الدين أظهر قلقه لتولى شيركوه الوزارة الفاطمية للعاضد وظهرت الكراهيـة منه لذلك فى ألفاظه ووجهـه . ويعقب أبو شامة على موقف نور الدين هذا بأنه ربمـا خاف من ميل شـيركوه الى المصريين ومذهبهم الشيعى وبذلك يفسد جنده عليه . ومن الراجح أن ابن أبى طى كتب ذلك لانه كان متحاملا على نور الدين الذى نفى أباه من حلب لانه كان من رؤوس الشيعة ، كما روى أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٧٤ . أما أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٥٢ — ٣٥٣ فقد أورد نصـا لمنشور الوزارة الذى أرسله العاضـد الى شيركوه وكان بخط القاضى الفاضل .

(١٠٢) William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 357.

(١٠٣) William of Tyre : Ibid., V II, Pk 358.

« كان العهد الأول — يقصد به عهد شاور — عهد الهدوء فى الجبهـة الصليبية والرخاء والتبادل التجـارى الهادىء مع مصر ، ففيه كان المصريون يفدون الى المملكة لزيارتهم مما كان يعود عليهم بفائدة كبرى ويشرفهم فى نفس الوقت ، الى جانب ان ما كان يحمل من جانبهم كل عام من مال كان يثرى خزانة المملكة . أما فى عهد شيركوه فقد أصبح الأمر على عكس ما كان عليـه فكل شىء تغير للأسوأ فلم يعد هنـاك معبر هادئى بالبحر ، وأصبحت كل المناطق المحيطة بالمملكة خاضعة للعدو ، وكانت كل الممالك المجاورة تستعد لتحطيمهم ».

(١٠٤) ابن الأثير : البـاهر ، ص ١٤١ ، ابن شـداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٠ البندارى : سنا البرق الشامى ... ، ق ١ ، ص ٨١ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦٠ ، ابن أيبك : كنز الدرر ... ، جـ ٧ ، ص ٣٧ .

هنا يذكر البندارى ان وفاته كانت يوم الاحد أما ابن أيبك فيقول يوم الأربعاء بينما تذكر بقية المصادر الأخرى أن ذلك كان يوم السبت .

واذا كان ابن الأثير وابن شداد وأبو شامة يذكرون أنه توفى بعد حوالى شهرين من تقلده الوزارة ، فان ابن أيبك يذكر أن وفاته كانت بعد ثمانية أشهر من توليه لها . أما وليم الصورى فيقول أن ذلك كان بعد سنة .
William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 358.

بينما يذكر ابن خلدون أن هناك رأيا يذكر أنه توفى بعد أحد عشر شهرا . (ابن خلدون : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٧٩) والراجح أن ذلك كان بعد شهرين .

وبينما يذكر ابن شداد وأبو شامة أن سبب وفاته كان مرض الخانوق ، يشير ابن العبرى الى أن سبب الوفاة كان مرض تقطر البول .
The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, P. 295.

بل أن هناك رأيا فريدا لا نرجح صحته لابن الفرات : تاريخه : م ٤ ، جـ ١ ، ص ٥٤ . يذكر فيه أنه قيل أنه مات مسموما .

(١٠٥) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 442, Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 383.

(١٠٦) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٢ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ص ٨١ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦٠ — ١٦١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٦٨ . وهنا يذكر ابن الأثير وأبو شامة ان الذى حمل العاضد على تولية صلاح الدين هو أنه ظن أنه اذا ولاه « وليس له عسكر ولا رجال ، كان فى ولايته مستضعفا يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة » . ويضيف أبو شامة أن صلاح الدين وافق على مضض ، ويعقب على ذلك بقوله « أن الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بسلاسل » . والواقع أن الخليفة العاضد كان يعلم تماما أن شخصية صلاح الدين فى حد ذاتها من الشخصيات التى يمكن الاعتماد عليها فى الجهاد والذود فى بيضة الاسلام لما له من قدرات تؤهله لذلك ، وهو ما أشير اليه فى منشور توليه الوزارة « والجهاد أنت رضيع دره وناشئه حجره وظهور الخيل مواطنك وظلال الخيام مساكنك ... » أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦١ عن العماد الاصفهانى .

(١٠٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

(١٠٨) البندارى : سنا البرق الشامى ... ، ق ١ ، ص ٨١ .

(١٠٩) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٢ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦١ .

The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, P. 295.

ولا عبرة هنا بما ذكره وليم الصورى

(William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 359)

من أن صلاح الدين قتل الخليفة عندما كان فى احدى زياراته لتقديم فروض الولاء والطاعة له ، بل قتل معه أيضا كل أبنائه ما عدا واحدا فقط وأخذ كل ما يملك وقدمه ببذخ زائد لقواته ، لذلك لم تمض سوى أيام قليلة حتى كانت الخزائن خالية ، حتى خزائن الثياب أيضا . ثم اقترض ممن حوله بعد ذلك وأصبح مكبلا بدين ثقيل . والراجح أن وليم الصورى خلط بين قتل صلاح الدين لشاور بالحديث عن مقتل الخليفة ثم استنتج بعد ذلك استنتاجا خاطئا هو أن صلاح الدين أخذ أموال الخليفة وأنفقها على قواته ، وهو ما لم نقرأ عنه فى أى مصدر من المصادر العربية حتى التى تناولت صلاح الدين أحيانا بشيء من الغمز مثل ابن الأثير .

(١١٠) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦١ .

(١١١) عن مؤتمن الخلافة وحركته والتخلص منه أنظر أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٧٨ .

(١١٢) William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 360.

وهو يسمى نور الدين هنا « عدونا الأكثر قوة » .

(١١٣) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 556.

(١١٤) Stanly Lane Poole : Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem, P. 103.

(١١٥) هنا يذكر لنا ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ (١٩٦٦) ص ٣٥١ . ان السفارة التى أرسلت للغرب كانت قد تحركت لاداء مهمتها فى عهد أسد الدين . وكان ذلك فى يناير ١١٦٩ ولكنها رجعت بعد وفاته فى مارس ١١٦٩ م .

Cam. Med. Hist., V. IV. Part 1, P. 236.

أى بعد أن خلفه صلاح الدين .

(١١٦) William : Op. Cit., V. II, PP. 360 — 361.

وإذا كان وليم الصورى قد أفادنا بأن الغرب لم يقدم شيئا من المعونة لعمورى آنذاك ، فان المصادر العربية ذكرت أن الصليبيين عندما أرسلوا الى الأندلس وصقلية وغيرها لطلب المعونة أمدوهم بالمال والرجال والسلاح ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٣ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، وأشار ابن خلدون فى تاريخه ، ج ٤ ، ص ٨٠ الى ذلك بأنهم « جاءهم المدد من كل ناحية » لكن الراجح أن المصدر العربى خلط هنا بين الغرب وبين دولة الروم التى أمدت الصليبيين بالنجدة الحقيقية كما سنرى فيما بعد .

(١١٧) د. عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢١٩ ، قدرى قلعجى : صلاح الدين الأيوبى ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(١١٨) J. Prawer : Op. Cit., T. I, P. 442, Stanley Lane-Poole : Op. Cit., P. 103.

(١١٩) William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 361.

(١٢٠) Setton : Op. Cit., V. I, P. 556.

(١٢١) J. Prawer : Op. Cit., T. I, PP. 442 — 443.

(١٢٢) Michel Le Syrien (R.H.C.) Documents Arméniens, T. 1, P. 369.

(١٢٣) William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 369.

(١٢٤) Grousset : L'Empire du Levant, P. 312.

(١٢٥) William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 361.

أما ستانلى لين بول وستيفنسون فيذكران أن الروم أرسلو للصليبيين أسطولا مكونا من مائتى سفينة

Stanley Lane Poole : Op. Cit., P. 103, Stevenson : Op. Cit., P. 196.

(١٢٦) William of Tyre : Op. Cit., V II, PP. 361 — 462.

(١٢٧) يشير رنسيمان أن الأسطول الامبراطورى تحرك من Hellspont

Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 385.

(١٢٨) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 443, D. Bréhier : Vie et Mort, 339.

هنا يتساءل برويه هل كان سبب ذلك التردد ناتجا عن اختيار بقعة الهجوم ؟ أو عن برنامج الرحلة ؟ هل جاء ذلك التردد نتيجة رغبة عمورى فى التراجع عن الحملة والبحث عن وسيلة للاختفاء ؟ ثم يشير برويه الى إنه ليس له رد عن تلك الأسئلة . أما عن نتيجة ذلك التأخر فهى أن صلاح الدين عرف الاستعدادات الصليبية عن طريق الرسائل المتبادلة بينهم وبين مؤتمن الخلافة (رئيس ديوان) قصر الخليفة والتى وقعت بين يديه ـ كما سبق الذكر ـ وانه استعد لمواجهة الصليبيين وحلفائهم الروم .

(J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 443)

وقد حدد لنا رنسيمان تاريخ التخلص من مؤتمن الخلافة بـ ٢٠ اغسطس ١١٦٩ م

(Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 386)

الفصـــل الثـــالث

الهجوم الصليبى الرومى على دمياط
٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م

رأينا كيف اجتمعت القوات الرومية والصليبية فى شـــواطىء بلاد الشام استعدادا للهجوم على مصر التى كانت تمثل فى نظرهم بؤرة الخطر على الوجود الصليبى فى ذلك الوقت ، خصوصا بعد تولى صـــلاح الدين الأيوبى ـ الذى كان يعشـــق الجهاد(١) ـ الوزارة فى مصر · وبذلك أصبحوا مطوقين من الشمال من ناحيـــة نور الدين ، ومن الجنوب والغرب من ناحية صلاح الدين ·

بدأ الملك عمورى استعداداته لحملتـــه الخامســـة على مصر والتى يشير اليها برويبه بأنها كانت « آخر محـــاولة بدون أمل لتغيير مجريات الأمور »(٢) ·

لم يستطع عمورى ان يتخذ قرار الهجوم على مصر فور وصول الأسطول الرومى المرســـل اليه من قبرص · لأن حملة ١١٦٨ م كانت قد أحدثت اضطرابا شديدا فى قواته · فقد كانت خســـائر

الاسبتارية هائلة فى حين ظل الداوية على رفضهم للمشاركة فى أى حملة بالاضافة الى أن البارونات كانت تجربتهم السابقة غير مشجعة بالمرة(٣) · ولكى يغرى عمورى فرسان الاسبتارية على مساندته فى مشروعه الكبير أصدر مرسوما مهما فى ١١ أكتوبر ١١٦٩م يقضى بمنح الاسبتارية جزءا مهما من ايراد مصر ونسبة ضخمة من دخل أهم المدن المصرية مثل الفسطاط وتنيس ودمياط والمحلة والاسكندرية وقوص وأطفيح وأسوان والفيوم(٤) · وهكذا لم يستطع عمورى أن يستدعى الأسطول الرومى الى عكا الا فى آخر سبتمبر ·

ويقال أن ميناء عكا لم يستطع استيعاب ذلك الأسطول ، لذلك ظلت بعض القوارب بين نهر النعمان والميناء(٥) ·

هنا يعلق (ستون) على عظمة أسطول الروم آنذاك بقوله : « أن الأسطول والمعدات التى جاءت معه كانت أكثر عظمة مما كان الامبراطور قد تعهد بارساله للصيليبيين ، وقد أعاد ذلك القيادة المسيحية على البحر »(٦) ·

وبعد أن اطمأن عمورى على شئون المملكة ، وذلك بترك قوة من الفرسان لحمايتها خلال فترة غيابه من هجمات نور الدين(٧) · أمر « كل الجيش الصليبى والرومى » بالاجتماع فى ١٥ أكتوبر ١١٦٩م فى عسقلان وكان أسطول الروم قد أبحر قبل ذلك بعدة أيام واتجه نحو الأراضى المصرية(٨) ·

وهنا نتوقف قليلا عند عبارة « كل الجيش الصليبى والرومى » التى ذكرها وليم الصورى فنرى فيها ما يؤكد ان الروم شاركوا بقوة برية الى جانب الأسطول البحرى الذى أرسلوه للصليبيين ، وقد أيد ذلك ما ذكره (ستانلى لين بول) من أن

الأسطول الذى أرسله الروم للصليبيين ، كانت تعاونه قوة برية لها ثقلهـا(٩) .

ويقال أن قائد الأسطول الرومي كان غاضبا أشـد الغضب لتأخر تحركهم الى مصر وأنه عرض على عمورى أن ينقل معظم قوات الجيش الصليبى بواسطة سفنه ولكن عرضـه قوبل بالرفض . ومن المرجح أن غضب قائد الأسطول كان راجعا الى أن التموين الذى كان قد زوده به الامبراطور كان يكفى فقط لمدة ثلاثة شهور ، ظنا منه أنها حملة قصيرة ، ولكن لم تلبث الشهور الثلاثة أن قاربت على الانتهاء دون أن يتخذ الملك عمورى أى خطوة ايجابيـة بالنسـبة المحملة المرتقبة(١٠) .

وفى ١٦ أكتوبر ١١٦٩ م بدأ الجيش المشـترك التحرك من عسقلان ، وبعد مضى حوالى تسعة أيام وصـل الجيش البرى الى الفرما فوجد اسطول الروم قد وصـل اليها أيضـا وعن طريق المجدفين عبر الجيش الى الشـاطىء المواجـه الى تنيس ثم بعد مسيرة يومين وصل الى دمياط وذلك فى ٢٧ أكتوبر(١١) أوائل صفر ٥٦٥ هـ(١٢) وبدأ الجيش فى حصارها بالفعل ولكنه لم يبدأ الهجوم انتظارا لوصول الأسطول الرومى الذى تأخر وصوله ثلاثة أيام بسبب « هبوب رياح عاتية » . أعاقت حركته بعض الشيء وفى النهايـة هـدأت الأمواج ووصـل الأسـطول عند مدخل النهر(١٣) . حيث أعاق تحركه الى الميناء نفسه سلاسل حديدية على جانبيها برجان حصينان(١٤) .

هنا نتساءل عن سبب توجه الصليبيين وحلفائهم تلك المرة الى دمياط بالذات ؟

وللرد على هـذا السؤال هناك اجابتان : احداهما لابن الأثير والأخرى لابن شداد . فابن الأثير يذكر أنهم استعدوا للنزول الى

دمياط « ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهرا يملكون به ديار مصر »(١٥) . أما ابن شداد فيذكر أنهم أرادوا قصد دمياط « لتمكن القاصد لها من البر والبحر ولعلمهم أنهم ان حصلت لهما حصل لهم مغرس قدم يأوون اليه»(١٦) .

وقد اصطحب الصليبيون والروم معهم « المنجنيقات والدبابات والجروخ وآلات الحصار وغير ذلك »(٧١) .

هنا يذكر ابن الفرات « نزل الفرنج على دمياط .. فى عالم عظيم لا يدر حصره ، وكان وصولهم فى ألف ومائة مركب ما بين شينى ومسطح وطريدة »(١٨) والراجح أن ابن الفرات يقصد بالفرنج هنا الصليبيين والروم ، لأنه يعود بعد ذلك فيشير الى المحاصرين لدمياط بأنهم « الفرنج والروم » .

وما أن حاصر المهاجمون دمياط حتى دعا حاكم المدينة « شمس الخواص ياروقتاش ـ صلاح الدين لنجدته وأقفل مدخل الميناء بواسطة الأواصر الحديدية الثقيلة »(١٩) وكان أهالى دمياط فى بادىء الأمر قد أصابهم « اليأس والبؤس » لكن صلاح الدين لم يلبث أن أرسل اليهم ابن أخيه تقى الدين وخاله شهاب الدين(٢٠) ، كما أرسل القوات فى النيل « وأمدهم بالأموال والذخائر »(٢١) .

أما ابن شداد فيقول : ان السلطان صلاح الدين أنفذ الى دمياط « وأودعه من الرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمن معه عليه وعز المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات(٢٢) .

كما تابع صلاح الدين فى نفس الوقت رسله الى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف وأنه « ان تخلف عن دمياط ملكها الفرنج وان سار اليها خلفه المصريون من مخلفيه ومخلفى عسكره

بالسوء وخرجوا عن طاعته وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه »(٢٣) ٠

والواقع أن صلاح الدين كان قد اسرع عندما علم بهجوم الصليبيين الى تحصين بلبيس والقاهرة والاسكندرية ظنا منه أن الحملة الصليبية فى تلك المرة ستحذو حذو الحملات السابقة فقصد القاهرة عن طريق الشرقية ٠ فلما اتجهت الحملة الى دمياط ، وجد صلاح الدين نفسه فى موقف حرج لا سيما وأنه ظل يخشى باستمرار خطر مؤامرة أو ثورة ضده فى الداخل بتحريض من الخليفة الفاطمى ورجاله ٠ ومع ذلك فانه لم ييأس ولم يستسلم وأرسل يطلب النجدة من نور الدين(٢٤) ٠

كان رد نور الدين حاسما قويا سواء فى داخل بلاد الشام أو فى الجبهة المصرية ، فقد حشد القوات وكانت « كلما تجهزت طائفة سيرها » ، فسارت القوات الى صلاح الدين فى مصر « يتلو بعضها بعضا » ٠ وفى نفس الوقت شدد نور الدين هجماته على الصليبيين فى بلاد الشام وأغار على بلادهم ونهبها واستباحها ، « ووصلت الغارات الى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد من ممانع »(٢٥) ٠

والواقع أن بعد نظر صلاح الدين وحسن تصرفه وسرعة تحركه، جعل دمياط مدينة جيدة التحصين فى وقت قصير ، وقد ساعد على ذلك موقعها نفسه الذى سهل امدادها بالرجال والسلاح والمؤن عن طريق استخدام نهر النيل ، بالاضافة الى أن الأواصر الحديدية الثقيلة أعاقت دخول الأسطول النهر وشكلت عائقا ضخما للقوات المهاجمة(٢٦) ٠

هنا يجدر بنا أن نقول أنه يكفى دمياط بل مصر كلها فخرا أن جيوش الحليفين الكبيرين ، الصليبيين والروم ، بكل ما جهزوا

وأعدوا وخططوا ودبروا ، وجدوا أنفسهم منذ اللحظـة الأولى فى شدة الحاجة الى اعادة النظر فى خططهم العسـكرية ولا عبرة هنـا مما قيل من أنه كان من السهل اليسير الاستيلاء على دميـاط ، اذا كان المهاجمون قد سارعوا بالهجوم عليها منذ اللحظـة الأولى دون تأخر(٢٧) ٠

وربما كان أسطول الروم هو الأكثر تلهفا على المسارعة بالهجوم لأن امداداته ومؤنه كانت قد قاربت على النفاد(٢٨) ٠ أما الصليبيون فكان الهجوم السريع ، أبعد ما يكون عن تفكيرهم فقد ذكر لنا وليم الصورى أن جيشهم بدا من الوهلة الأولى يشعر باليأس والقنوط ، فقد أصبحت المدينـة طافية فى مياه الفيضـان ٠ وبدا بوضـوح أنه بدون مساعدة آلات ومعدات الحرب لا يمكن الاستيلاء عليها ، كما أنه بدون وصـول قوات مسيحية اضافية كان من غير الممكن أن تستطيع قواتهم الصمود للهجوم الأول(٢٩) ٠

والراجح أن فكرة المهاجمين عن دمياط كانت غير حقيقية عن مدى حصانتها ، بالاضافة الى الاستعدادات الغاية فى السرعة التى زودها بها صلاح الدين ٠

وبذلك ساد من جديد جو من التردد بين المهاجمين ، وكان ذلك هو سبب قول (بروييه) أن » أو عملية عسكرية لم تظهر الا بعد تردد »(٣٠) ٠ وقد انتهت تلك الفترة بالوصول الى حل هو ضرورة اقامة بعض الأبراج العالية حول المدينـة لتساعد فى عملية الحصار ٠ وبالفعـل اختير العمـال المناسـبون الذين زودوا بالمواد اللازمـة « وبالمزيد من النفقات والعمل » أمكن اقامة برج عال مكون من سبعة طوابق يمكن مشاهدة المدينـة بأكملهـا من قمته ، هذا بالاضافـة الى اقامة العديد من الآلات المختلفة لخاصة بالحصار(٣١) ٠

ولكن يبدو أن المهاجمين لم تكن تعوزهم المعـدات والقوات الاضافيـة فقط بل كان ينقصهم أيضـا البراعة والذكاء الحربى المطلوب فى مثل تلك المواقف • وذلك بشهادة مؤرخيهم أنفسهم • فقد كتب وليم الصورى « ان قواتنا أظهرت قلة براعة وذكاء عن المعتاد •• ، فقد أمر القادة أن يوضـع أحد الأبراج الجديدة بجوار سور المدينـة فى مكان غاية فى الحصـانة ، فى الوقت الذى كان هناك أماكن عديدة من السور أقل تحصينا ، وكان من الممكن أن تكون أسهل فى السقوط ، لولا وضـع البرج المتحرك فى البقعة الأكثر تحصينا ، وفى مكان ملىء بالصعوبات عن أى مكان آخر •• وعلى ذلك كان التخريب أكثر ليس على أهالى البلد ومساكنهم بل على كنيسـة الأم المقدسـة فقط The Holy Mother of God التى كانت ملاصقة للسور »(٣٢) أما ستيفنسون فقد أشار الى « أن اللاتين أظهروا نشاطا غير كاف » فى ذلك الوقت(٣٣) •

فاذا أضفنا الى التردد وعدم البراعة فى فن القتال عنصرا جديدا تمثل فى نقص المؤن بين رجال الأسطول الرومى ، والذى سبق أن أشرنا الى أنه كان مجهزا بمؤن تكفيه لمدة ثلاثة أشـهر فقط ، وأنها انتهت بالفعل • لذلك بدأ الروم الذين قدموا فى اعداد ضخمة مع الأسطول يعـانون من المجاعة ونقص المؤن(٣٤) • وعلى ذلك بدأ الروم يتساقطون من الجوع ، دون أن يوفر لهم حلفاؤهم الصليبيون أى مصدر للطعام على الساحل(٣٥) •

هنا لا يملك وليم الصورى الا أن يدافع عن أتباع الملك من الصليبيين فيعطى تبريرا لعدم تقديمهم المؤن لحلفائهم الروم بقوله أنه « كان لدى الصليبيين مصـدر كاف من الخبز والعـديد من المواد الغذائية الأخرى ، ولكن اليقظة للمستقبل ، جعلتهم يقتصدون مما لديهم رغم قلته ، لأنهم لو أسرفوا فى اقتسـام تلك المؤن مع

هؤلاء المعدمين ــ يقصد الروم ــ فسوف يكون ذلك خطرا عليهم ، لأنهم سيصبحون حتما يوما ما فى شــدة الحاجة ، خصوصا أنهم كانوا غير متأكدين من مدة اقامتهم بدمياط ٠٠ »(٣٦) وقد عبر (بروييه) عن ذلك بصــورة أكثر ايجازا عندما قال أن « الخيمة اللاتينية رفضت اقتسام مؤنها مع الحلفاء »(٣٧) ٠

ووسط ذلك الجو المشحون بعدم الاخلاص والجبن والفرقة بين الروم والصليبيين(٣٨) ، ظهرا عامل جديد ليوسع شقة الخلاف بين الطرفين بل ليضرب بعرى التحــالف الصليبى الرومى عرض الحائط ، فقد هطلت الأمطــار بشدة بسبب هبوب الرياح العاتيــة فأضافت عاملا جديدا من عوامل القلق والازعاج(٣٩) ، وأغرقت جميع خيام الصليبيين ، ذلك أنهم « أصبحوا غير قادرين على منع المطر من الانسياب داخل خيامهم بأية وسيلة ، حتى الأغنيــاء الذين كانوا فى حالة أحسن ابتلت خيامهم بوابل الأمطار المفاجئة ٠٠ وكان كل ما استطاعوا عمله هو حفر بعض الحفر حول خيــامهم كى تنجرف اليها ميــاه الأمطــار ، وبذلك حموا أنفسهم حمايــة بسيطة »(٤٠) ٠

واذا كان ذلك هو وضــع الجيش الصليبى الرومى فماذا كان وضع المصريين عامة وأهالى دمياط خاصة ؟

كان صلاح الدين يرسل من القاهرة المدد بعد الآخر ورغم تشديد المهاجمين للحصــار الا أن الأهــالى صبروا « وصابروا وتآزروا ، وأمسوا على القتال وأصبحوا وتاجروا الله وربحوا ، وهددوا بنيان الكفر المرصوص وأهلكوا بالعشرات الألوف ٠٠ »(٤١)٠

وقد فطن المصريون الى خطة ناجحة أسرعت بوضــع الفصل النهائى وانزال الستار على تلك الحملة ٠ ذلك أنهم استفادوا من

سرعة جريان مياه النيل ، بسبب هبوب رياح جنوبيــة قوية فأخذوا قاربا ذا حجم عادي وملأوه حتى نهايته بالأخشاب الجافة والقار وقذفوا عليه بعض المواد المشتعلة فاشتعل على صفحــة النهــر ، وحملته الأمواج الشديدة فى اتجــاه الأســطول الراسى عند مصب النهر فى البحر المتوسط ، عندئذ اشتعلت النار بسرعة وامتدت الى المواد القابلة للاشتعال التى كان القارب محملا بها • ثم أبحر القارب المشتعل فى اتجــاه الأسطول وأمسك فى سفنه المتراصــة واشتعلت النار به • وهكذا « احترقت ست سفن منقارية الشكل وهى المســماه Galleys ثم انتشرت النــار فى كل الأســطول فى ضراوة »(٤٢) •

والحقيقة أننا نلمح من خلال عرض وليم الصورى لأحــداث ذلك الهجوم وتطوراته(٤٣) ، عدة نقاط مهمة منها أولا : تحامله الشديد على المصريين الذين يطلق عليهم (الكفار) فى أكثر من موضع ، بل تحامله أيضــا على الروم أنفسهم من خــلال سـطور روايته فهو يقول أن المحاصرين كانوا يهاجمون أحيانا معسكر الروم ويشنون عليه هجوما غير متوقع ، وذلك راجع الى ما قد يكونون سمعوه من أن القوات الرومية أقل قوة من قواتنا •• » واذا كان وليم أحيانا يعزى ذلك الى أنه قد يكون نوعا من الاشاعات ، الا أن كل اشاعة لها جانب من الحقيقة •

ثانيا ــ اعترافه بأن المحاصرين ــ أى المصريين ــ « رغم أنهم كانوا محجوزين داخل المدينــة تحت وطــأة الحصار ــ الا أنهم كانوا مصــدر رعب كبير لخصــومهم ، أكثر مما كان المسيحيون بالنسبة لهم » •

ويكفى المصريين تلك الشهادة من وليم الصورى ، والحقيقة أنهم جعلوا كل ثقتهم وآمالهم فى الله ودافعوا باخلاص وصدق عن حقهم فكان الله معهم يعضدهم بنصره ويذلل لهم كل الصعاب •

والواقع أن وليم الصورى يؤيدنا فى هـذا الرأى عندما قال أن الحملة « كانت ضد ارادة السيد المسيح وأن وجهه قد أدير عنا فى غضب »(٤٤) ٠

وبمرور الوقت وتأزم الموقف قرر قائد أسطول الروم ضرورة القيام بهجوم سريع على دمياط مهما كان فى الأمر من مخاطرة(٤٥)، وبالرغم من أنه أرسل فى بادىء الأمر ليكون تحت أمرة عمورى(٤٦) ٠ هنا بدأ قادة الجيش الصليبى يتهامسون فيما بينهم ــ وهم الذين كانوا باستمرار يشكون فى نوايا الروم ــ بأن حماس قائد أسطول الروم يرجع الى أنه كان يرغب فى أن يجعل من دمياط جزءا من غنائم الامبراطورية(٤٧) ٠

وعليه فقبل أن ينفرد قائد الأسطول بهجومه على دمياط وصلته أخبار مفاوضات الملك عمورى من أجل الصلح والانسحاب(٤٨) ٠

وثمة رأى هنا لمخائيل السريانى يجعل عنصر الخيانة كان موجودا أصلا لدى الروم وأنهم منذ وصولهم الى مصر ، كانوا مدفوعين بقدرتهم وقوة معداتهم الى مخادعة الملك والاستيلاء على تلك البقعة لحسابهم الخاص » الا أن بعض الأشخاص حذروا الملك فى الوقت المناسب من نوايا الروم(٤٩) ٠

لكن ما هى الأسباب الحقيقية للانسحاب ؟ وما هى ملابساته ؟ هنا نجد الاجابات مختلفة للرد على هذا التساؤل ، بعضها يمثل وجهة نظر المؤرخين الصليبيين والغربيين ، والبعض الآخر يمثل وجهة نظر المؤرخين المسلمين ٠

أما الجانب الأول وعلى رأسهم وليم الصورى فنراه يرجع ذلك الى أنه كان من الحكمة أن تعود الحملة الى بلاده بدلا من التوغل فى مصر مع المجاعة أو الهلاك بسيوف المسلمين(٥٠) ٠

أما بروييه فيقول أن الصليبيين كانوا يخشون أن يجدوا أنفسهم بين جيشين من الأعداء : جيش المدافعين عن دمياط من ناحية ، وجيش النجدة القادم من الجنوب من ناحية أخرى(٥١) ٠ بينما يذكر (ستانلى لين بول) « أن الجنود البائسين ، النصف موتى من الجوع والنصف غرقى توسلوا أن يعودوا الى بلادهم »(٥٢) ٠ أما (بريبه) فيعزى ذلك الى سوء التفاهم بين كان من قائد أسطول الروم والملك عمورى ، مما أعاق سير العمليات الحربية(٥٣) ٠

أما المؤرخون المسلمون فيذكر بعضهم أن رحيلهم جاء على أثر توالى ارسال القوات من بلاد الشام الى مصر وتشديدهم الهجوم على الصليبيين والروم ، وفى نفس الوقت انزال نور الدين أشد الضرر بممتلكاتهم فى بلاد الشام ونهبها وتخريبها(٥٤) ٠ بل أن بعضهم يجعل شدة هجمات نور الدين على ممتلكاتهم الشامية هو السبب المباشر فى رحيلهم(٥٥) ٠ بينما جعل بعضهم انتشار الوباء والمرض فيهم هو سبب الرحيل ٠ فقد ذكر البندارى « دب فيهم الفناء وهب عليهم البلاء »(٥٦) أما ابن أيبك فيقول « وقع فيهم وباء ومرض ، حتى لا عاد منهم من يطيق يقف على قدميه»(٥٧) ٠ أما ابن شداد فيذكر أنه « بان للافرنج الخسران وظهر على الكفر الايمان ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم ويسلمون بنفوسهم»(٥٨) ٠

هنا أيضا يعطينا ميخائيل السريانى رأيا فريدا عن شروط الصلح الذى وقع بين صلاح الدين من ناحية والملك الصليبى من

ناحية أخرى ، فقد ذكر أن « الضريبــة التى أجبر المصريون على تقديمها للملك ، دفعت على شكل مبلغ كبير من الذهب ، وانهم تعهــدوا بتقديم نفس المبــلغ فى المســتقبل ، بل تعهدوا لاثبــات حسن نواياهم أن يقدموا له بعض الرهائن ، ويرجع ذلك الى أن يوسف (صلاح الدين) لم يكن آنذاك فى وضــع يسمح له بدفع الفرنج»(٥٩) .

والحقيقة اننا نلمح فى ثنايا السطور التى دونها ميخائيــل السريانى أنه يجعل صــلاح الدين فى شــكل المتلهف على عقد تلك المعاهدة وأنه لم يكن بوسعه الصمود لهم . ولكن واقع الأمر كان غير ذلك تماما لأن الصليبيين هم الذين كانوا تواقين لعقد الصلح والعودة السريعة للأسباب التى أشرنا اليها من قبل ، وربما طلبوا ذلك المبــلغ الذى دفع لهم كى يستطيعوا أن يشتروا بعض المؤن ، كى يتقووا بها هم وحلفاؤهم الروم ، وبذلك يستطيعون أن يبدأوا رحلة العودة بعد أن أضعفهم الجوع والمرض .

وبالاضافــة الى ذلك فان بعض المؤرخين الغربيين المحدثين ذكروا فقط أنه اتفق على أن تدفع دمياط فدية للصليبيين قبل أن يرحلوا(٦٠) . ومن المرجح أنهم نقلوا رواياتهم عن مصــادر أخرى غير ميخائيل السريانى .

والحقيقة أنه تم بالفعل توقيع معاهدة للســلام والصلح بين الجانبين : الصليبى والمصرى ، ووافق الروم على شروطها ، وأعلن السلام وبدأ الجميع يتحركون بحرية حتى أن وليم الصورى ذكر لنا « أن الجانبين استطاعا بحريــة أن يتاجرا مع بعضهما البعض ، وأعطى الســماح للجميــع ليبيعوا ويشتروا أو يتبادلوا كمــا يريدون »(٦١) .

بينما ذكر (ستانلى لين بول) أن السكندريين الذين عرفوا بالكرم وبأنهم عمليون أكثر فتحوا أسواقهم للغزاة الذين كانوا يعانون من المجاعة(٦٢) ولا ندرى هل كان يقصد هنا أهل الاسكندرية أو أهل دمياط ، خصوصا أن الحديث هنا عن دمياط . ومما يرجح أن تكون المقصود هي مدينة دمياط ما ذكره (ستون) من أنه سمح للمسيحيين بالدخول الى دمياط والمتاجرة كيفما شاءوا(٦٣) .

والحقيقة أن حصار الصليبيين والروم لدمياط استمر حوالى شهرين من نهاية أكتوبر حتى نهاية ديسمبر ١١٦٩ م كما دونت المصادر والمراجع الأجنبية(٦٤) . أما المصادر العربية فبعضها ذكر مدة الحصار باحصاء عدد أيامه ، وبعضها الآخر دونها بالتاريخ الهجرى . فمثلا الغالبية العظمى من المصادر العربية ذكرت أن الحصار استمر خمسين يوما(٦٥) . فى حين أشارت بعضها الى أنه دام واحدا وخمسين يوما(٦٦) بينما ذكر البعض الآخر أنه استمر ثلاثة وخمسين يوما(٦٧) . كذلك ذكرت بعض تلك المصادر أن الحصار بدأ فى مستهل صفر وانتهى فى الحادى والعشرين من ربيع الأول ٥٦٥ هـ(٦٨) . أو « لتسع بقين من ربيع الأول » سنة ٥٦٥ هـ(٦٩) .

وهكذا رحل الصليبيون والروم خائبين خاسرين « وحرقت مناجيقهم ونهب آلاتهم وقتل منهم خلق عظيم »(٧٠) .

ولقد كانت تلك النتيجة دافعا لكثير من مؤرخى الغرب الى اعتبارها « كارثة »(٧١) أو الى القول بأن تلك الحملة « انتهت نهاية مخزية شائنة »(٧٢) وهكذا توج الفشل ذلك المجهود الحربى الكبير الذى قام به الصليبيون والروم ضد مصر فى ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م .

ويقال أنه عند عودة الصليبيين الى بلادهم وجدوها خاوية خربة وأهلها بين قتلى وأسرى فانطبق عليهم المثل القائل : « خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين »(٧٣) ٠

وهنا يتبادر للذهن سؤال هو : ماذا كان مصير الحملة الصليبية الرومية المشتركة على مصر بعد عقد الصلح مع صلاح الدين ؟

وللاجابة عن هذا السؤال يجب علينا أن نبرز نقطتين ٠ الأولى هى طبيعة العلاقة بين القوات الصليبية والقوات الرومية آنذاك ٠ والثانية عن رحلة العودة لكل من الطرفين ٠

أما النقطة الأولى فاننا نقرأ عن تأنيب الطرفين بعضهما لبعض(٧٤) ٠ وربما كان الروم أكثر تأنيبا للصليبيين بسبب تأخرهم المستمر حتى تسببوا فى النهاية فى نفاد مؤنهم وغير ذلك من المواقف الحرجة التى تعرضوا لها ، بل أن كلا منهما كان يشك فى الآخر ، فالصليبيون فسروا رغبة قائد أسطول الروم الملحة فى الاسراع بالهجوم بأنه كان يريد كسبا لامبراطوريته فقط ، وفى نفس الوقت تهامست القوات الرومية بخيانة الملك عمورى للقضية التى قدموا من أجلها وأنه دخل فى مفاوضات مع المسلمين من أجل الصلح ٠

وبالنسبة للنقطة الثانية ، فقد رجع الصليبيون بخطوات مكرهة من حيث أتوا ، سالكين نفس الطريق الذى قدموا منه ، فوصلوا عسقلان فى ٢١ ديسمبر ، ثم وصلوا الى عكا عشية عيد ميلاد السيد المسيح عليه السلام(٧٥) ٠ أما فيما يخص القوات الرومية فاننا نعود مرة ثانية لنقرأ رأيا ينفرد به ميخائيل

السرياني يشير فيه الى « أن ملك القدس عاد الى بلاده وترك القوات الرومية وأنهـا عندما لم تستطع الاستيلاء على أى أراض رحـلوا عن طريق البحر »(٧٦) ونحن نستبعد أن تكون القوات الرومية قد تخلفت فى مصر بعد رجوع الملك عمورى لكى تستولى على أى أراض خصـوصا أن تلك القـوات كانت فى حـالة يرثى لها من الضعف كما اسلفنا ٠

والواقع أن القوات الرومية أبحرت عائدة فى حالة من الاضطراب والفوضى الشديدة(٧٧) ٠ « وبدأت رحلة العودة فى صعوبة ومشقة بالغة »(٧٨) ٠ والراجح أن ذلك كان راجعا بالطبع الى سوء حالتهم الصحية الى جانب انخفاض روحهم المعنوية أيضا ٠ وفجـأة هبت ريح عاتية أدت الى تحطيم غالبية قطع الأسطول الباقية ٠ وقذفت بحطامها على الشاطىء « وهكذا غرق كل شىء تقريبا »)٧٩(٠ وراح ضحية تلك العاصفة أعداد كبيرة من الروم(٨٠) ٠

وهكذا جاء تعليق (لين بول) أصـدق ما يكون على ما لحق الأسطول الرومى من ضرر فى ذلك الوقت حين قال : « ألقيت جثث موتى الروم على الشـاطىء الذى قدمـوا من أجـل الاسـتيلاء عليـه »(٨١) ٠

هنا يحاول وليم الصورى أن يفلسف لنا حقيقة موقف قوات الروم ، ومدى مسئوليتها عن النتيجـة النهائيـة لتلك الحملة ٠ فيقول انه بالرغم من عدم تواجده بالمملكة معظم سنة ١١٦٩ م فانه بمجرد عودتـه سـأل الملك وبعض رجال المملكة البارزين عن سبب النتيجة المؤلمـة لتلك الحملة الكبيرة التى وجهت لأداء مهمتها تحت أمرة عدد من الأمراء المشهورين وأنه ظل يجمع التقارير المختلفة المستفيضة عن هذا الموضوع كى يكشف حقيقة الأمر ٠

وكل ما توصل اليه وليم فى النهاية هو « أن مبعوثى الامبراطور بذلوا كل الجهود الممكنة لانجـاز المهمة الموكلة اليهم لكنهم أجبروا على العودة دون احراز النجـاح ، عادوا حزانى القلب ، مروعين بمنافسة القدر • لأنهم خافوا أن امبراطورهم المعظم سوف يتهمهم بجانب ترك مهمتهم بدون اذن ، بأنهم سبب النتيجة المؤلمة للحملة » ثم يعود وليم فى موضع آخر فيؤكد أن الروم لايمكن أن يخرجوا بدون لوم من هذا الحادث • فقد وعد الامبراطور وعدا أكيدا بارسال المـال الكافى لتأييد الجيش العظيم ، ولكن الأحداث أثبتت أن وعوده كانت زائفة • فمنذ اللحظة التى ذهب فيها مندبوه الرئيسيون الى مصر ، كان المفروض أن يمدوا حلفاءهم من السخاء الامبراطورى ، الا انهم بدأوا هم أنفسهم يعانون ضغط الحاجة(٨٢) •

والواقع أنه بقدرما كشفت حملة الصليبيين والروم على دمياط ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م من فرقة وتنافر فى الاتجاهات بين الحليفين ، بقدر ما أبرزت مدى الترابط بين المسلمين فى الشرق ، ولو فى ذلك الوقت على الأقل ، فقد تناسى الجميع الى حد ما خلافاتهم المذهبية بين الشيعـة والسـنة وجعلوا الدفـاع عن الاسـلام هو هـدفهم الأسمى • فهذا نور الدين لم يبخل بارسال كل ما من شأنه أن يعلى كلمة الاسلام والمسلمين الى مصر ، دون النظر الى وضـع مصر آنذاك ضمن دائرة الخلافة الفاطمية الشيعية • كما أنه يجب علينا أن ننوه هنا بالدور المرموق والجهد الايجـابى الكبير الذى بذله صلاح الدين فى صد تلك الحملة مما كان دافعا لكثير من شعراء ذلك العصر على مدحه والاشادة بجهده البارز(٨٣) •

ويعضد رأينا فى أهميـة القيـادة المحنكة ما ذكره الدكتور حامد غنيم حين عقد مقارنة جميلة ومعبرة جدا بين صورتين لمصر : صورة سجلتها أحداث شهر صفر سنة ٥٦٤ هـ ، والصورة الأخرى سجلتها أحداث شهرى صفر وربيع الأول من السنة التالية • ففى

الصورة الأولى هوجمت مصر وانتهكت حاضرتها ، أما فى الثانية فقد صمدت دمياط ، وأرغمت الغزاه على التقهقر دون أن يحققوا شيئا من مخططاتهم ، والفارق بين الحالتين أمر واحد هو تغيير القيادة ، ففى سنة ٥٦٤ هـ كان شاور الذى كانت تحكمه مصالحه الشخصية هو الذى يقود مصر ، وفى سنة ٥٦٥ هـ كان القائد هو صلاح الدين بما يمثله من فكرة المقاومة الاسلامية ضد الصليبيين(٨٤) ٠

بل أن الخليفة العاضد الفاطمى نفسه جعل كل امكاناته المالية والعسكرية مسخرة تحت تصرف صلاح الدين كى يتمكن من صد العدوان الصليبى الرومى عن مصر ٠ وقد أشاد صلاح الدين نفسه بكرم وسخاء الخليفة حين قال : « ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل الى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها »(٨٥) ٠

بل أن انتصار صلاح الدين والمصريين على الصليبيين والروم أثلج صدر نور الدين وجعله يسرع بارسال تهنئة غاية فى قمة التعبير اللغوى ، الى الخليفة العاضد تعبر عما يجيش فى صدره آنذاك بعد ذلك « الظفر الذى أضحك سن الايمان »(٨٦) ٠

والحقيقة أن هزيمة التحالف الصليبى الرومى عند مدينة دمياط يعتبر باكورة النتائج الايجابية التى سجلها التاريخ للجبهة الاسلامية نتيجة لتحمل مصر لأعباء الدور الذى كان من المحتم أن تقوم به فى حركة المقاومة الاسلامية ضد الصليبيين(٨٧) ٠

وبتعبير (ستون) كان اخفاق الحملة الصليبية الرومية فى ١١٦٩ م / ٥٦٥ هـ « نقطة فاصلة فى تاريخ الشرق »(٨٨) ٠ وكانت أهم نتائج تلك الحملة تقوية مركز صلاح الدين فى

مصر(٨٩) • لذا بدأ العاضد يتخوف من ازدياد نفوذه هو ورفقائه من الأتراك ، وأرسل الى نور الدين يطلب منه أن يسحب القوات التركيـة المصاحبـة لصـلاح الدين بمصر وأن يقتصر فقط عـلى صلاح الدين وأصحابه ، فما كان من نور الدين الا أن رد عليـه بخطاب يمدح فيه الأتراك وأنه ما أرسلهم واعتمد عليهم الا لعلمه أن « قنطاريات الفرنج ليس لها الا سهام الأتراك »(٩٠) •

وعليه فان الخليفة العاضد لم يجد بدا من الرضـوخ للأمر الواقع لأنه كان قد وصل الي حالة من الضعف لا تمكنه من أن يتخذ أى قرار معـاد لنور الدين أو حتى لصـلاح الدين الذى سطع نجمه بسرعة فى مصر • وستثبت لنا الأحداث التالية أن صلاح الدين سيصبح صاحب الكفة الراجحة على حساب النوريين والفاطميين معا •

نعود مرة أخرى الى الملك عمورى بعد وصوله الي مملكتـه فى أواخر ديسمبر ١١٦٩ م هل عـاوده الحنين الى الدخـول فى مخاطرة جديدة على أرض مصر ؟ وماذا كان موقفه من إمبراطورية الروم آنذاك ؟ ثم ماذا كان موقف الروم من مصر وشواطئها بعد تلك الحملة التى ذاقوا فيها الأمرين ؟

هنا يذكر لنا (ستيفنسون) أن عمورى ملك بيت المقـدس قصر جهوده من ذلك الوقت فصاعدا على « الدفاع عن أراضـيه الخاصـة »(٩١) •

ولكن لمـا كان دفاعه عن أراضى مملكته لا يمكن أن يتأتى له الا بضمان الاستقرار والهدوء لجبهته الجنوبية والغربية من ناحية مصر أولا ، ومن ناحية الشمال أى مع نور الدين ثانيا : لذا نجده

يعاود من جديد مراسله الغرب الأوربى « ليتوسل اليهم أن يرسلوا حملة صليبية جديدة »(٩٢) الى الشرق ، وربما يرجع ذلك الى انه لم يجرؤ فى ذلك الوقت بالذات ، ووسط تلك الظروف الصعبة أن يعاود طلب أى نجدة من امبراطور الروم خصوصا أن النفوس لم تكن صافية تماما بسبب الظروف التى مرت بها حملتهما المشتركة على دمياط سنة ١١٦٩ م / ٥٦٥ هـ .

لكن ما هى الظروف الملحة التي طرأت فى أفق مملكة بيت المقدس والتي جعلت عمورى يسارع بطلب النجدة من الغرب فى ذلك الوقت ؟ والرد هو الجهود الايجابية المتتالية التى قام بها صلاح الدين بمهاجمته لقلعة الداروم Darom وهى أهم قلاع الصليبيين على ساحل البحر المتوسط الجنوبى ، ومهاجمته أيضا لقلعة غزة واستيلائه على أيلة على خليج العقبة ، وبذلك بدأ بالفعل تطويق الامارات الصليبية(٩٣) .

فماذا كان رد الغرب على سفارته ؟

ان كل ما عادت به سفارته من الغرب ١١٧١ م هو « وعود مبهمة غامضة عن ارسال نجدات »(٩٤) دون أن تنجز شيئا ايجابيا(٩٥) .

والحقيقة أن عمورى ظل مخلصا باستمرار لسياسته التى ترمى الى التحالف الشديد مع امبراطور الروم والاستنجاد المستمر والدائم بالغرب(٩٦) .

ثم لم يلبث عمورى أن وجد نفسه مرة ثانية فى حاجة ملحة الى الالتجاء الى امبراطور الروم وطلب المساعدة منه ، ولكى يتلافى كل ما كان من نتائجه فشل الحملة التى وجهت الى دمياط من قبل ، توجه بنفسه الى القسطنطينية للوصول مع الحكومة الامبراطورية

الى خطة جديدة لمهاجمة مصر(٩٧) · وقد غادر الملك عموری عـكا فى ١٠ مارس ١١٧١ م(٩٨) متوجهـا الى دولة الروم ·

وهناك استقبل من الامبراطور مانويل كومنين استقبالا وديـا فاخرا · واذا كان (بريبه) قد ذكر أن الامبراطور قد وقع من جديد معاهدة تحالف مع عموری(٩٩) · فان (ستيفنسون) ذكر أن الملك قد وعد بتقديم المسـاعدة له(١٠٠) · أما (رنسيمان) فيقول أن شروط المعـاهدة الجديدة التى تم الاتفـاق عليهـا « لم تدون »(١٠١) وربما اكتفي فيها فقط بالاتفاق الشفوى ، وكل ما يهمنـا من تلك الشروط هنـا هو أن الامبراطور وعد بالتكفل بالمساعدة البحرية والمـالية فى أى حملة مقبلة ضد مصر · وهكذا غـادر الملك ومن معه القسطنطينية فى ١٥ يونيـة وكلهم أمل فى المستقبل(١٠٢) ·

ولكن مهما كانت الشروط ومهما كان الاختلاف فى مدى نجاح تلك السفارة التى قام بها الملك عمورى بنفسه الى عاصمة الروم ، فان ما نود أن نؤكده هنـا هو أنه لم يرسل حمـلات مشتركة ــ صليبية رومية ــ فى المستقبل ضد مصر وأن حملة ١١٦٩ م كانت آخر حملة من ذلك النوع ·

ومهمـا كان الأمر ، ففى المحرم سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م قطعت خطبة العاضـد لدين الله الفـاطمى فى مصر وخطب فيهـا للمستضىء بأمر الله العبـاسى · وقد حـدث ذلك بالتدريج ، ففى الجمعة الأولى دعى للمستضىء بأمر الله فلم ينكر أحد ذلك ، وفى الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطبـاء بمصر والقاهرة بقطع خطبـة العاضـد واقامة الخطبة للمستضىء بأمر الله ، ففعلوا ذلك « ولم ينتطح عنزان »(١٠٣) ·

ثم توفى الخليفة العاضد فى يوم عاشــوراء ، ولم يعلم بقطع الخطبة · فتولى صلاح الدين حكم مصر ، وأصبح يسيطر على قصر الخليفة وجميع ما فيه(١٠٤) ·

والواقع أن العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين كانت على أحســن ما تكون حتى ذلك الوقت ، ففى صيف ١١٦٩ م عــزز نور الدين صلاح الدين فى مصر بكل القوات والاحتياجات ضــد المؤامرة والدســائس الداخلية ، كما عززه مرة ثانيــة فى خريف وشتاء نفس العام ضد الحملة الصليبية الرومية ضد مصر بل انه ضاعف من هجماته على الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام فى نفس الوقت ، وكان لذلك أثره الواضــح فى وضــع الصليبيين بين فكى الكماشة ، وكان ذلك أيضا من الأسباب الجوهرية لانسحابهم كما مر بنا ·

لكن لم تلبث أن حدثت جفوة بين نور الدين وصــلاح الدين ، لكن حسن رأى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، كان له اليد الطولى فى ازالتها وعليه فقد توفى نور الدين دون أن يكون لديه شك فى اخلاص صــلاح الدين له وكان ذلك فى « يوم الأربعــاء حادى عشر شوال »(١٠٥) من سنة ٥٦٩ هـ / مايو ١١٧٤ م ، ثم لم يلبث ان لحق به الملك عمورى فى يولية من نفس العام(١٠٦)·

هوامش الفصل الثالث

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ... ، ص ٢١ . فهو يقول : « كان رحمه الله شديد المواظبة عليه ، عظيم الاهتمام به ، ولو حلف أنه ما انفق بعد خروجه الى الجهاد دينارا ولا درهما الا فى الجهاد أو فى الارفاد ، لصدق وبرفى يمينه . ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث الا فيه ، ولا نظر الا فى آلته، ولا كان له اهتمام الا برجاله ، ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة ».

(٢) J. Prawer : Op. Cit., T. 1. P. 442.

(٣) Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 385, J. Prawer : Op. Cit., Y. 1, P. 443, Setton : Op. Cit., V. 1, P. 557.

(٤) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ص ٢١٩ عن King

(٥) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 443.

(٦) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 557.

(٧) William of Tyre : Op. Cit., V. 11, P. 362, Setton : Op. Cit., V. 1, P. 557.

هنا يذكر ستيفنسون أن اندفاع الصليبيين حل محله الجبن
Stevenson : Op. Cit., P. 196.

(٨) William of Tyre : Op. Cit., V. 11, P. 362.

(٩) Stanley Lane Poole : Op. Cit., P. 103.

(١٠) Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 386.

(١١) William of Tyre : Op. Cit., PP. 362 — 363.

هنا يفصل لنا وليم الحديث عن الرحلة البرية بقوله : أنه لكى لا تسأم قوات الشاه تقدموا على مراحل مستفيدين من الاستراحات الموجودة فى الطريق ، لأخذ شيء من الراحلة . وعند الوصول الى الفرما القديمة فى اليوم التاسع كانوا يرغبون فى اتباع الطريق الساحلى ، لكن حادثا جديدا جعل من الضرورى اتخاذ طريق الداخل الأطول لان بعض الخنادق بين الساحل والمناطق المجاورة للبحر تكسرت بسبب الاندفاعات المتكررة للأمواج ، وبذلك أحدثت ممرات خلال الحواجز المواجهة لها لذلك اضطروا للتوغل فى الطريق السهلى الخلفى حيث تكونت فى المنطقة المجاورة للساحل بركة كبيرة غطتها المياه وامتلأت بالأسماك التى استخدمت كمصدر مهم للتموين ولقد كانت الفرما تقع فى مكان متوسط بين البحر والنهر والصحراء وكانت تبعد ثلاثة أميال عن فم النيل . أما دمياط فكانت تقع على جانب النهر الأقرب عند التقاء النهر بالبحر .

(١٢) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٣ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨٦ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٨٠ .

(١٣) William of Tyre : Op. Cit., V. 11, P. 363.

(١٤) Stanley Lane Poole : Op. Cit., P. 104.

(١٥) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٣ .

(١٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤١ .

(١٧) ابن شداد : المصدر السابق نفس الصفحة ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، جـ ١ ، ص ٨٢ والمنجنيق آلة من آلات الحصار فى العصور الوسطى يقوم مقام المدفع الحالى ، وان كانت قذائفه من الحجارة . أما الدبابة فهى آله تتخذ من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه وتقيهم ما يرمون به من فوقهم ، وقد سميت بذلك لانها تدفع فتدب (ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨٠ ، وحاشية للدكتور جمال الدين الشيال محقق نفس الكتاب ، ص ١٨١) . أما الجرخ فهى مأخوذة عن الفارسية والجمع جروخ وهو نوع من القوس الرامى الذى ترمى عنه النشاب أو النفط ... ويقال للذى يرمى عن قوسه السهام أو النفط (الجرخى) والجمع الجرخية . (حاشية للدكتور الشيال محقق كتاب النوادر السلطانية لابن شداد ، ص ٤٢) .

(١٨) ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، جـ ١ ، ص ٨٣ . والشينى هى السفينة الحربية الكبيرة . أما الطريدة والجمع طرائد فهى أنواع من المراكب الحربية أكثر شبها بالبرميل الهائل من السفينة ، وكانت تستعمل فى حمل الخيول والفرسان .

(١٩) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 444.

ابن خلدون : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٨٠ .

(٢٠) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨٦ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٤١ .

(٢١) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٣ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٨٠ . هنا يذكر ابن خلدون فى تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٨٠ أنه أمدهم بالعساكر والأموال مع بهاء الدين قراقوش وأمراء الغز . أما وليم الصورى فقد أرخ لتلك النقطة بقوله أنه قدم جيش من الأتراك من مصر العليا ، ضخم العدد ، وسفن محملة بالرجال المسلحين .
(William) of Tyre : V. 11, P. 364)

(٢٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ... ، ص ٤٣ .

(٢٣) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٣ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٨٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨١ .

(٢٤) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢٢٠ ، د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٩٥ .

(٢٥) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٨٠ .

(٢٦) William of Tyre : Op. Cit., V. 11, P. 364. Setton : Op. Cit., V. 1, P. 557.

(٢٧) William of Tyre : Ibid, V. 11, P. 365, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 444, Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 387.

هنا يرجع وليم الصورى التأخر فى مهاجمة دمياط الى وسوسة الشيطان فهو يقول أنه عند وصول قواتهم الى المدينة كانت خالية ولم يكن بها سوى

أهلها الأصليين « الذين كانوا ضعفاء مسالمين ، جاهلين كلية بفن الحرب فلو أن المسيحيين هاجموا المدينة بشجاعة فى الحال ، لسقطت فى الهجوم الأول ولكن المحاصرين أخذوا مهلة ، زاد عددهم خلالها زيادة كبيرة بواسطة التعزيزات بالفرسان الشجعان الاقوياء ، وكانت النتيجة أنهم أصبحوا قدرين على مقاومة هجماتنا داخل وخارج المدينة » . والواقع أن وليم الصورى نسى أو تناسى هنا أن الملك كان مترددا منذ البداية سواء عند الخروج من مملكته أو عند الوصول الى دمياط وأنه لم يبدأ بالهجوم الا بعد وصول الأسطول الرومى الذي أخرته الرياح القوية التى قامت حينئذ ، والتى هدأت فيما بعد وربما بسبب سقوط الأمطار الغزيرة كما سنرى فيما يلى .

(٢٨) Stenvenson : Op. Cit., P. 196, Runcimen : Ibid, V. 2, P. 387.

(٢٩) William of Tyre : Op. Cit., V. 11, P. 364.

والراجح أن مياه الفيضان هنا كانت مياه الأمطار الغزيرة التى سيأتى ذكرها والتى أغرقت كل شىء مع جيش عمورى .

(٣٠) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 444.

(٣١) William of Tyre : Op Cit., V. 11, P. 364.

(٣٢) William of Tyre : Ibdi, V. II, P. 365.

(٣٣) Stevenson : Op. Cit., P. 196.

(٣٤) William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 366

Stevenson : Op. Cit., P. 196.

(٣٥) Stanley Lane Poole : Op. Cit., P. 105.

(٣٦) William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 366.

(٣٧) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 444.

(٣٨) William : Op Cit., V. 11, P. 365.

(٣٩) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 557.

(٤٠) William : Op. Cit., V. 11, P. 366.

(٤١) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨٦ — ٨٧ .

(٤٢) William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 367.

هنا أيضا يدافع وليم الصورى عن الملك بقوله أن ما حدث لم يكن مرجعه الى عدم يقظة الملك لانه عندما اكتشف النار — لم ينتظر حتى يرتدى

حذاءه ــ امتطى صهوة جواده بسرعة وايقظ البحارة ، وعن طريق الصيحات المفزعة دعاهم الى اخماد النار . وكل ما نجحوا فيه هو فصل السفن عن بعضها فقلت ضراوة اشتعال النار . ثم أطفئت السفن المشتعلة بواسطة مياه النهر . ولذلك عقب وليم على ذلك بتقديم شكره للنهر الذى كان فى متناول اليد .

(٤٣) William of Tyre : Ibid, V. II, PP. 367 — 368.

(٤٤) William : Ibid, V. II, P. 368.

(٤٥) Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 387.

(٤٦) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 557.

(٤٧) Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 387.

(٤٨) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 557.

(٤٩) Michel Le Syrien : (R.H.C.) Documents Arméniens, T. 1, PP. 369 — 370.

هنا يخطىء ميخائيل حين يشير الى أن بعض الأشخاص حذروا الأمير (Ce Prince) ولم يشر اليه على أنه الملك .

(٥٠) William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 368.

وهو هنا يشير الى المسلمين بالكفار كما عهدناه دائما فى تحيزه لاخوانه فى الدين .

(٥١) J. Prawer : Op. Cit., T. 1, P. 444.

(٥٢) Stanley Lane Poole : Op. Cit., P. 105.

(٥٣) Bréhier : Vie et Mort..., P. 339.

(٥٤) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٤ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨١ .

(٥٥) أبو الفدا : المختصر ... ، جـ ٣ ، دار المعرفة ، بيروت ، ص ٤٨ ، الذهبى : دول الاسلام ، جـ ١ ، ص ٧٨ ، ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ١١٩ .

(٥٦) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ١١٧ .

(٥٧) ابن أيبك الداوداري : كنز الدرر ... ، جـ ٧ ، ص ٤١ .

(٥٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ... ، ص ٤٢ .

(٥٩) Michel Le Syrien : (R.H.C.), Documents Arméniens, T. 1, P. 370.

(٦٠) J. Prawer : Op. Cit., T. I, P. 444, Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 387.

(٦١) William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 368.

هنا يذكر وليم أن ذلك استمر لمدة ثلاثة أيام وأن المسيحيين استخدموا السوق نفسها مع المسلمين الذين يصر باستمرار على نعتهم (بالكفرة) . ومما يجدر ذكره أن وليم الصورى لم يصرح لنا بشيء من تلك الشروط وربما يرجع ذلك الى أنه لم يكن لديه بيان واف عنها مما جمعه من معلومات .

(٦٢) Stanley Lane Poole : Op. Cit., P. 105.

(٦٣) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 553.

هنا يعطينا رنسيمان تفسيرا له وجاهته عن سبب اقدام الملك عمورى على عقد الصلح مع صلاح الدين ، أنه رغب فى « أن تحرره صداقته لصلاح الدين من نور الدين الذى كانت علاقاته معه تتسم بشيء من قلة المودة .

(٦٤) William of Tyre : Op. Cit., V. II, PP. 363, 368, L. Bréhier Vie et Mort..., P. 340.

(٦٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، الباهر ، ص ١٤٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨٢ ، أبو الفدا : المختصر ، جـ ٣ ، دار المعرفة لبنان ، ص ٤٨ ، الذهبى : دول الاسلام ، جـ ١ ، ص ٧٨ ، اليافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، جـ ٣ ، ص ٣٧٨ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، جـ ١ ، ص ٨٥ ، ابن خلدون : تاريخه : جـ ٤ ، ص ٨٠ .

(٦٦) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨٧ .

(٦٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٨٢ .

(٦٨) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨٦ ـ ٨٧ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٤١ .

(٦٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨٣ .

(٧٠) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٣ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ جـ ١ ، ص ٨٥ . هنا يذكر لنا وليم الصورى ومن أخذ عنه مثل رنسيمان أنهم هم الذين أحرقوا بأنفسهم آلاتهم الحربية وحطموها كى لا تقع فى أيدى المسلمين وأن ذلك كان فى ١٢ ديسمبر ١١٦٩ م .

William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 368, Runciman : Op. Cit., V. 2,P. 388.

(٧١) على سبيل المثال لا الحصر :

Stanley Lane Poole : Op. Cit., P. 105, Cam. Med. Hist., V. IV. Part, 1, P. 236.

Stevenson : Op. Cit., P. 196. (٧٢)

(٧٣) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٤ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ .

Stevenson : Op. Cit., P. 196, Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 388, The New Encyclopaedia Britannica, V. 5. (1768). P. 302. (٧٤)

William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 368. (٧٥)

Michel Le Syrien : (R.H.C.), Documents Arméniens, T. 1, P. 370. (٧٦)

Bréhier : Vie et Mort..., P. 340. (٧٧)

William of Tyre : Op. Cit., V. II, P. 369. (٧٨)

William of Tyre : Ibid., V. II, P. 369. (٧٩)

Michel Le Syrien : (R.H.C.), Documents Lrméniens, T. 1, P. 370. (٨٠)

Stanley Lane Poole : Op. Cit., P. 105. (٨١)

Williad of Tyre : Op. Cit., V. II, PP. 369 — 370. (٨٢)

(٨٣) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٨٢ . على سبيل المثال لا الحصر :

وجا الكلب ملك الروم اذ ذاك فتحها فخـاف فـأم الملك والروم هـابل

هنيت صـوتك دمياط التى اجتمعت لها الفرنج فما حـلوا ولا ربطـوا

أنظر الملحق رقم (٥) .

(٨٤) د. حامد غنيم : الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٥٤ .

(٨٥) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٤ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨٣ ، أبو الفدا : المختصر ، جـ ٣

دار المعرفة ، بيروت ، ص ٤٩ ، ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١١٩ .

(٨٦) انظر الملحق رقم (٤) .

(٨٧) د. جامد غنيم : الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، ح ٢ ، ص ٤٤ .

(٨٨) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 558.

(٨٩) Setton : Ibid., V. 1, P. 558, L. Bréhier : Veit et Mort..., P. 340.

(٩٠) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٣ ، ابن الفرات : تاريخة ، م ٤ ، ج ١ ، ص ٨٧ . هنا يعطينا الدكتور جمال الدين الشيال محقق كتاب مفرج الكروب لابن واصل تفسيرا لمعنى القنطاريات بقوله : القنطارية نوع من الرمح وهى لفظ من أصل يونانى وسميت هكذا لانها تصنع من نوع من الخشب يحمل هذا الاسم باليونانية . وقد وصفها مرضى بن على بن مرضى الطرطوسى فى مخطوطته (تبصير ارباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الاسواء) بقوله أنها أقرب فى شكلها من الرماح المصنوعة من الخشب الزان وما يشبهه . وهى ليست بالطويلة ويطعنون بها .. وأسنتها قصار عراض كهيئة البلطية » .

(٩١) Stevenson : Op. Cit., P. 196.

(٩٢) L. Bréhier : Viet et Mort.., P. 340.

(٩٣) Runciman : Op. Cit., V. 2, PP. 390 — 391, Stevenson : Op. Cit., P. 199, The Cambridge Hist, of Islam, P. 202.

(٩٤) L. Bréhier : Viet et Mort..., P. 340.

(٩٥) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 558.

(٩٦) Runciman : Op. Cit., V, 2. P. 390.

(٩٧) L. Bréhier : Vie et Mort..., P. 340.

(٩٨) Setton : Op. Cit., V. 1, P. 559, Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 391.

وقد صحبه فى رحلته بعض كبار رجال المملكة مثل أسقف عكا وجيرارد البوجى Gerard of Pougi مارشال البلاد .

(٩٩) L. Bréhier : Op. Cit., P. 340.

هنا يذكر بربيه أنه تم فيها ابعاد كل الشروط والظروف التى لم تعد مجدية .

(١٠٠) Steven'son : Op. Cit., P. 200.

(١٠١) Runciman : Op. Cit., V. 2, P. 391.

(١٠٢) Runciman : Ibid., V. 2, P. 392.

وهكذا قضى الملك عمورى الفترة ما بين مارس ويونية فى القسطنطينية
Steven'son : Op. Cit., P. 200.

(١٠٣) ابن الأثير : البـاهر ، ص ١٥٦ ، أبو شـامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

(١٠٤) ابن الأثير : نفس المصدر والصفحة ، أبو شامة نفس المصـدر ، ص ٢٠٠ هنا يخطىء (سيتيفنسون) فى القول بأن الخليفـة العاضد توفى فى ١٣ سبتمبر ١١٧١ م وفى الجمعة التالية تم الدعاء للخليفة العباسى على المنابر .
(Stevenson : Op. Cit., P. 197).

لكن الراجح أن الدعوة للخليفة العباسى سبقت وفـاة العاضد كمـا أوضحت المصادر العربية ذلك .

(١٠٥) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٦١ . ومع الجفوة بين نور الدين وصلاح الدين أنظر المصدر نفسه ص ١٥٨ – ١٥٩ .

(١٠٦) L. Bréhier : Op. Cit., P. 340, Runciman : Op. Cité., V. 2, PP. 398 — 399, Stevenson : Op. Cit., P. 203.

الخاتمـــة

وهكذا كان الاستيلاء على شواطىء مصر حلما راود باستمرار المتربعــين على عرش الروم فعبــأوا له الجهود ورسموا الخطط وحشدوا القوات وأرســلوا الأساطيل ، ولا غرو فقد كان امتلاك مصر بصفة دائمة هو الأمل المنشــود بالنسبة للروم ، لمــا كانت عليه من موقع جغرافى ممتاز الى جانب غناها الاقتصادى المرموق وخاصة كمنتج مهم للقمح ٠

ومما يجدر ذكره أن ندون هنا تلك الملحوظة المهمــة لأحــد المراجع الغربية ، وهى التى أكد فيها أن مصر كانت باستمرار بلدا مميزا بالنسبة لحضــارة البحر المتوسط ، حيث « أثرت فى تلك الحضارة ولم تتأثر بها » ، ولم تنس الاسكندرية على الاطلاق أنها كانت العاصمة الباعثة على الفخار للبطالمــة وأنها لم ترضــخ على الاطلاق لسيادة روما أو القسطنطينية سواء فى النواحى السياسية أو الدينية ٠ وبالاضافــة الى ذلك فان الملامح والســمات المميزة للحضارة الهندوأوروبية لم تمد جذورها بعمق على الاطلاق على أرض مصر »(١) ٠

والحقيقة أن الساحل الشمالى لمصر كان باستمرار عقبــة كأداء لأى غــاز أو مهــاجم لمصر من ناحيــة البحر المتوسط وعليه

فقد صدق القول بأنه « لا يوجد أى غزو ناجح لمصر من البحر فى الفترة ما بين قيصر وبونابرت »(٢) ٠

واذا كانت شواطىء مصر الشمالية قد تعرضت ـ كما مر بنا ـ للعديد من هجمات الروم البحرية ، فان دمياط بالذات منيت بأكبر عدد من تلك الهجمات ، ولكنها أثبتت باستمرار قدرتها وشجاعتها فى الذود عن أرضها واستطاعت على الدوام أن ترد كيد الروم الى نحرهم وتعيدهم خاسرين ٠

واذا كنا قد ركزنا الضوء فى هذا الكتاب على فترة العصور الوسطى بالذات فاننا بتناولنا لجميع الهجمات الرومية على الشواطىء المصرية منذ بداية عصر الفتوحات الاسلاميّة لاحظنا باستمرار أن الروم كان يصعب عليهم أن يفرطوا فى مصر أو حتى أن يعترفوا بانفصالها عن الفلك الرومى ، وقد ظل الأمر كذلك حتى الحملة الرومية الصليبية على دمياط سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م ، وعندها توقف المد الرومى على مصر من جهة البحر المتوسط فلم نعثر فى ثنايا المصادر العربية والأجنبية على مجرد اشارة لأى حملة على الشواطىء المصرية ، فما سر ذلك التوقف فى ذلك الوقت بالذات ؟ وهل يحمل هذا التوقيت دلالة معينة بالنسبة للعلاقات المصرية الرومية ؟

لكشف النقاب عن تلك الفترة المهمة يجدر بنا أن نتناول بايجاز أوضاع امبراطورية الروم فى الفترة التالية وطبيعة العلاقات المصرية الرومية آنذاك ٠

فالملاحظة أن فترة حكم الامبراطور مانويل الأول كومنين ١١٤٣ ـ ١١٨٠ م(٣) شهدت فى بدايتها على الأقل فترة ازدهار وتوازن سياسى فى شئون امبراطورية الروم ـ والمقصود

بالتوازن هنا التوازن بين مصالحها فى الشرق والغرب ـ فقد كان مانويل حاكما بارعا وجنديا ودبلوماسيا ورجل دولة ، وقد خطا خطوات واسعة فى سبيل توطيد صداقته بالغربيين .. ولقد كللت جهوده فى الشرق بالنجاح الى حد بعيد لأنه واصل سياسة أبيه من قبل ، ولعل ابرز ما يوضح ـ المكانة التى ارتقاها مانويل فى الشرق أن يحتل اسمه مكان الصدارة فى سجل كنيسة الميلاد فى بيت لحم عام ١١٦٩ م ثم يليه بعد ذلك اسم ملك بيت المقدس كما لازمه التوفيق أيضا بالنسبة للجبهة الشمالية ، فقد أنهى الخلافات القديمة بين الهنغاريين (المجريين) والروم بزواج ابنته من Bella وريث العرش الهنغارى ، كما أبقى أيضا على سيادته على ستيفن نمانيا Stephen Nemanya مؤسس أشهر أسرة حكمت صربيا .

ولكن واكب ذلك النجاح لمانويل فى الشرق وهنغاريا تدهور مستمر فى نفوذه فى الغرب حيث اكتسب عداء البندقية وفشل فى تحقيق التعاون مع البابوية ، كما ووجه بعدو قوى هو فردريك بربروسا الذى دفع سلطان قونية الى الثورة ضد مانويل ومد له يد المساعدة ، ولقى مانويل نتيجة لذلك هزيمة ساحقة فى مريو سيفالون Myrio Cphalon فى آسيا الصغرى فى ١٧ سبتمبر سنة ١١٧٦ م .

عندئذ أرسل فردريك بربروسا خطابا الى امبراطور الروم « يقطر احتقارا » مخبرا اياه أن الأباطرة الألمان الذين تلقوا سلطتهم من الأباطرة الرومان العظام يجب عليهم أن يحكموا ليس فقط الامبراطورية الرومانية بل أيضا (المملكة اليونانية (Regnum Greciae) أى دولة الروم م .

أما فى الداخل فان تزايد الهوة بين المستأجرين والطبقة العسكرية الحاكمة والضرائب الباهظة وتسرب التجارة الى أيدى

التجار الأجانب وهبوط الرجال الأحرار الى مرتبة العبودية كل هذا كان مصحوبا بالسير السريع نحو نظام اقطاعي أضعف سلطة الدولة(٤) .

وقد بدأ ضعف دولة الروم يظهر بوضوح بعد وفاة الامبراطور مانويل كومنين ١١٨٠ م وذلك في عهد ابنه القاصر الكسيوس الثاني Alexius II Comnenus ١١٨٠ ـ ١١٨٣ م تحت وصاية أمه ماري الأنطاكية(٥) . وفي سبتمبر ١١٨٣ م تمكن أندرونيكوس كومنين Andronicus comnenus من دخول القسطنطينية وتخلص من الامبراطور الصغير وأمه . والواقع أن عهد أندرونيكوس كومنين كان مليئا بأعمال العنف والمؤامرات والجرائم المخيفة في الداخل .

لكن ما يهمنا هنا هو آثار سياسته الخارجية ، فاذا كان الروم قد حافظوا على علاقاتهم الطيبة مع المجريين والصرب في عهد الامبراطور مانويل ، الا أنه بعد اعتلاء أندرونيكوس العرش ، فان ملك المجر وملك الصرب جعلا من نفسيهما المنتقمين لأرملة الامبراطور الراحل . وهكذا تحالف المجريون والصرب في ١١٨٣ م وغزوا الامبراطورية(٦) . وكانت أشد الضربات على الامبراطورية موجهة اليها من جانب نورمان صقلية الذين شنوا من جديد هجوما قاسيا ضد الروم .

هنا حاول أندرونيكوس أن يخلص نفسه من هذا المأزق الحرج بالتحالف مع صلاح الدين في مصر من ناحية ، ومع البنادقة في الغرب من ناحية أخرى(٧) .

لكن لم تلبث سالونيكا Thessalonica ـ وهي المدينة الثانية في الامبراطورية أن سقطت في يد النورمان فأنزلوا بأهلها

أشد أنواع العذاب والموت . عندئذ قامت فى العاصمة الرومية ثورة عاصفة فى ١٢ سبتمبر ١١٨٥ م انتهت بتقطيع آخر أباطرة اسرة آل كومنـــين اربـا ونـودى باسحـــاق الثـــانى انجيـلوس Isaac II Angelus امبراطورا(٨) ١٨٨٥ ـ ١١٩٥ م . وهكذا شغل عرش الروم خلال الفترة الممتدة ما بين عامى ١١٨٥ ، ١٢٠٤م بأفراد من بيت انجيلوس الذين لم يكن لأحد منهم حسن سياســة حنا أو مانويل كومنين(٩) .

تطورت الأحداث بسرعة بعد انتصـــار صــلاح الدين الأيوبى الباهر على الصليبيين فى حطين فى يوليه ١١٨٧ م . هنــا تحرك ملوك أوربا البارزون أمثال فردريك بربروســا وفيليب اغسطس وريتشارد قلب الأسد فى حملة صليبية جديدة ـ الحملة الثالثة ـ عندئذ اختار فردريك الطريق البرى ، وكان قد وصــل الى اتفاق مع الروم فى خريف ١١٨٨ م بخصـــوص مرور القوات الألمـانية ووقع معهم معاهدة بهذا الشأن ، ولكن الروم ساورهم الشــك ، لدخول بربروسا فى مفاوضات مع أعدائهم أمثـــال سلطان قونيــة السلجوقى(١٠) . بل أن بربروسا عقد تحالفا مع الصرب والبلغار ضد البيزنطيين(١١) .

ولقد صعد علاقات العداء بين بربروسا من جهة وبين امبراطور الروم من جهـــة أخرى تلك الزيجــة التى تمت بين الامبراطور الألمـانى والنورمان ، فقد تم الاتفاق فى عام ١١٨٤ م / ٥٨٠ هـ بين كل من بربروســا وبين وليم الثـانى النورمانى مـلك صقليــة ١١٦٦ ـ ١١٨٩ م على زواج ابن الأول هنرى السادس ، وخليفته فى حكم الامبراطورية الرومانية المقدسة من الأميرة كونستانس ابنة وليم الثانى والوريثة الشرعية لمملكة صقلية ، لذلك لم يكن غريبا أن يرتاب اسحاق الثانى فى نوايا الإمبراطور فردريك حليف وليم الثانى ، لذا بدأ فى وضع العراقيل فى طريق الجيش الألمـانى(١٢) .

بل أن امبراطور الروم اتجه الى صلاح الدين الأيوبى الذى كانت تربطه به آنذاك علاقات ودية وتحالف ضد عدوهما المشترك سلطان سلاجقة الروم(١٣) . وجدد اسحاق الثانى انجليوس مرة أخرى المعاهدة التى كان قد عقدها أندرونيكوس مع صلاح الدين على شرط ضرورة « تعويق مرور الجيش الصليبى الألمانى »(١٤).

وأكثر من ذلك فقد أرسل اسحاق الثانى الى صلاح الدين يخبره بقدوم بربروسا على رأس حملة صليبية جديدة لاسترداد بيت المقدس ، وذلك حتى يتخذ صلاح الدين من التدابير ما يكفل له الصمود فى وجهه(١٥) .

ولكن رغم كل الاجراءات التى اتخذها الامبراطور اسحاق الثانى لتعويق الجيش الألمانى فان بربروسا تمكن من الاستيلاء على أدرنه ، عندئذ لم يجد اسحاق الثانى بدا من الخضوع والتسليم بمطالب الامبراطور الألمانى وذلك فى ١١٩٠ م(١٦) .

عندئذ لم يسمع امبراطور الروم الا أن يسطر من جديد رسالة يعتذر فيها لصلاح الدين عن سماحه للجيش الألمانى بالمرور عبر بلاده ، وهى رسالة تحمل فى طياتها التحذير من عدو مشترك يتمنى له اسحاق الثانى الهلاك « وصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا وإستسعافا ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة فى جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة فيه وأنه مستمر على المودة راغب فى المحبة ويعتذر عن عبور الملك الألمانى وأنه قد فجع فى طريقه بالأمانى ونال من الشدة ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه وأنه لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع ويكون مصرعه هناك ولا يرجع ويموت بما به كاده وأنه قد بلغ فى أذاه اجتهاده »(١٧).

واذا كان فردريك بربروسا قد اندفع عبر آسيا الصغرى فى اتجاه الأرض المقدسة فانه لم يقدر له مطلقا الوصول اليها(١٨) .

ولا يعنينا هنا تتبع حملة بربروسا(١٩) ، بقدر ما يهمنا أن نشير الى أن عهد صلاح الدين شهد كما سبق الذكر تحالفين بين المصريين والروم أحدهما فى عهد أندرونيكوس كومنين والثانى فى عهد اسحاق الثانى انجيلوس • وكان هذا هو سر توقف الحملات الرومية الى شواطىء مصر فى ذلك الوقت •

ويهمنا قبل أن نختتم هذه النقطة أن نشير الى أن هذا التحالف لم يكن مثمرا بالمرة ، وقد أشار الى ذلك صلاح الدين نفسه فى احدى رسائله الى الخليفة العباسى فى بغداد عندما قال : « ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينية فى أننا ننجده على قبرس فانا انما وعدناه بالنجدة عليها لما كانت بيد عدونا ، والله ما أفلح ملك الروم قط ولا نفع أن يكون صديقا ولا ضر أن يكون عدوا »(٢٠) •

وهكذا توقفت هجمات الروم البحرية ضد الشواطىء المصرية على عهد صلاح الدين الأيوبى ، ولم يعد الروم يشكلون خطرا قريبا أو بعيدا بالنسبة لمصر •

ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال •

تم بحمد الله

هوامش الخاتمـة

(١) Allan Chester Johson and Louis C. West : Byzantine Egypt, P. 4.

(٢) 2. The Cambridge Hist. of Islam, V. I, P. 102.

(٣) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 578.

(٤) ج.م هس : العـالم البيزنطى ترجمـة د. رأفت عبد الحميد ، ص ١٨٨ ــ ١٩٨ ، ١٩٤ ــ ١٩٧ ؛ د. حسنين ربيع : دراسـات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢١٧ ــ ٢١٨ ، ٢٢٤ ــ ٢٢٥ ، ٢٢٨ ــ ٢٣١ .

(٥) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 394.

كان الكسيوس الثانى فى الثانية عشرة من عمره عند اعتلائه العرش .

(٦) G. Ostrogorsky : Ibid., PP. 396 — 399.

هنا يذكر احد المراجع الأجنبية أن انتقام ملك المجر كان راجعـا الى رغبته فى الانتقام لموت أخت زوجته ماريا الأنطاكية

(Cam. Med Hist. V. IV, Part. I, P. 245).

(٧) G. Ostrogorsky : Ibid., P. 399, Cam. Med. Hist., V. IV, Part, 1, P. 245.

هنا يحدد لنا الأستاذ الدكتور حسنين ربيع ملابسـات ذلك التحالف المصرى الرومى بقوله « أن الأستاذ اهرنكريتز Enhrenkreutz : Saladin أشار الى أنه فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر الميـلادى تقارب كل من البيزنطيين والأيوبيين لمواجهة عدوهما المشترك ، فالنورمان فى صقلية كانوا ذا خطر على مصر كما هو الحـال بالنسبة لبيزنطة وسلاجقة الروم فى قونية استولوا على كثير من الأقاليم البيزنطية فى آسيا الصغرى وهددوا مصالح صلاح الدين

فى شمال الشام ، وجزيرة قبرص التى ثارت ضد القسطنطينية تطلعت كى ترث الصليبيين فى المستقبل . يضاف الى ذلك الصليبيون وحلفاؤهم فى غرب أوربا كونوا جبهة عدائية ضد البيزنطيين وكذلك ضد الأيوبيين . (د. حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية) ، ص ٢٣٤ .

(٨) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 400, Cam. Med. Hist., V. IV, Part I, P. 245.

(٩) ج.م هسى : العالم البيزنطى ، ترجمة د. رأفت عبد الحميد ، ص ١٠٩٩ .

(١٠) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 406, Cam. Med. Hist., V. IV, Part. 1, P. 246.

هنا يذكر د. حامد زيان : الامبراطور فردريك بربروسا ، ص ٢٧ . أن معاهدة ١١٨٨ م التى عقدت فى نورمبرج بين اسحاق الثانى وفردريك بربروسا كانت تنظم العلاقة بين الجيش الألمانى الذى سيمر بأراضى الامبراطورية البيزنطية وبين الامبراطور البيزنطى وتعهد اسحاق الثانى بمقتضاها أن يقدم المؤن والعلوفات اللازمة للجيش الألمانى .

(١١) G. Ostrogorsky : Ibid., P. 406.

(١٢) د. حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٢٩ — ٣١ . هنا يذكر نفس المرجع عن Tout, Finlay أن الأوامر الامبراطورية صدرت بقطع الأشجار الضخمة ووضعها فى الممرات والطرق والمسالك لتسدها وتشل تحركات الجيش الألمانى وتقدمه فى أراضى الامبراطورية البيزنطية كما وضعت الخطط لاختطاف كل من يتخلف أو يخرج عن صفوف الجيش الألمانى وفى نفس الوقت منع الامبراطور البيزنطى عن الجيش الألمانى تزويده بالمؤن والعلوفات اللازمة والتى كانت ضرورية بالنسبة للجيش الألمانى الضخم البالغ عدده مائة ألف مقاتل » .

(١٣) د. حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٢٥ . فقد اتفق صلاح الدين الأيوبى وامبراطور الروم اسحاق الثانى على اقامة الخطبة العباسية على منابر جوامع القسطنطينية وأرسل صلاح الدين المؤذنين والقراء الى القسطنطينية لهذا الغرض .

(١٤) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 407, Cam. Med Hist. V. IV, Part. 1, P. 246.

هنا يذكر رنسيمان أن هدف اسحاق الثانى من وراء ذلك التحالف لم يكن تحطيم مصالح الصليبيين بقدر ما كان هدفه كبح جماح قوة السلاجقة (Runciman : Op. Cit., V. 3, P. 12).

أما الدكتور حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٧ فيوضح لنا أبعاد المعاهدة التى كانت بين أندرونيكوس وصلاح الدين والتى حالت بعض نصوصها بالاضافة الى الظروف المحيطة بامبراطورية الروم نفسها دون تنفيذها . فقد اقترح الامبراطور أندرونيكوس عن طريق سفارة أرسلها الى صلاح الدين فى صيف ١١٨٥ م قيام تحالف بينهما وأن يقوما بفتح فلسطين وان تقسم بينهما على أن ينال الروم بيت المقدس والمدن الساحلية ما عدا عسقلان . وانه اذا تم الاستيلاء على آسيا الصغرى فسوف تعود للروم ، وفى مقابل ذلك وعد أندرونيكوس صلاح الدين بالمساعدة فى صراعه ضدالصليبيين فى الشام . وهنا يضيف الدكتور ربيع أنه من المحتمل أن القسطنطينية ادعت دون وجه حق نوعا من السيادة وطالبت بتنازلات كثيرة فى فلسطين بما فى ذلك بيت المقدس ومختلف المدن الساحلية لذلك عارض صلاح الدين ذلك ولم يتلق صلاح الدين ردا جديدا على شروطه الخاصة بالتحالف الا فى عهد اسحاق الثانى ، حيث تلقى الامبراطور الجديد رد صلاخ الدين بالترحاب .

(١٥) د. حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٣٥ ــ ٣٦ .

(١٦) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 406.

(١٧) أبو شامة : الروضتين .. ، ج ٢ ، ص ١٥٩ ، حوادث ٥٨٦ هـ.

(١٨) G. Ostrogorsky : Op. Cit., P. 407.

(١٩) انظر كتاب الدكتور حامد زيان : الامبراطور فردريك بربروسا لمعرفة تفاصيل تلك الحملة الصليبية .

(٢٠) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧٨ .

الملاحـــق

ملحـق رقـم (١)

كتاب هرقل (لقرة) أسقف الاسكندرية يعتذر عما بدر منه تجاهه ويطلب منه مداراة المسلمين عن :

Agapitus : Kitab Al-Unvan, Patrologia

Orientalis, V. VIII, PP. 473 — 474.

« أما بعد فان قوما أعطوني فيك العشوا ورفعوا التى عنك الباطل فأسرعت الى القبول منهم وأجبتهم الى ما سألوا وقد علمت أن هؤلاء أرسلوا كافة على النـاس وأن الله قد كان وعد ابراهيم بن اسماعيل أن يخرج من ظهره ملوكا كثيرة ووعد الله حق لا مرد له ولا مندفع . فان قدرت على مدارة القوم ودفعهم عن مصر بما عز وهان فأفعل واذا استطعت أن تدفع اليهم الشرط الأول الذى كتب ووافقتهم عليه فأفعل ذلك فقد قلدتك أمر مصر وفوضت اليك أمرها وأعمل بحسبه » .

ملحق رقم (٢)

وصف رسل المقوقس للعرب الفاتحين

عن : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٥

« ... رأينا قوما الموت أحب الى أحدهم من الحياة والتواضع أحب اليه من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، انما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم . فقال عند ذلك المقوقس ، والذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد .. » .

ملحق رقم (٣)

خطاب أسد الدين شيركوه الى

عمورى ملك بيت المقدس ٥٥٩ هـ (*)

عن : ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٧ ، الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، ص ٢٧ .

« ليس لك فينا غرض ، ولا معنا مال يقنعك ، فان شاور عدر بنا ، ولم يوفنا ما شرطه لنا من المال . ونحن قوم غرباء من

(*) هنا يطلق ابن أيبك اسم مرى قلى عمورى ويسميه ملك الروم وهذا خطأ . والراجع أن هذا الخطاب أرسل الى الملك عمورى بعد سلخ جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ وذلك بعد مقتل ضرغام ودخول أسد الدين شيركوه وصلاح الدين القاهرة فى وزارة شاور (ابن أيبك : كنز الدر ، جـ ٧ ، الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، ص ٢٧ .

هذه الديار ، أتينا لنصرة هـذا الغادر والبغى له مصرع • وانت تعلم أن وراءنا مثل الملك العـادل نور الدين • وكأنك به وقد أطل عليك بجيوش تعرفها ولا تنكرها وأنت قصـدك مال ومصر قدامك ، وهى أحب اليك من مطاولتنا بغير فائدة لك • وليس بمصر مانع يمنعك عنها • فان تركت البغى ، وقنعت بما فى أيدينا من فضـلات نفقاتنا نفذناها اليك ، وتدعنا نرجع الى بلادنا وان أبيت فنحن والله ما يقتل الواحد منا حتى يقتل عدة منكم • وبعد ذلك ، المدد واصل الينا والسلام » •

ملحـق رقـم (٤)

مقتطفات من كتـاب نور الدين الى الخليفة العاضـد

بعد رحيـل الصليبيين والروم عن دميـاط

٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م

عن : البنـدارى : سـنا البرق الشـامى القسـم الأول ص ٨٧ ــ ٨٨ •

« أطال الله بقاء فلان ، ولازالت عوادى نعمه محدقة بأوليائه أحداق الأجفان بالأحداق ، وعوادى نقمه محرقة لأعدائه احراق النيران أهـل الشـقاق ، وأعلنت رايات النصر للـدين ، وتليت آيات الذكر المبين •

« الخادم يهنىء بما سناه الله من الظفر الذى أضحك سـن الايمان ، وحصل أهل الشرك فى شرك الخذلان ، وأعاد جيش الكفر واهى الجـأش ، وبدا الضلالة بادية الارتعاش حتى عـاد حزب الشيطان مخذولا ، وسيف الله فى رقاب أعدائه مسـلولا • وذلك

ببركات الدولة التى سطع فجرها . ولولا صدق اهتمامه بأهل الإسلام وحفظ الأولياء الذين يذبون عن الدين ويحافظون على الذمام ، لكان ركن الحق يميل لكيد الباطل . فوفق الله فلانا وأيده بنصره ، وأجرى قضاءه وقدره على وفق أمره ، ورد كيد العدو والكافر فى نحره » .

ملحق رقم (٥)

مختارات من الأشعار التى قيلت فى مدح صلاح الدين

بعد انتصاره على الصليبيين والروم فى دمياط ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م

عن أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٢

للشهات فتيان الشاغورى قصيدة يقول فيها

ولا غرو أن عاد الفرنج هزيمة
ولو لم تعد لم يبق للشرك ساحل

فقد أيقنت أعداؤه أن حظهم
لديه رماح أشرعت أو سلاسل

ولما أتوا دمياط كالبحر طاميا
وليس له من كثرة القوم ساحل

يزيد عن الاحصاء والعد جمعهم
ألوف ألوف خيلهم والرواجل

رأوا دونهم أسدا بأيديهم القنا
وبيضا رقاقا أحكمتها الصياقل

وداروا بها فى البحر من كل جانب
ومن دونها سد من الموت حائل

رجـا الكلب ملك الروم اذ ذاك فتحها
فخـاف فـأم الملك والروم هـابل
فعـادوا على الأعقـاب منها هزيمـة
كـأنهم ذلا نعـام جـوافل

وللعمـاد الأصفهـانى :

يا يوسف الحسن والاحسان يا ملكا
بجـده صـاعدا أعـداؤه هبطـوا
حللت من وسـط العليـاء فى شرف
ومركز الشمس من أفلاكهـا الوسط
هنيت صونك دميـاط التي اجتمعت
لهـا الفرنـج فمـا حلوا ولا ربطـوا

وللعمـاد أيضـا :

يوسـف مصر الذى ملاحمهـا
جـاءت بأوصـافه تعرفهـا
كتـب التـواريخ لا يزينهـا
الا بأيامـه مصنفهـا
وحطـت دميـاط اذ أحـاط بهـا
مـن برجـوم البـلاد يقذفهـا
لاقت غـواة الفـرنج خيبتهـا
فـزاد من حسـرة تأسـفها
أوردت قـلب القـلوب أرشـيا
من القنـا للدمـاء تنزفهـا
يمضى لـك الله فـى قتـالهم
عزيمـة للجهـاد ترهفهـا

المصـــادر والمراجـــع

(أ) المصادر العربية :

١ ــ ابن الأثير الجــزرى : (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)
الشيبانى الملقب بعز الدين :

أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد .

(أ) الكامل فى التــاريخ ، جـ ١ ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

(ب) التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (بالموصل) تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، الطبع والنشر دار الكتب الحديثــة بالقــاهرة ومكتبــة المثنى ببغــداد .

(جـ) اسد الغابة فى معرفة الصحابة ، المجلد الثــانى كتاب الشعب .

٢ ــ ابن اياس : (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م)
أبو البركات محمد بن أحمد

بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، من سلسلة كتاب الشعب ج ١ .

٣ ـ ابن أيبك الدوادارى : (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)
أبو بكر عبد الله : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع ، الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧٢ م .

٤ ـ البلاذرى : (ت حوالى ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)
أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، فتوح البلدان ، حققه وشرحه عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م .

٥ ـ البندارى : (٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م)
قوام الدين الفتح بن على ، سنا البرق الشامى ، تحقيق الدكتور رمضان ششن ، القسم الأول ، دار الكتاب الجديد ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٧١ .

٦ ـ ابن الجوزى : (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م)
أبو الفرج عبد الرحمن بن على : تاريخ عمر بن الخطاب ، تقديم وتعليق أسامة عبد الكريم الرفاعى .

٧ ـ ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)
عبد الرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٣ ، ٤ ، ٥ ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

٨ ـ الذهبى : (٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)
شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان :
دول الاسلام ، جـ ١ ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، محمد مصطفى ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .

٩ ـ السيوطى : ت (٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)
جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر :

(أ) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق **محمد أبو الفضل ابراهيم ، الجزء الأول** دار احياء الكتب العربية الطبعة الأولى ، ١٩٦٧ م ـ ١٣٨٧ هـ ، جـ ٢ ، ١٩٦٨ م ـ ١٣٨٧ هـ .

(ب) تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد المجيد ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .

١٠ ـ أبو شامة : (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م)
شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى : الروضتين فى أخبار الدولتين ، رواية الامام مجد الدين أبى المظفر يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعى جـ ١ ، ٢ دار الجيل بيروت .

١١ ـ ابن شداد : (ت ٦٢٣ هـ / ١٢٣٤ م)
بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق د. جمال الدين الشيال ، سلسلة تراثنا ، الطبعة الأولى ١٩٦٤ .

١٢ ـ الشرقاوى :

الشيخ عبد الله : تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين وهو هامش لكتاب فتوح الشام للواقدى ، طبعة المطبعة العثمانية ١٣١٥ هـ ٠

١٣ ـ الأصطخرى :

توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى : أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالكرخى : مسالك الممالك ، معول على كتاب صور الأقاليم للشيخ أبى زايد أحمد بن سهل البلخى ٠

١٤ ـ الطبرى : (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)

محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، سلسلة ذخائر العرب ، ج ٤ ، ٥ دار المعارف بمصر ٠

١٥ ـ ابن عبد البر : (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد : الاستيعاب فى معرفة الصحابة ، القسم الثانى حرف الخاء ، تحقيق على محمد البجاوى ، مطبعة النهضة بمصر ٠

١٦ ـ ابن عبد الحكم : (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م)

أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشى المصرى :

(أ) فتوح مصر واخبارها ، طبع فى مدينة ليدن بمطبعة بريل ١٩٣٠ ـ مكتبة المثنى ببغداد ٠

(ب) فتوح افريقيـــا والأندلس ، حققـه وقـدم له د· عبد الله أنيس الطباع ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٤ ·

١٧ ـ العسقلاني : (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م)
شـهاب الدين أبي الفضـل أحمد بن علي بن حجر : **تهذيب التهذيب ، جـ ٨ ، دار صادر بيروت ·**

١٨ ـ ابن العماد : (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م)
أبو الفـلاح عبد الحي بن علي بن محمد : شـذرات الذهب في أخبار من ذهب ، جـ ١ ، ٢ المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ·

١٩ ـ أبو الفدا : (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)
الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل : المختصر في أخبار البشر ، جـ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، الطبعة الأولى ، المطبعة الحسينية المصرية ·

٢٠ ـ ابن الفرات : (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م)
ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم : تاريخ ابن الفرات، المجـلد الرابع الجزء الأول : تحقيق ونشر الدكتور حسن محمد الشماع ، مطبعة حداد ، بصرة عشار ، ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧ م ·

٢١ ـ القزويني : (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م)
زكريا بن محمد بن محمود : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر بيروت ١٣٨٩ هـ ـ **١٩٦٩ م ·**

٢٢ ـ القلقشندى : (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)
أبو العباس أحمد : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ٥ .

٢٣ ـ ابن القلانسى : (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م)
حمزة بن يعلى : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨ .

٢٤ ـ ابن كثير : (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م)
عماد الدين أبى الفداء اسماعيل بن عمر : البداية والنهاية فى التاريخ ، تحقيق ومراجعة محمد عبد العزيز النجار ، ج ٧ مؤسسة دار العربى للنشر والتوزيع . الرياض .

٢٥ ـ الكندى : (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م)
أبو عمر محمد بن يوسف : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨ .

٢٦ ـ أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م)
جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٢ ، ٥ ، ٦ ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ، ج ٥ مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٥ م ١٣٥٣ هـ .

٢٧ ـ المقريزى : (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م)
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد :

(أ) اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م ٠

(ب) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، دار التحرير للطبع والنشر ، طبعة بولاق سنة ١٢٧٠ هـ ٠

٢٨ ـ ابن ميسر : (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م)
محمد بن على بن يوسف بن جلب : أخبار مصر ، جـ ٢ ، مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى الخاص بالعاديات الشرقية بمصر ١٩١٩ ٠

٢٩ ـ ابن واصل : (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م)
جمال الدين محمد بن سالم : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ ١ ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، مطبوعات ادارة احياء التراث القديم ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٤٣ ٠

٣٠ ـ الواقدى : (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م)
أبو عبد الله بن عمر : فتوح الشام ، جـ ٢ ، دار الجيل ، جـ ٢ ، طبعة المطبعة العامرية العثمانية بباب الشعرية ، صفر ١٣١٥ هـ ٠

٣١ ـ اليافعى : (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م)
أبو محمد عبد الله بن سعد بن على بن سليمان : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، جـ ٣ ، الطبعة الثانية ، منشورات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، بيروت ، لبنان : ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م ٠

٣٢ ــ اليعقوبى : (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م)
أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح : تاريخه ، المجلد الثانى ، دار صادر وبيروت ، ١٣٧٩ هـ ــ ١٩٦٠ م بيروت .

(ب) المراجع العربية والمعربة :

١ ــ ابراهيم أحمد العدوى : (الدكتور)
الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، مطبعة لجنة البيان العربى .

٢ ــ أرنست باركر :
الحروب الصليبية ، نقله الى العربية الدكتور السيد الباز العرينى ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثانية بيروت لبنان .

٣ ــ أسد رستم : (الدكتور)
الروم سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ج ١ ، ٢ ، دار المكشوف ، بيروت الطبعة الأولى ١٩٥٥ .

٤ ــ اسمت غنيم : (الدكتورة)
الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ، دار المجمع العلمى بجدة ، ١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧ م .

٥ ــ السيد الباز العرينى : (الدكتور)
(أ) مصر البيزنطية ، دار النهضة العربية ، مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٦١ .

(ب) الدولة البيزنطيـــة ، ٣٢٣ هـ ـ ١٠٨١ م ،
بيروت ١٩٨٢ ٠

٦ ـ ج٠م٠ هسى :
العالم البيزنطى ، ترجمة الدكتور رأفت عبد الحميد ،
الطبعة الثانية ، دار المعارف ٠

٧ ـ حامد زيان : (الدكتور)
الامبراطور فردريك بربروســا والحملة الصليبيــة
الثالثة ١٩٧٨ ٠

٨ ـ حامد غنيم أبو سعيد : (الدكتور)
الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، الجزء
الثانى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٧٢ ٠

٩ ـ حسن ابراهيم حسن : (الدكتور)
تاريـخ الدولة الفاطميـــة ، الطبعـة الثالثـــة ،
القاهرة ١٩٦٤ ٠

١٠ ـ حسنين محمد ربيع : (الدكتور)
دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، دار النهضـــة
العربية ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م ٠

١١ ـ زامبور : (المستشرق)
معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ،
مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١ ٠

١٢ ـ سعاد ماهر : (الدكتورة)
البحرية فى مصر الاسلاميـــة وآثارها الباقيـــة ، دار
الكاتب العربى للطباعة والنشر ٠

١٣ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : (الدكتور)
(أ) بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، جامعة بيروت العربية ، بيروت ١٩٧٧ .
(ب) الحركة الصليبية ، جـ ١ ، مطبعة لجنة البيان العربى ، سنة ١٩٦٣ .

١٤ ـ سيدة كاشف : (الدكتورة)
(أ) مصر فى فجر الاسلام ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ .
(ب) مصر فى عصر الاخشيديين ، الطبعة الثانية ١٩٧٠ .
(جـ) العرب والبحار ، الكتاب السنوى الثانى ، كلية البنات بالرياض للعام الجامعى ١٣٩٦/٩٥ هـ .

١٥ ـ عبد الرحمن الرافعى ، سعيد عبد الفتاح عاشور .
مصر فى العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٧٠ .

١٦ ـ على ابراهيم حسن : (الدكتور)
مصر فى العصور الوسطى ، الطبعة الخامسة ، مطبعة السعادة ١٩٦٤ .

١٧ ـ قدرى قلعجى :
صلاح الدين الأيوبى : قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد دار الكاتب العربى .

١٨ ــ نظير سعداوى :
جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ .

١٩ ــ نقولا يوسف :
تاريخ دمياط منذ أقدم العصور ، الاتحاد القومى بدمياط .

٢٠ ــ وسام عبد العزيز فرج : (الدكتور)
العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلاد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية ١٩٨١ .

(ج) المصادر والمراجع الأجنبية :

1. Agapitus de Menbidj : Kitab Al Unvan, Patrologia Orientalis, V. VIII (Tomus actavus).

2. Anna Comnena : The Alexiad, translated by Elizabeth. A.S. Dawes, London, 1967.

3. Bréhier (L.) : Vie et Mort de Byzance, Paris, 1947.

4. Butler (A.J.), D. Litt, F.S.A. : The Arab conquest of Egypt and the Last thirty years of the roman dominion, Oxford At the Clarendon Press 1902.

5. Daniel (N.) : The Arabs and Mediaeval Europe, Longman, London and New Yorq, Librairie du Liban.

6. Dawsan (C.) : Le Moyen-age et les origines de L'Europe, Arthaud, France.

7. Fahmy (A.M.) (Doctor) : Muslim Sea-Power in the works of Imad Al?Din and Baha Al-Din, Oxford. At the Clarendon, Press 1973.

9. Grousset, R. : L'Empire du Levant, Paris 1949.

10. Johnson (A.C.) and Louis C. West : Byantine Egypt, Economic Studies, Preinceton University Press, 1949.

11. Lan-Poole (S.), A.A. :
    a) Saladin and the fall of the Kingdon of Jerusalem, G.P. Putman's Sons. New York, London
    b) A History of Egypt V. I, London 1936.

12. Larousside Encyclopedia of Ancient and Medieval History, General Editor : Marcel Dunan, Honorary, Foreward by Arnold Toynbee Hamyln, London, New York, Sydney, Toronto.

13. Lemerle (P.) Le Monde de Byzance, Histoire et Institutions, Variorum reprints, London 1978.

14. Lewis (B.) : The Arabs in History, Hutchinson of London.

15. Michel Le Syrien Recueille des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, T. 1.

16. Ostrogorsky (G.) : History of the Byzantine State, Translated by Joan Hussy, Oxford, 1968.

17. Prawer (J.) : Histoire du Royaume Latin de Jerussalem, Tome 1, Paris 1969.

18. Runciman (S.) : A History of the Crusades Volume 1, 2 1952. V. 3.

19. Setton (K.M.) : A History of the Crusades Volume 1, Edited by Marshall W. Baldwin, the University if Wisconsin Press, Madison, London, 1969.

20. Stevension (W.B.) : The Crusaders in the East, Cambridge University Press.

21. The Cambridge History of Islam, Volume, 1, edited by P.M. Holt, A NN, K.S. Lambton, Bernered Lewis Cambridge, At the University Press, 1970.

22. The Cambridge Medieval History (Cam. Med. Hist.) V. IV. The Byzantine Empire, Part, 1, Byzantine and its Neighbours, Cambridge, the University Press, 1966.

23. The Chronography of Gregory Abul Faraj, Commonly Known as Bar Hebraeus. Transtlated by Ernest A. Wallis Budge Volume 1, Oxford University Press London, 1923.

24. The New Encyclopaedia Britannica, Valume 5, (1973 — 1974) Helen Hemingway Benton, Published.

25. William H. McNeill : A world History, New Edition, Oxford University Press, 1979.

26. William of Tyre : A History of Deeds Done Beyond the Sea, Volume 1, 2, Translated and Annotated by Emily Atwater Babcock and A.C. Krey, New York, 1943.

الفهـــرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

صــدر من هــذه السلسلة

١ ـ **مصطفى كامل فى محكمة التاريخ ،**
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٢ ـ **عـلى ماهـر ،**
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧

٣ ـ **ثورة يوليو والطبقة العاملة ،**
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧

٤ ـ **التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة ،**
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧

٥ ـ **غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى**
علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧

٦ ـ **هؤلاء الرجـال من مصر ، ج ١ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧

٧ ـ **صـلاح الدين الأيوبى ،**
د. عبد المنعم ماجـد ، ١٩٨٧

٨ ـ **رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية ،**
د. على بركات ، ١٩٨٧

٩ ـ **صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،**
د. محمـد أنيس ، ١٩٨٧

١٠ ـ **توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية ،**
محمـود فـوزى ، ١٩٨٧

١١ ـ **مائة شخصية مصرية وشخصية ،**
شـكرى القـاضى ، ١٩٨٧

١٢ ـ **هدى شعراوى وعصر التنوير ،**
د. نبيـل راغب ، ١٩٨٨

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصري للسودان : رؤية تاريخية ،
د· عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونيـة ،
د· سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاســلامى ،
د· على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨

١٦ ـ فصــول من تاريخ حركة الاصــلاح الاجتماعي فى مصر : دراسة عن دور الجمعيــة الخيرية (١٨٩٢ ـ ١٩٥٢) ،
د· حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ـ القضاء الشرعي فى مصر فى العصر العثمانى ،
د· محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القــاهرة المملوكية ،
د· علي السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ـ مصر القديمــة وقصة توحيد القطرين ،
د· أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ـ دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراســلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ،
د· محمــد انيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ ،
د· توفيــق الطويــل ، ١٩٨٨

٢٢ ـ نظـرات فى تاريخ مصـــر ،
جمــال بدوى ، ١٩٨٨

٢٣ ـ التصــوف فى مصر ابان العصر العثمــانى ج ٢ ، أمــام التصوف فى مصر : الشعرانى ،
د· توفيــق الطويــل ، ١٩٨٨

٢٤ ــ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ــ ١٩٣٦) ،**
د٠ نجوى كامل ، ١٩٨٩

٢٥ ــ **المجتمع الاسلامى والغرب ،**
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين : ترجمة : د٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩

٢٦ ــ **تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،**
د٠ سعيد اسماعيل على ، ١٩٨٩

٢٧ ــ **فتح العرب لمصر ، ج ١ ،**
تأليف : ألفريد ج ٠ بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٨ ــ **فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،**
تأليف : ألفريد ج ٠ بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٩ ــ **مصر في عصر الاخشيديين ،**
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩

٣٠ ــ **الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،**
د٠ حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٩

٣١ ــ **خمسون شخصية مصرية وشخصية ،**
شكرى القاضى ، ١٩٨٩

٣٢ ــ **هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩

٣٣ ــ **مصر وقضايا الجنوب الافريقى : نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،**
د٠ خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩

٣٤ ــ **تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،**
د٠ يونان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ **أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠

٣٦ ـ **المجتمع الاسـلامي والغرب ، ج ٢ ،**
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د· أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠

٣٧ ـ **الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،**
د· سـليمان صـالح ، ١٩٩٠

٣٨ ـ **فصـول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمـانى ،**
د· عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠

٣٩ ـ **قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ،**
د· جميـل عبيـد ، ١٩٩٠

٤٠ ـ **الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،**
د· عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، ١٩٩٠

٤١ ـ **محمد فريد : الموقف والمـأساة ، رؤية عصرية ،**
د· رفعت السعيد ، ١٩٩١

٤٢ ـ **تكوين مصر عبد العصـور ،**
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠

٤٣ ـ **رحـلة فى عقول مصريـة ،**
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠

٤٤ ـ **الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د· محمد عفيفى ، ١٩٩١

٤٥ ـ **الحـروب الصليبية ، ج ١ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم د· حسن حبشى ، ١٩٩١

٤٦ ــ **تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ ــ ١٩٥٧) ،**
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١

٤٧ ــ **تاريخ القضاء المصرى الحديث ،**
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١

٤٨ ــ **الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى ،**
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١

٤٩ ــ **العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ــ ١٩٧٩) ،**
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٠ ــ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ــ ١٩٥٤) ،**
د. سهير اسكندر ، ١٩٩٣

٥١ ــ **تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، فى ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٢ ــ **مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن الثامن عشر :**
د. الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

٥٣ ــ **اربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة،**
د. محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢

٥٤ ــ **الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د. محمد عفيفى ، ١٩٩٢

٥٥ ــ **الحروب الصليبية ج ٢ ،**
تأليف : وليم الصورى : ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٢

٥٦ ــ **المجتمع الريفى فى عصر محمد على : دراسة عن اقليم المنوفية ،**
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٢

٥٧ ـ **مصر الاسلامية وأهل الذمة ،**
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢

٥٨ ـ **أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،**
د. ابراهيم عبد الله المسلمى ، ١٩٩٣

٥٩ ـ **الرأسمالية الصناعية فى مصر ، من التمصير الى التأميم (١٩٥٧ ـ ١٩٦١) ،**
د. عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

٦٠ ـ **المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٣

٦١ ـ **تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث ،**
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٣ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣

٦٣ ـ **موسوعة تاريخ مصر عبد العصور : تاريخ مصر الاسلامية،**
تأليف : د. سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٤ ـ **مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء دراسة وثائقية ،**
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣

٦٥ ـ **موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ ـ ١٩١٧)**
سهام نصار ، ١٩٩٣

٦٦ ـ **المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى ،**
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

٦٧ ـ **مساعى السلام العربية الاسرائيلية : الأصول التاريخية ،**
(أبحاث الندوة التى اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس

الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ - **الحروب الصليبية ، ج ٣ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة : وتعليق : د. حسن حبشي ، ١٩٩٣

٦٩ - **نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١) ،**
د. محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ - **أهل الذمة فى الاسلام ،**
تأليف : أ.س. ترتون ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشي ط ٢ ، ١٩٩٤

٧١ - **مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٤

٧٢ - **رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ،**
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤

٧٣ - **تاريخ جامعة القاهرة ،**
د. رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤

٧٤ - **تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، فى العصر الفرعونى**
د. سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤

٧٥ - **أهل الذمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الأول ،**
د. سلام شافعي محمود ، ١٩٩٥

٧٦ - **دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الاحتلال البريطانى) ،**
د. سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥

٧٧ ـ **الحـروب الصليبية ، ج ٤ ،**
تأليف : وليم الصـورى ، ترجمـة وتعليق : د. حسـن حبشى ، ١٩٩٤

٧٨ ـ **تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ ـ ١٨٩٩) ،**
نعمات أحمد عتمان ، ١٩٩٥

٧٩ ـ **تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،**
تأليف : فريد دى يونج ، ترجمـة : عبد الحميـد فهمى الجمـال ، ١٩٩٥

٨٠ ـ **قنـاة السـويس والتنـافس الاسـتعمارى الأوربى (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ،**
د. السيد حسين جلال ، ١٩٩٥

٨١ ـ **تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمـة يونيو الى نصر أكتوبر ،**
د. رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥

٨٢ ـ **مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونيـة ،**
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٣ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٤ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥

٨٥ ـ **تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢)،**
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٥

٨٦ ـ **تاريخ التجـارة المصريـة فى عصر الحريـة الاقتصـادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) ،**
د. أحمد الشربينى ، ١٩٩٥

٨٧ ـ **مذكرات اللورد كلرن ، ج ١ ، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥

٨٨ ـ **التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥

٨٩ ـ **تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى ،**
د٠ عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥

٩٠ ـ **معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،**
د٠ نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦

٩١ ـ **تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،**
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٦

٩٢ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ج ٢ ،**
نجوى كامل ، ١٩٩٦

٩٣ ـ **قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨) ،**
د٠ نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦

٩٤ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ، ج ٢ ،**
د٠ سهير اسكندر ، ١٩٩٦

٩٥ ـ **مصر وافريقيا ٠٠ الجذور التاريخية الافريقية المعاصرة ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة) ، أعدها للنشر ، د٠ عبد العظيم رمضان

٩٦ ــ **عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ــ ١٩٧٠)،**
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة : د· عبد الرؤوف أحمد عمرو

٩٧ ــ **العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،**
د· ايمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ ــ **هيكل والسياسة الأسبوعية ،**
د· محمد سيد محمد

٩٩ ــ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ــ الرومانى) ج ٢ ،**
د· سمير يحيى الجمال

١٠٠ ــ **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،**
أ· د· عبد العزيز صالح ، أ· د· جمال مختار ،
أ· د· محمد ابراهيم بكر ، أ· د· ابراهيم نصحى ،
أ· د· فاروق القاضى ، أعدها للنشر : أ· د· عبد العظيم رمضان ·

١٠١ ــ **ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،**
اللواء/ مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء/ عبد الحميد كفافى ، اللواء/ سعد عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ ــ **المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ــ ١٩٥٢ ،**
د· تيسير أبو عرجة

١٠٣ ــ **رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره ،**
د· على بركات

١٠٤ ــ **تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ــ ١٩٥٢) ،**
د· فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ـ **السلطة السياسية فى مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ ـ ١٩٨٧) ،**
د. أحمد فارس عبد المنعم

١٠٦ ـ **الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ، ج ٢ ،**
د. سليمان صالح

١٠٧ ـ **الأصولية الاسلامية فى العصر الحديث ،**
تأليف : دليب هيرو ، ترجمة : عبد الحميد الجمال

١٠٨ ـ **مصر للمصريين ، ج ٤ ،**
سليم خليل النقاش

١٠٩ ـ **مصر للمصريين ، ج ٥ ،**
سليم خليل النقاش

١١٠ ـ **مصادرة الأملاك فى الدولة الاسلامية (عصر سلاطين المماليك) ، ج ١ ،**
د. البيومى اسماعيل الشربينى

١١١ ـ **مصادر الأملاك فى الدولة الاسلامية (عصر سلاطين المماليك ، ، ج ٢ ،**
د. البيومى اسماعيل الشربينى

١١٢ ـ **اسماعيل باشا صدقى ،**
د. محمد محمد الجوادى

١١٣ ـ **الزبير باشا ودوره فى السودان (فى عصر الحكم المصرى) ،**
د. اسماعيل عز الدين

١١٤ ـ **دراسات اجتماعية فى تاريخ مصر ،**
أحمد رشدى صالح

١١٥ ـ مذكراتي في نصف قرن ، ج ٣ ،
أحمـد شفيق باشـا
١١٦ ـ أديب اسحق (عاشق الحرية) ،
عـلاء الدين وحيـد
١١٧ ـ تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ ـ ١٧٩٨) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى
١١٨ ـ النظم المـالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك ،
د. البيومي اسماعيل الشربيني
١١٩ ـ النقابات في مصر الرومانية « دراسة وثائقية »
حسين محمد أحمد يوسف
١٢٠ ـ يوميات من التاريخ المصري الحديث (١٧٧٥ ـ ١٩٥٢) ،
لويس جرجس
١٢١ ـ الجلاء ووحدة وادي النيل (١٩٤٥ ـ ١٩٥٤) ،
محمد عبد الحميد الحناوي
١٢٢ ـ مصـر للمصـريين ج ٦،
سليم خليل النقاش
١٢٣ ـ السـيد أحمـد البدوي ،
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية في نصف قرن ،
د. محمد نعمـان جلال
١٢٥ ـ مصـر للمصـريين ج ٧ ،
سليم خليل النقاش
١٢٦ ـ مصـر للمصـريين ج ٨ ،
سليم خليل النقاش

١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨) ،
ابراهيم محمد محمد ابراهيم

١٢٨ ـ معــارك صحفيــة ،
جمـــال بدوى

١٢٩ ـ الدين العـام (وأثره فى تطور الاقتصـــاد المصـرى) (١٨٧٦ ـ ١٩٤٣) ،
د٠ يحيى محمد محمود

١٣٠ ـ تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧ ـ ١٩٩٧)
سـمير فريـد

١٣١ ـ الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ ـ ١٩٥٨)،
تأليف : جايل ماير ، ترجمة : د٠ عبد الرءوف أحمد عمرو

١٣٢ ـ دار المندوب الســامى فى مصر ج ١ ،
د٠ ماجدة محمـد محمود

١٣٣ ـ دار المندوب الســامى فى مصر ج ٢ ،
د٠ ماجدة محمـد محمود

١٣٤ ـ الحملة الفرنسـية على مصر فى ضـوء مخطوط عثمـانى للدارندلى ،
بقلم : عزت حسن أفندى الدارندلى ، ترجمة : جمال سعيد عبد الغنى

١٣٥ ـ اليهود فى مصر المملوكيـة (فى ضـوء وثائـق الجنيزة) (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د٠ محاسن محمد الوقاد

١٣٦ ـ أوراق يوسـف صـديق
تقديم : أ٠ د٠ عبد العظيم رمضان

١٣٧ ـ **تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى**
د. محمد عبد الغنى الأشقر

١٣٨ ـ **الاخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والارهاب فى مصر ،**
السيد يوسف

١٣٩ ـ **موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين ،**
بقلم : محمد قابيل

١٤٠ ـ **سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٢٢٦ ـ ١٢٦٥ هـ/١٨١١ ـ ١٨٤٨ م ،**
طارق عبد العاطى غنيم بيومى

١٤١ ـ **وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك فى مصر ،**
لطفى أحمد نصار

١٤٢ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٤ ،**
أحمد شفيق باشا

١٤٣ ـ **دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق.م. ،**
د. منيرة الهمشرى

١٤٤ ـ **كشوف مصر الافريقية فى عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩)**
عبد العليم خلاف

١٤٥ ـ **النظام الادارى والاقتصادى فى مصر فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م)**
د. منيرة الهمشرى

١٤٦ ـ **المرأة فى مصر المملوكية ،**
د. أحمد عبد الرازق

١٤٧ ـ حســـن البنـــا ٠
متى ٠٠ كيف ٠٠ لمـاذا ؟
د٠ رفعت السـعيد

١٤٨ ـ القديس مرقس وتاسيس كنيسة الاسكندرية ،
تأليف : د٠ سمير فوزى ، ترجمة : نسيم مجلى

١٤٩ ـ العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر ،
حسام محمد عبد المعطى

١٥٠ ـ تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها)
د٠ سمير يحيى الجمال

١٥١ ـ جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة
السـيد يوسـف

١٥٢ ـ الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د٠ محاسن محمد الوقـاد

١٥٣ ـ الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
د٠ علية عبد السميع الجنزورى

١٥٤ ـ هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الاسـلامية فى العصور الوسطى
د٠ علية عبد السميع الجنزورى

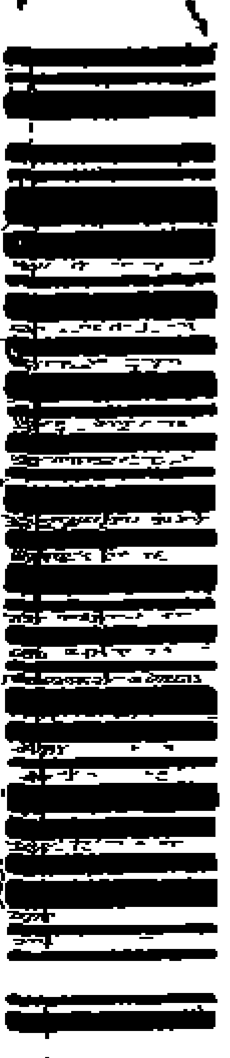
رقم الايداع ١٩٩٩/٨٩٧٤

I.S.B.N. 977 — 01 — 6195 — 0 الترقيم الدولى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

فرع الصحافة

هذا الكتاب يقدم صفحة مهمة من تاريخ مصر بعد الفتح الإسلامى، وبعد تحريرها من حكم البيزنطيين (الروم). فلم تكف الدولة البيزنطية منذ ذلك الحين عن شن الهجمات البحرية على مصر من أجل استردادها، باعتبارها أغنى أقاليم الإمبراطورية إمدادا بالقمح»، أو «مخزن قمح القسطنطينية» - كما كانت تطلق عليها - ومدينة الإسكندرية كانت هى المدينة الثالية بعد القسطنطينية فى الأهمية، وبها أعظم كنائس الروم.



٣٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب